الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد الواحد والتسعون . السنة الثامنة. أغسطس ٢٠٠٦ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 8 - Issue 91 - August 2006

وَهم السَّلام
وَهم السلاح !!



السنة الثامنة
العدد الواحد والتسعون
أغسطس ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفني
حلمي التوني
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أبو المعاطي أبو النجا.. أديب مصري.
- إدوارد إريسنيشي.. باحث متخصص في شئون الأديان.
- السيد أمين شلبي.. سفير مصري سابق، الرئيس التنفيذي للمجلس المصري للشئون الخارجية.
- أيمن الصياد.. صحفي.
- بل ماكيبن.. صحفي أمريكي.
- جاري ويلز.. مؤرخ وناقد أمريكي.
- جيسون إبستاين.. باحث أمريكي.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- عبدالقادر ياسين.. صحفي فلسطيني.
- عبدالله عبدالسلام.. صحفي.
- فيليبا تاونسند.. باحثة متخصصة في شئون الأديان.
- لانس جينوت.. باحث متخصص في شئون الأديان.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمي فلسطيني.
- محمد سعيد رمضان البوطي.. أستاذ بجامعة دمشق.
- محمد عبد الرحمن يونس.. محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- نادر فرجاني.. مدير مركز المشكاة والمؤلف الرئيسي لتقرير التنمية الإنسانية العربية.
- نعيم قاسم.. نائب الأمين العام لحزب الله.

رسوم العدد للفنانين
محمد حجي - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير) e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري، ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهماً - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

نون

سلامة أحمد سلامة

سراب الديمقراطية..

هي مثل الرمال المتحركة في الصحراء، تتغير ملامح الخريطة السياسية للتحول الديمقراطي في المنطقة العربية بين وقت وآخر. فما بدا في لحظة طريقًا سالكًا ممهدًا أمام تقدم العملية الديمقراطية، إذا به يصل إلى حائط مسدود. وما بدا بعيدًا عن مجال الحركة أو غارقًا في الصمت إذا به ينتفض مستيقظًا إلى ما لم يكن أحد يتوقعه أو يتنبأ به.

إذ لا يوجد في العالم العربي معيار للتقدم الديمقراطي يمكن الركون إليه. كما أن قوة الدفع تختلف من بلد عربي إلى آخر. وفي أحيان كثيرة تأتي في صورة نقلات مفاجئة من الحركة إلى السكون أو من السكون إلى الحركة تحت ضغط عوامل كثيرة ولأسباب يصعب تحديدها.

وعلى اتساع المنطقة العربية لا تكاد تلحظ تغيرات إقليمية تنبئ بانفتاح حقيقي على طريق الإصلاح. وباستثناء يقظة مباغتة في الأطراف دون المركز - في موريتانيا والكويت - فقد تراجعت التحولات السياسية أو أبطأت وانتهت إلى حالة من الجمود والمراوحة في المكان على أحسن تقدير.

وفي شهور الصيف الحارقة، تبدو الحاجة طبيعية تحت ضغط الخمول والاسترخاء، لإعادة النظر فيما تحقق وما لم يتحقق.. فعلى الرغم من مضي أكثر من عام تقريبًا على تعديل المادة ٧٦ من الدستور المصري، التي أثارت لغطًا كبيرًا وجدلاً واسعًا، إلا أنها لم تفض في النهاية إلى ما أيقظته في وجدان الشعب المصري من توقعات وآمال حول تداول السلطة، وما كان ينتظر أن ترتبط به من وضع نظام ديمقراطي لإحداث تغيير طبيعي في منصب الرئاسة بالاختيار الحر المباشر بين أكثر من مرشح، وبما يضمن انتقالاً طبيعيًا للسلطة، ويستجيب لمنطق التغيير وليس لمنطق التوريث. ثم ما أعقبها من انتخابات تشريعية شهدت من الانتهاكات في مراحلها الثلاث بقدر ما شهدت من مفاجآت أصابت الحزب الحاكم بصدمة لم يفق منها. بعد فوز الإخوان المسلمين بعدد كبير من المقاعد. وعلى مدى الشهور الأخيرة من انعقاد الدورة التشريعية تبخرت كثير من الوعود التي بذلت أثناء ما اعتبره البعض "ربيعًا للديمقراطية"، إذ جرى تأجيل الانتخابات المحلية بحجة الإعداد لإصدار قانون جديد. كما تم تمديد العمل بقانون الطوارئ عامين آخرين.

وفي هذه الأثناء لم تنجز حكومة الحزب الوطني من برنامجها غير اليسير من القوانين التي وعدت بها. واستخدمت أساليب أمنية اتسمت بالقسوة والعنف لردع حركات الاحتجاج الشعبي وما اعتبر بمثابة تجاوزات غير مقبولة من الصحافة، فأحيل عدد من الصحفيين إلى المحاكمة. وجرى تمرير قانون السلطة القضائية بعد مناورات ومصادمات حادة مع القضاة، لم تستجب فيه الدولة لمطالبهم التي رأوا فيها تعزيزًا لاستقلاليتهم وحماية لهم من الوقوع تحت شبهة التواطؤ في تزوير الانتخابات، أو الخضوع لرغبات السلطة التنفيذية وأهوائها.

ولئن بدا أن معركة القضاة لم تحسم بالطريقة التي ترضيهم، فقد كانت معركة إلغاء عقوبة الحبس في قضايا النشر واستبدال الغرامة والتعويض المالي بها أسرع حسمًا. حيث غلظت عقوبة الغرامة في عدد كبير من المواد، وتدخل الرئيس مبارك شخصيًا بحكم سلطاته الواسعة، لإلغاء عقوبة الحبس في جرائم الطعن في الذمة المالية للأشخاص العامة والنيابية، بهدف إبعاد شبهة الفساد عن بعض الشخصيات البارزة في الحزب الحاكم. وكانت هذه المادة بالذات من أكثر المواد التي أغضبت الصحفيين وألجأت عددًا من الصحف الحزبية والمستقلة إلى الاحتجاب احتجاجًا على التشدد التشريعي الذي لم يعد له مبرر مقارنة بالديمقراطيات الغربية والذي أبقى مع ذلك على عقوبة الحبس في عدد لا بأس به من المواد.

ومن الواضح أن التساهل النسبي الذي أبداه النظام مع الصحفيين، جاء ليعوض عن التشدد مع القضاة. إذ يبدو أن الثمن السياسي لو استجيب لكل مطالب القضاة كان سيكون أفدح كثيرًا وأبعد مدى في ضبط العملية السياسية على غير هوى الحزب الحاكم. فضلاً عن أن وسائل إغراء الصحفيين واستدراجهم والتأثير عليهم ليست بالأمر العسير، ولها سوابق وممارسات معروفة في ظل القوانين المفروضة على ملكية وإصدار الصحف وما تم الإبقاء عليه في قانون العقوبات.

أما تغيير الدستور أو تعديله ليتلاءم مع مقتضيات التطور الديمقراطي، فمازالت النخبة الحاكمة عاجزة عن انتهاج سياسة واضحة المعالم، تتهيأ من خلالها مشاركة شعبية وحزبية واسعة النطاق لإدخال إصلاحات دستورية جوهرية تستجيب لمطالب كل القوى السياسية، ولا تجمد عند حدود العمل على البقاء في السلطة، والانغماس في سيناريوهات الخلافة، والجمود على الموجود خوفًا من شبح غياب الرئيس مبارك، ومن تزايد نفوذ التيارات الإسلامية، ووهن الأحزاب السياسية المعارضة وغيابها المشهود عن الشارع. وهناك شواهد تدل على أن الجانب الأكبر من التعديلات الدستورية والقوانين المكملة في نظام الانتخاب، سوف تنصب على إبقاء قوى سياسية بعينها محجوبة عن الشرعية، وهي القوى الإسلامية على وجه التحديد.

لم تختلف الاستجابة في سائر دول المنطقة كثيرًا عما يجري في مصر.. ربما اختلفت السيناريوهات في هذا البلد أو ذاك، ولكنها استهدفت في النهاية إبقاء الأوضاع على ما هي عليه وإن كان ثمة تغييرات فبأقل ثمن سياسي ممكن.. ففي الجزائر تم تعديل الدستور ليضمن بوتفليقة إعادة انتخابه خمس سنوات أخرى. وفي تونس ومصر سعى القائمون على رأس السلطة إلى إعادة انتخابهم بطرق مرسومة يمكن ضبط نتائجها، تتخذ في الظاهر شكل التعددية ولكنها تنتهي في نتائجها إلى إعادة انتخاب نفس الرئيس السابق.

وربما كانت قصة الانتخابات الرئاسية في اليمن هي أحدث طبعة في ملف الإصلاح الديمقراطي على الطريقة العربية.. فقبل نحو عامين خرج الرئيس اليمني علي عبدالله صالح يطالب رفاقه من الزعماء العرب بأن يطرقوا باب الإصلاح، وإلا فإنهم يخاطرون بأن تجرفهم موجة الديمقراطية أمامها. وقال لهم قولته الشهيرة: "احلقوا رءوسكم الآن، وإلا جاء من يحلقها لكم". ولكي يثبت الأقوال بالأفعال، بادر إلى إعلان عزمه على عدم ترشيح نفسه بعد نهاية مدة ولايته الحالية التي استمرت ٢٨ عامًا.

ولكن الذين يعرفون العالم العربي على حقيقته لم يفاجأوا حين جاء موعد فتح باب الترشيح لمنصب الرئاسة، ليعلن الرئيس علي عبدالله صالح أنه عدل عن رأيه السابق تحت ضغط إلحاح شعبي لم يطق عليه صبرًا، حيث تدفقت جموع الشعب من كل أنحاء الجمهورية السعيدة تطالبه بالترشيح، مقلدًا بذلك نفس الإخراج المسرحي الذي أعاد عبدالناصر إلى سدة الرئاسة بعد هزيمة يونيو ٦٧. ربما اختلفت الظروف التاريخية اختلافًا شديدًا، ولكن استخدام نفس الأسلوب من أجل البقاء في السلطة يغفره الحكام العرب لأنفسهم ولا تبالي الشعوب بالعواقب.

وفيما يشبه الخطب الدعائية التي ألقاها الرئيس بوش لتبرير الحرب على العراق، لفت الرئيس علي صالح الأنظار إلى أن "جماهير الشعب اليمني عندما سمعت بأن هناك ناقوس خطر ووحوشًا تكشر عن أنيابها للانقضاض على الثورة والجمهورية والوحدة والديمقراطية، خرجت بتلقائية لم يدفعها أحد، وبدون برمجة حزبية أو سياسية، تطالبه بالعدول عن قرار عدم الترشيح وتجبره على الترشيح". ولم ينس الرئيس أن يقدم لشعبه برنامجًا انتخابيًا حافلاً

ما الذي جرى للإصلاح السياسي الذي لم يكد يبدأ قبل عدة سنوات، حتى أصبح سرابًا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا؟ ولماذا اندفعت الحكومات العربية في البداية تبدي حسن نواياها - وإن على مضض - ثم لم تلبث أن انقلبت على نفسها؟

للتنمية ومكافحة الفقر وإنجاز مشروعات لتوليد الكهرباء بالطاقة النووية.. إلى آخر الوعود الوردية التي يحتاج تنفيذها إلى ربع قرن آخر. صحيح أنه لم يتخل عن وعوده الديمقراطية فسمح لعدد كبير من المرشحين بمنافسته على الرياسة، ولكن المهم أنه لم يتردد في أن يحلق شعر رأسه بنفسه ولنفسه!!!

وربما كان الرئيس اليمني صادقًا مع نفسه عندما أعلن في حينه أنه لن يعيد ترشيح نفسه. فقبل سنوات قليلة عندما كان الغزو الأمريكي للعراق في ذروته، تصور الحكام العرب أنه من الحكمة أن يستجيبوا لدعاوى الإصلاح التي ألحت عليها إدارة الرئيس بوش، خصوصًا أن ثمة عوامل داخلية في معظم الدول العربية كانت تستدعيها وتطالب بها، في ظل الفشل الذريع الذي منيت به الأيديولوجيات والشعارات القومية والاشتراكية التي حكمت طويلاً. وفي ظل ثورة المعلومات التي أزالت الحواجز السياسية ونقلت تجارب الديمقراطية والحرية التي اجتاحت دولاً عديدة في أرجاء العالم.

ونتيجة لذلك شهدت دول عربية عديدة موجة إصلاحية محدودة. فأجريت أول انتخابات بلدية في السعودية، وأدخلت تشريعات لتحسين أوضاع المرأة وتمكينها من بعض حقوقها السياسية في الانتخاب والترشيح. وجرت مناقشات واسعة النطاق حول حرية الصحافة والنشر تحمل وعودًا مبشرة. وفي بعض دول كالمغرب والبحرين صدرت تشريعات تسمح بإعادة النظر في الحالات التي انتهكت فيها حقوق الإنسان.. حتى أجريت الانتخابات الفلسطينية التي ضرب بها المثل في النزاهة والشفافية.

ولكن هذه الموجة لم تلبث أن شهدت نهايتها، ففي سوريا أعيد اعتقال عشرات من المثقفين وأنصار حقوق الإنسان، وفي مصر استخدمت الإجراءات الأمنية العنيفة للبطش بالحركات الاحتجاجية واعتقال أنصار الإخوان المسلمين، واستخدام القوة في تفريق المتظاهرين. وأغلق المعهد الديمقراطي التابع للحزب الجمهوري أبوابه في القاهرة والبحرين، وخفضت واشنطن من تصريحاتها وضغوطها الخشنة والرقيقة في حملتها لنشر الديمقراطية في العالم العربي، والتي جعل منها الرئيس بوش شعارًا وهدفًا رئيسيًا لإعادة انتخابه في ولايته الثانية.

ولا يمكن في هذا الصدد التطرق إلى التحول الديمقراطي الذي شهده العراق.. فقد أدى الأسلوب الأمريكي في التطبيق إلى ما يمكن أن يطلق عليه «ديمقراطية التصفية» التي ولدت عمليات عنف وإرهاب وحشي، انتهت إلى تصفيات ومذابح عرقية طائفية يقتل فيها العشرات يوميًا على الهوية في موجات عنف دموي لم تفلح الديمقراطية في وقفها حتى الآن.

تقتضي النظرة الموضوعية إلى الحصاد الهزيل للتحول الديمقراطي في العالم العربي لفت الأنظار إلى التطور غير المتوقع الذي جاءت بشائره من أطراف الأمة العربية، من موريتانيا والكويت..

ففي موريتانيا طرحت القيادة المؤقتة التي تولت السلطة في أعقاب الانقلاب العسكري في أغسطس ٢٠٠٥، تعديلات على الدستور جرى الاستفتاء عليها، تقضي بخفض فترة الرياسة إلى خمسة أعوام بدلاً من ستة ولمدتين فقط، وتشترط ألا يشغل الرئيس أي موقع قيادي أو حزبي. كما حصن الاستفتاء المواد التي تحكم وضع رئيس البلاد من أي تعديلات لاحقة على الدستور تؤدي إلى الانتكاس بهذه الخطوات، وبهذه التعديلات الدستورية كرست موريتانيا سابقة في المغرب العربي، وربما في المنطقة العربية بأسرها، خصوصًا بعد أن تعهد الرئيس ولد فال والمجلس العسكري للعدالة والديمقراطية، بالتخلي عن السلطة والامتناع عن الترشيح في انتخابات ٢٠٠٧، الموعد المقرر لانتهاء الفترة الانتقالية.

هذا التطور الإيجابي في موريتانيا التي شهدت تاريخًا مستمرًا من الانقلابات العسكرية، قد يثير مخاوف البعض نظرًا لأنها تتم في بيئة سياسية هشة، وتصدر عن إرادة السلطة الحاكمة حاليًا، ولم تنبع من مؤسسات سياسية دستورية ورأي عام ليس من السهل التلاعب به، مما يحول دون إعادة شطبها أو تعديلها أو نسخها بطريقة تخدم رئيسًا جديدًا يستبد بالسلطة وتستبد به، كما يحدث عادة في العالم العربي. وهو ما ينبغي أن تحتاط له النخبة الإصلاحية في موريتانيا، فلا تنزلق إلى المنطق الذي أودى بالديمقراطية؟ ومستقبلها العربي بحجة عدم وجود البديل الصالح، والتي استخدمت لتأبيد الحكام وذويهم.

أما في الكويت فقد أحرز التقدم الديمقراطي خطوة أو خطوتين إلى الأمام، عندما جرت انتخابات عامة بعد حل مجلس الأمة السابق إثر خلاف حاد مع الحكومة حول الفساد والنظام الانتخابي، أسفرت عن تعزيز حصة المعارضة، وحقق فيها الإسلاميون مزيدًا من المكاسب وتراجع عدد المؤيدين للحكومة.. وبذلك نجح التيار الذي طالب بتعديل الدوائر الانتخابية من ٢٥ دائرة إلى ٥ دوائر فقط، وتمكن المرأة الكويتية التي زاحمت الرجل في ممارسة حقها الانتخابي بنسبة وصلت إلى ٥٧ بالمائة لم تحقق فوزًا واحدًا رغم ترشح أعداد كبيرة منهن. ومع ذلك يظل من أهم الجوانب التي تنتقص من التجربة الديمقراطية الكويتية أن تشكيل الحكومة الكويتية لا يجري على أساس نتائج الانتخابات، بسبب غياب عنصر التعددية الحزبية في النظام السياسي الكويتي، وهو ما يضعف تداول السلطة طبقًا لما تقتضيه النظم الديمقراطية.

ما الذي جرى للإصلاح السياسي الذي لم يكد يبدأ قبل عدة سنوات، حتى أصبح سرابًا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا؟

ولماذا اندفعت الحكومات العربية في البداية تبدي حسن نواياها - وإن على مضض - ثم لم تلبث أن انقلبت على نفسها؟ هل اقتنعت هذه الحكومات فعلاً بالحاجة إلى إصلاح ديمقراطي، أم أنها سايرت الضغوط الخارجية - أمريكية وأوروبية - وهي تضمر في قرارة نفسها الارتداد عن كل ما اتخذته من إجراءات في الوقت المناسب؟

هناك عوامل كثيرة يمكن الاستناد إليها في تفسير هذه النكسة، أو ما يمكن وصفه بالحصاد الهزيل للإصلاح في العالم العربي.

ومن بين أهم هذه العوامل تصاعد وزن التيارات الإسلامية في الانتخابات التي أجريت في فلسطين ومصر والمغرب والعراق والصومال، وفي الكويت أخيرًا، وهو ما أدخل الرعب في قلوب الأنظمة الحاكمة. وفي دوائر الحكم في أمريكا وحلفائها الأوروبيين، التي رأت في تنامي التيارات الإسلامية خطرًا يهدد استراتيجية الحرب على الإرهاب، والتي شكلت جوهر الالتزام الأيديولوجي للرئيس بوش.. مما حفزها على إعادة النظر والتفكير في سياسة دعم الديمقراطية في العالم العربي، والبحث عن بدائل أخرى تضمن التوسع في الحريات وضمانات العدالة وإلغاء القيود على الصحافة وتشكيل الأحزاب وتنشيط المجتمع المدني، دون أن يؤدي ذلك إلى تمكين الإسلاميين من الوصول إلى السلطة وتهديد المصالح الغربية الحيوية.

وكان طبيعيًا أن تستغل الأنظمة الحاكمة هذه الظاهرة وتضخم من خطورتها لتجد المبرر في الإبطاء، بل والتوقف عن الحركة في هذا الاتجاه، وتمرير عدد من الإجراءات السلطوية من دون أن تخشى وقف أو تقليص المساعدات واتفاقات الشراكة. وهناك دلائل تشير إلى أن الحكومات الغربية قد عادت إلى انتهاج سياسات واقعية في هذا المجال، فبسبب قلق حكومات الغرب من برامج إيران النووية على سبيل المثال، خففت من ضغوطها على دول آسيا الوسطى التي تراوغ في الإصلاحات الديمقراطية، ومن ناحية أخرى أعادت واشنطن علاقاتها الدبلوماسية كاملة مع ليبيا دون اهتمام بدرجة الديمقراطية أو الحريات التي يتمتع بها الشعب الليبي.

هل انتهى ربيع الديمقراطية الذي بدأ مع العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، وأصبح علينا أن ننتظر ربيعًا آخر لن يأتي إلا مع مستقبل غير منظور؟

المؤكد أن عاصفة النيران التي تهب على المنطقة الآن في الحرب التي تشنها إسرائيل على لبنان وفلسطين بهدف سحق واستئصال حزب الله وحماس، تعتبر الخطوة الأخيرة في إعادة رسم خريطة المنطقة، وليس من السهل التنبؤ بتداعياتها وتأثيراتها على الدول العربية.. وقد تؤجل حركة الإصلاح أو تعيد تفكيكها وتركيبها من جديد!!



خرائط التيه

أيمن الصياد

هي الحرب مرة أخرى...
رغم «سلام» راهن عليه العرب، ورغم «سلاح» راهن عليه الإسرائيليون

■ ■ بعد اجتماع مجلس الوزراء المصغر، كان إيهود أولمرت على شاشة التليفزيون الإسرائيلي يصرح بأنها «أيام صعبة لإسرائيل»... في الوقت الذي كان فيه تليفزيون «المنار» يذيع صوراً لنتائج القصف على الجانبين، مع شعار دال يقتصر على الآية القرآنية الكريمة «إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون» (النساء، ١٠٤)

وفي كل الأحوال تبقى «قراءة» شاشتي التلفاز على الجانبين مهمة في حساب النتائج.. والأهم «معايير» هذا الحساب.

هي الحرب إذن مرة أخرى.. أو بالأحرى، هو فصل جديد من حرب لم تنته أبداً. رغم «سلام» راهن عليه العرب كخيار استراتيجي، ورغم «سلاح» راهن عليه الإسرائيليون كأداة للحسم قادرة على رسم الخرائط.

ها نحن بعد ٥٠ عاماً من حمل السلاح وثلاثين عاماً على كامب دافيد نعيش «واقعياً» حالة ليست من «اللا سلم واللا حرب» فهذا تعبير قديم، وإنما من «السلم والحرب» في آن: سلم (على الورق) في المعاهدات والاتفاقات والتفاهمات، وحرب (على الأرض).. وفي النفوس.

لكل النتائج مقدماتها.. تلك سنة من سنن الحياة التي لا نملك لها تبديلاً أو تحويلاً. وعليه.. يصبح النظر إلى أي مشهد آني (مهما كان أوار نيرانه آخذاً بالأبصار سارقاً للانتباه) قاصراً. ما لم نلحظ شرر المقدمات، ونتعرف مهد جمر كان دائماً تحت الرماد.

عندما اشتعلت «الحرب السادسة» وهي كذلك رغم أن لا جيوش نظامية هناك، ورغم أن البعض أنكر عليها الصفة حتى دخلت أسبوعها الثالث، أخذت إلى طاولتي كتاب إدوارد سعيد The End of the Peace Process: Oslo and After الذي سطر فيه كلماته الأخيرة قبل أن يترك القضية «بلا أمل هناك» ويرحل.

وعندما رأيت آخر ورقة توت تسقط عن النظام العربي (راجع تصريحات «القادة» واجتماع وزراء الخارجية)، وسمعت عمرو موسى: آخر أمناء الجامعة العربية (كفكرة ربما) ينبئ من لا يريد أن يصدق أن «عملية السلام قد ماتت» وضعت إلى جانب كتاب سعيد كتاب محمد حسنين هيكل «العربي التائه.. نهايات طرق» الذي صدر قبل أربعة أعوام كاملة.

وعندما شاهدت على الشاشة قوافل المصطافين عرباً وأجانب يهربون براً وبحراً من لبنان «الفاتنة» بمقاهيها ونبايتها المطمئنة الصاخبة، بحثت في كتاب هيكل عما كتبه عن «وهم السلام».

وعندما رأيت صور طابور قتلى المظليين الإسرائيليين من «وحدة جولاني» المتميزة عائداً من «بنت جبيل» كانت أمامي الصفحات التي خصصها هيكل للحديث عن «وهم السلاح».

وكان طبيعي، وحزب الله - بعقيدته وفعله - في قلب المشهد، أن أضع إلى جانب الكتابين، اللذين ربما يرسمان أجواء المشهد ومناخه، كتابان يعرفانه أحدهما لنائب أمينه العام الشيخ نعيم قاسم والثاني - وهو الأهم ربما - في المكتبة الغربية عن الموضوع. كتبته صحفية لبنانية تنتمي إلى بيروت المسيحية وتحمل الجنسية الأمريكية، وصدر عن دار Pluto تحت عنوان Hizbu'llah: Politics and Religion

على هامش جدل يبقى كما علمنا تراثنا بضاعة الذين قالوا «إنا هاهنا قاعدون» تبقى حقائق لا مراء فيها ولا جدال:

ربما كان صحيحاً أن حزب الله استفز «شمشون» الإسرائيلي بعمليته الأخيرة. ولكن يبقى صحيح أيضاً أن حزب الله نجح. وليست هذه المرة الأولى في تحقيق ما عجز عنه آخرون، لنصف قرن أو يزيد. في كسر أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر. ليعيد - على الأقل من ناحيته - ترتيب أرقام المعادلة الشرق أوسطية التي أراد لها الكثيرون - أو رضوا - تواطؤاً أو عجزاً، أن تصبح قائمة على الهيمنة الإسرائيلية المطلقة.

ويبقى صحيح أيضاً أن لا وسيلة أخرى لاستعادة الحقوق - سواء كانت أرضاً أو أسرى - في عالم يحكم بالقوة لا بالعدل. أرجوكم تذكروا أن العالم كله الذي وقف اليوم ليطالب بإعادة جنديين «عسكريين» أسرا من داخل «مدرعتهما» لم يطالب إسرائيل أبداً بإعادة آلاف الأسرى العرب (تسعة آلاف وسبعمائة حسب تقديرات سلطات السجون الإسرائيلية) من بينهم رجال دين اختطفتهم القوات الإسرائيلية من داخل «بيوتهم» في العمق اللبناني. كما أن من بينهم سمير القنطار اللبناني الدرزي المحكوم عليه إسرائيلياً بـ ٥٤٢ عاماً من السجن، بتهمة هي في التوصيف النهائي «مقاومة قوات الاحتلال». وهو فعل مشروع في كل القوانين والأعراف الدولية.

بالضبط كما هو الحال بالنسبة للجندي الإسرائيلي الذي أسره الفلسطينيون في غزة. فالجندي (حسب توصيف القانون الدولي) أحد أفراد قوات الاحتلال. والإقليم (غزة) حسب قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة: «أراض محتلة».

ويبقى صحيح أيضاً أن بيروت الجميلة «التي نعشقها جميعاً» لم تكن يوماً بعيدة عن الأيدي الطويلة لجيش «الدفاع» الإسرائيلي (قبل ولادة حزب الله نفسه) وكلنا يذكر اغتيال الأديب الفلسطيني غسان كنفاني ورفاقه في «بيوتهم» في قلب العاصمة البيروتية (١٩٧٢). كما أن بعضنا لابد وقد عاد بذاكرته إلى العام ١٩٦٨ عندما أنزلت إسرائيل قوة من مظلييها في مطار بيروت لتفجر طائرات أسطول شركة الطيران اللبنانية عن بكرة أبيه. ولعله من باب المفارقة التاريخية أنه المطار ذاته الذي شهد الضربة الإسرائيلية الأولى للعاصمة البيروتية في اليوم الأول للحرب الأخيرة.

في عالم يحكم بالقوة لا بالعدل، تعجز المنظمة الدولية (حتى) عن حماية القوات الدولية التابعة لها، التي ذهب أفرادها إلى لبنان «لحفظ



السلام، فقتلت إسرائيل أربعة منهم بصواريخها «جيدة التصويب». ويعجز مجلس الأمن (حتى) عن إدانة الفعل الإسرائيلي.

وفي العالم ذاته الذي يحكم بالقوة لا بالعدل، هنالك تاريخ طويل من «إجبار» إسرائيل على تسليم ما لديها من أسرى (فقط على طريقة حزب الله)، ففي عام ١٩٨٥ تم الإفراج عن ١١٥٠ فلسطينياً مقابل ٣ جنديا إسرائيليا. وفي ١٩٩٦ تمت مبادلة رفات جنديين إسرائيليين مقابل ١٢٣ لبنانيا أسيرا. وفي ١٩٩٧ أفرجت إسرائيل عن الشيخ أحمد ياسين الزعيم الروحي «الفقيد» لحماس لقاء عميلين مأسورين من الموساد (اغتالته الطائرات الإسرائيلية بعدها بصاروخ أطلق على كرسيه المتحرك على باب المسجد فجر الثاني والعشرين من مارس ٢٠٠٤). على قائمة التبادل الطويلة أيضا مبادلة حزب الله ثلاثة لبنانيين ورفات ٤٠ من شهدائه برفات لجندي إسرائيلي (١٩٩٨). ثم كان أن نجحت وساطة ألمانية في ٢٠٠٤ في القيام بعملية التبادل الأهم مع حزب الله الذي أعاد بموجبها رجل أعمال إسرائيلي ورفات ثلاثة جنود مقابل ٤٣٣ من الفلسطينيين واللبنانيين.

والشاهد أن حزب الله بعملياته تلك وبروح المقاومة القائمة على عقيدة «النصر أو الشهادة» قد نجح بعملياته غير النمطية في أن يرسم «حدوداً» لما يمكن أن يحققه «سلاح» إسرائيل من هيمنة.

قلبوا في ملفاتكم أرجوكم لتقرأوا مقالاً كتبه وزير الدفاع الإسرائيلي موشي أرينز في صحيفة هآرتس (١٦ فبراير ٢٠٠٤) استلهم عنوانه من نتائج المباريات الرياضية: «حزب الله ٢/ إسرائيل صفر» واصفاً فيه عملية تبادل الأسرى تلك بأنها «الانتصار الثاني لحزب الله على إسرائيل» معتبراً أن الانتصار الأول كان عندما أجبر إسرائيل على سحب قواتها من جنوب لبنان.

كل ذلك يبقى صحيحاً. كما أنه صحيح بالطبع. وهذا جوهر الرد على التائهين في أروقة التحليلات وسراديبها. أن قرار ١٩٩٥ الذي يتهم اللبنانيون أنهم لم ينفذوا أحد بنوده (الذي هو في حقيقته شأن داخلي بحت) أمامه عشرات من القرارات ☚



للمنظمة الدولية لم تنفذ إسرائيل أيا من بنودها.

في كتابه يرى إدوارد سعيد مبكرا أن أوسلو ـ رغم كل الأمنيات الطيبة ـ لن تقودنا أبدا إلى السلام «باعتبارها تدوس على منطق (العدل) وتغلب سرديات المنتصر وتفرض منطقه». ويرى أن عدم التوازن في القوى هو الذي أجبر الفلسطينيين والأطراف العربية على قبول التنازلات التي أمليت عليهم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. مما حال دون قيام مفاوضات حقيقية.

وكان الكتاب الذي صدر مثل كتاب هيكل في ٢٠٠١ قد تضمن سلسلة من المقالات التي كتبها سعيد ونشرها في دوريات مختلفة على مدى ست سنوات كاملة. ويعلن إدوارد سعيد في مقالته الأولى عن موافقته على السلام «الحقيقي» والتعايش «الحقيقي». وهما ما يشكل همه الشاغل. مبينا أن ما يعارضه هو ما نتصوره سلاما وهو ليس بذلك. حيث يسمح للإسرائيليين بالسيادة وسلامة الأراضي وتقرير المصير فيها فيما يحرم الفلسطينيون من أي من ذلك.

وينبه صاحب «الاستشراق» إلى أهمية أن ننتبه إلى أن ما تروجه لنا الآلة الإعلامية الأمريكية هو في حقيقته «سلام مزيف» لايتمتع بمقومات الاستمرار أو الحياة. كاشفا ـ بمنهجية أكاديمية ـ عن الصور المضللة التي تقدمها وسائل الإعلام والحكومة الأمريكية عن التقدم الرائع نحو السلام في منطقة الشرق الأوسط الأمر الذي يناقض تماما ما يجري على الأرض، حيث يتزايد تدهور أوضاع الفلسطينيين. وتستمر فظاعات الاحتلال الإسرائيلي من خلال مصادرة الأراضي وتوسيع المستوطنات.

والأهم (وهو ما قد نتذكره الآن عندما نرى الإفشال الأمريكي لمحاولة المجتمعين في روما إنقاذ لبنان بتطبيق فوري لوقف إطلاق النار) يحمل إدوارد سعيد الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية ذلك كله بوصفها الراعي الوحيد لعملية السلام. ولإسرائيل التي تستغل ضعف الفلسطينيين لإطالة أمد احتلالها العسكري الاستيطاني الاطول في التاريخ.

ويذكر أن الأرقام تشير إلى أن نسبة البطالة وصلت إلى ٦٠ بالمئة في غزة (الأرقام تجاوزت ذلك الآن بكثير). ووصلت مساحة الأراضي المصادرة في القدس والضفة الغربية إلى نسبة ٥٧ في المئة من المجموع.

ومنبها إلى الحركات الفكرية التي نشأت في الغرب في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ومع عملية إنهاء الاستعمار التي شهدها العالم وقتها، والدعوى إلى الاعتراف بالشرور التاريخية التي عانتها تلك الشعوب. وطرح كل من إيمي سيزير في كتابه «خطاب في الكولونيالية» ١٩٥٥ وفرانزفانون في كتابه «المعذبون في الأرض» ١٩٦١ السؤال عن الطريقة التي يمكن أن تعوض بها أوروبا تلك الشعوب عن معاناتها وعن كل ما أخذته منها. يذكر سعيد في كتابه بدراسات أكاديمية للمؤرخين الإسرائيليين الجدد يكتشفون فيها زيف الموقف الرسمي الإسرائيلي منذ ١٩٤٨ إلى الآن وهو موقف يصر على نفي أي مسؤولية إسرائيلية عن تشريد نحو ٧٠ بالمئة من الفلسطينيين. بينما توضح الدراسات الموثقة لأولئك المؤرخين أن القادة الصهاينة مثل: بن غوريون وفايتز أوضحوا لمسؤوليهم بما لا يدع مجالا للشك ضرورة إجبار العرب على الرحيل.

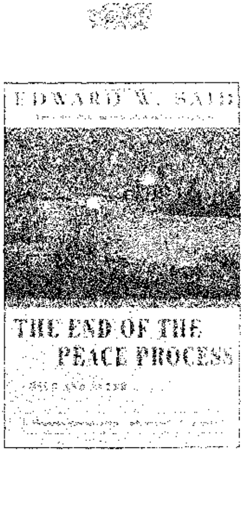
ويلخص سعيد رأيه، الذي نستعيده اليوم في أجواء حرب يراها البعض «نتاج مغامرة»، بالسؤال عن نوع السلام الذي نريد، معتبرا أن السلام الذي يعد مقبولا فلسطينيا وعربيا، وحتى بمقاييس الإنسانية المجردة هو الذي يشتمل على الحد الأدنى من العدالة. ويجب أن يقوم على التكافؤ إذ لا يمكن لإسرائيل أن تحصل على ميزات مثل: السيادة والأمن والتواصل الأرضي والاستقلال السياسي الحقيقي وتقرير المصير الوطني. فيما لا يحصل الفلسطينيون على أي شيء من ذلك. فالسلام يكون بين الأنداد وهذا بالضبط ما ينقص عملية السلام. ويقذف بها إلى مصير مجهول تظلله غمامات الحرب ويصم أذنيه وقع طبولها.

«لن يقتل أطفالنا وحدهم بعد اليوم»

السيد حسن نصر الله

الأمين العام

لحزب الله



في مقدمة كتابه «العربي التائه» الذي جمع فصولا كتبها قبل أعوام في هذه الصفحات ذاتها من «وجهات نظر» وبالتحديد سنة ٢٠٠١. وهي سنة طلع على الدنيا فيها قرن جديد. يشير الأستاذ هيكل إلى مقال مهم كتبه هنا أيضا (مارس ٢٠٠٠) بعنوان «نهايات طرق»، معتبرا أن الطرق ـ ولسوء الحظ ـ تبدو عند نهاياتها وكأنها وصلت إلى تيه لا يظهر عليه أفق.

ومع بداية هذا القرن الجديد، القرن الحادي والعشرين، أضاف الأستاذ في مقدمته، فإنه يبدو أن «العربي» أصبح هو «التائه». وهو صدى بالمقلوب لتعبير شاع قبل ذلك قرونا عن «اليهودي التائه».

وفي قرن سبق ـ وهو القرن العشرون ـ فإن ذلك «اليهودي التائه» وجد لنفسه مكانا حط فيه رحله، وحصن موقعه ـ وفي نفس الوقت فإن «العربي» اختلطت عليه الأمور وبدا وكأنه ضيع عالمه وفيه تراثه ومستقبله، ثم إنه ارتحل بحاضره تائها بين الحقيقة والوهم، وبين الرؤية والسراب، وبين الحلم والعجز.

وهكذا بدأ القرن الحادي والعشرون ـ يقول هيكل ـ واليهودي الذي كان «تائها» يتحصن في المشروع الصهيوني على أرض فلسطين، في حين أن العربي الذي كان راسخا في الطبيعة والتاريخ أصبح هو الشارد في التيه: قد يعرف من أين؟ ـ لكنه لا يعرف إلى أين؟!

وكعادته يقرأ الأستاذ التاريخ ـ وهو ماثل هنا في وثائق الحرب العالمية الثانية «التي هي اختبار عظيم للسياسات والإرادات» لينبهنا إلى حقيقة أن «التهافت على السلام» لا يصنع وحده سلاما، و أن استرضاء العدو «بأي ثمن» هو في نهاية المطاف أقرب الطرق إلى الحرب؛ «لأن التهافت على المطلب مثير للطمع، ولأن الغاية النبيلة لا تحققها وسيلة ذليلة. فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يستخذي فإن الطرف الآخر مدعو لأن يستقوي، وتلك طبائع أشياء قبل أن تكون قوانين صراع».

ومثال ذلك الأشهر في التاريخ ـ يذكرنا هيكل ـ أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ «تشمبرلين» لم يكن يدرك وهو يحمل مظلته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألماني «أدولف هتلر» في «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليبشر الشعب البريطاني (وشعوب اوروبا) بـ «السلام في زماننا»، أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق»، وأنه يوهم صنع «السلام في زماننا». جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافت على السلام» دليلاً على الضعف والوهن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تحمل مسؤولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

نقرأ هيكل ونتذكر: ليس فقط «كامب دافيد»: النقطة الأولى التي رسمناها على دائرة السلم والحرب «المغلقة»؛ بل قرارا عربيا «على مستوى القمة» ـ حسب الألقاب البروتوكولية ـ باعتبار السلام خيارا إستراتيجيا «وحيدا» لكل شعوب المنطقة. وكان الدافع لـ «تمرير» ذلك القرار يومها أنه «يحرج الإسرائيليين أمام العالم!!».. عندما يتشددون في مواجهة أمة أجمعت رأيها على «خيار السلام» والحاصل ونعرفه جميعا أن الأيام جرت.

وأنه كما أن النهر جرت فيه مياهٌ كثيرة - حسب التعبير الشائع - جرت على الأرض دماءٌ أكثر. جلها «عربية». كما أن الإسرائيلي «المحرج» لم يجد ثمة من حرج في أن يرد على قمة بيروت «تذكرونها» بمنع ياسر عرفات «أحد المدعوين لحضورها» من مغادرة المقاطعة.

لابد - يشدد هيكل - ونعيد قراءة ما كتب حين نرى أمامنا «الدائرة المغلقة» للحرب والسلام في الشرق الأوسط. أن تكون للسياسة قوة فعل تَحترم نفسها، وتَنتزع احترام الآخرين حين يرون السلام يعرض نفسه واقفاً على قدميه وليس راكعا على رُكبتيه. مؤكدا أن «السياسة» الواضحة تُعززها «الإرادة» قد تغني عن الحرب المسلحة ونزيفها الدموي. في حين أن «السياسة» المترددة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة في التيه أو مذبحة في العراء!

وعليه .. فقد كان طبيعي تماما أن لايوصلنا «وهم السلام» إلى سلام. وأن نرى أمامنا «حرب سادسة».

والحاصل أنه في الوقت الذي حلق فيه «وهم السلام» فاردا أجنحته الشفافة البيضاء في سماء العرب، استبد «وهم السلاح» بأولئك الذين أسسوا دولتهم تحت نيرانه. وكانت المفارقة مثيرة .. كما كانت النتيجة واحدة. رأيناها ومازلنا في دروب غزة الضيقة، التي لم تعش سلاما «رغم كل الاتفاقات» كما ظلت عصية ومؤلمة «رغم كل الصواريخ والمدرعات والطائرات». ونراها اليوم في جنوب لبنان رغم المعادلة ذاتها.

ويلاحظ هيكل في كتابه أن المشروع الصهيوني - منذ بدايته - قبل مائة عام كان يُقدر «للسلاح دوراً لا يتجاوزه» ثم تَحول هذا الدور مع التجربة العملية حتى تَغير - بالكامل تقريباً.

إذ على امتداد نصف قرن، أي من بداية المشروع وحتى سنة ١٩٤٨ . كان المطلوب من السلاح - طرد أكبر عدد من الفلسطينيين من وطنهم، خصوصاً بعد أن اتضح أن فلسطين ليست - كما تصور «هيرتزل» - «أرضاً بلا شعب تنتظر شعباً بلا أرض».

ثم أنه - يرصد هيكل - على مدى ما يقرب من عشرين سنة تالية - من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ ، كانت الإستراتيجية العليا لإسرائيل تُعطي للسلاح الإسرائيلي دوراً محدداً مطلبه إبعاد الواديين الكبيرين - وادي الفرات ووادي النيل - عن منطقة الشام التاريخية الممتدة والواصلة بينهما. والمطلوب من وراء هذا الدور أنه إذا كان لا بد للمشروع الإسرائيلي أن يعيش في «الوطن الموعود» فإن البيت الفلسطيني وحده لا يكفي، وإنما لا بد لسلامة البيت من مُحيط أمني يعطيه مساحة كافية للتمكن والنمو؛ لأن الأوطان لا يُدافع عنها عند حدودها، وإنما يُدافع عنها في إقليمها جواراً ومحيطاً.

كان الآباء الأوائل «المؤسسون» - حسب هيكل - يدركون حاجة المشروع الصهيوني إلى استخدام السلاح. لكنهم جميعاً جاهدوا حتى يلتزم السلاح حدوده ولا يفسد على المشروع دعاواه المعنوية وضروراته العملية! إلى أن وقع المحظور في تلك الأيام المشهودة من يونيو سنة ١٩٦٧؛ حين اندفع السلاح - مطمئنا إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية وقوتها وقيادتها ورئيسها في ذلك الوقت «ليندون جونسون» جاهزون جميعاً لمعركة مع مصر - إلى ما يمكن اعتباره نقطة تَحول في التاريخ الإسرائيلي، إذ اعتبر نفسه مُكلفاً بمستقبل إسرائيل ومصيرها. فكان أن تَجاوز السلاح الإسرائيلي حدوده مستوليا على السياسة؛ متجاوزا ومخترقا حدوداً لم تطلبها إستراتيجية إسرائيل العُليا كما قدرها الآباء المؤسسون الأوائل، بل حاذرتها مُتأكدة أنها على المدى البعيد محكومٌ عليها!

■ والنتيجة - والكلام لهيكل في كتابه المهم الصادر قبل سنوات - أنه في ثلث القرن الأخير وَجدت إسرائيل نفسها في الشام دولة إمبراطورية (وفي الإمبراطوريات كبير وصغير) لكن الإمبراطورية مهما كان حجمها قد تكون لها مزايا مُغرية، لكن لها مع مرور السنين تكاليف مُرهقة، خصوصاً عندما تتنازل كافة عوامل القوة وتترك مكانها للسلاح وحده.

ولقد تَعلمت الإمبراطوريات - حتى تلك الكبيرة والقادرة - أن تكاليف الإمبراطورية - حين يكون اعتمادها على السلاح وحده - عبء ثقيل، خير منه الانسحاب، وحتى بغير شروط - وأحيانا بغير كرامة، كما فعلت الإمبراطورية



«هناك شرق
أوسط جديد يولد الآن»

كونداليزا رايس
وزيرة الخارجية
الأمريكية

البريطانية في السويس (مصر)، وكما فعلت الإمبراطورية الفرنسية في «ديان بيان فو» وحتى كما فعلت الإمبراطورية الأمريكية في «سايجون» (فيتنام).

وبعد أن يقرأ هيكل من تاريخ الدم في منطقتنا (اجتياح لبنان، وقانا، والانتفاضتين، والاغتيالات .. إلى آخر ماجرى ويجري) كيف تجاوز السلاح الإسرائيلي «بغرور القوة» حدوده. يذكرنا بأن السلاح الألماني تفوق إلى درجة جعلت من أدولف هتلر سيدا على أوروبا كلها .. لكن السلاح الألماني تجاوز ما يقدر السلاح على تحقيقه مهما بلغ تفوقه. فإذا بهتلر يخرج من أوروبا إلى الشرق نحو الاتحاد السوفيتي في أغسطس ١٩٤١ ثم إذا هو يخرج إلى المحيط غربا ليعلن الحرب على الولايات المتحدة في ديسمبر من السنة نفسها .. ثم كان أن انتهى الغرور الألماني بالسلاح وتفوقه إلى هزيمة ألمانيا واستسلامها بلا قيد أو شرط. ثم انتهى هتلر - رغم سلاحه - إلى الانتحار في قبو بارد من الأسمنت.

فكرة هيكل عن «حدود السلاح» الإسرائيلي كان قد فصلها أيضا في كتاب خصص فصولا طويلة منه لدراسة متعمقة في «الوثائق الإسرائيلية» ليخلص إلى أن ما اصطلح على تسميته مجازا بـ«أزمة الشرق الأوسط» أو بـ«الصراع العربي الإسرائيلي» إذا وقع تعبير أصرح لا يحتاج إلى «المجاز» كي يصك له مصطلحا، تنتمي إلى نوع من الأزمات موصولا في أساسه بثوابت التاريخ والجغرافيا .. ذلك إذا صح فهمنا لماهو «التاريخ»؟ وماهي «الجغرافيا»؟..

قرر العرب - هوانًا لا اختيارًا - أن يكون السلام «خيارهم الوحيد» .. متجاهلين أن للسلام «الحقيقي» شروطًا .. فصار «السلام وهمًا».

وقرر الإسرائيليون - بجموح القوة - أن يكون السلاح «خيارهم الوحيد» .. غافلين عن أن للسلاح حدوداً .. فصار «السلاح وهمًا».

لا سلام بلا عدل .. لا يريد الإسرائيليون - مُغترين بسلاحهم - الاعتراف بحقيقة أزلية.

ولا سلام بلا توازن .. لا يريد العرب أن يروا «الحقيقة العارية».

وبما كان لابد اليوم لكل من راهنوا على أوسلو أن يعتذروا الآن لإدوارد سعيد وأن يعيدوا قراءة كتابه الأخير.

ما بين «سلام» توهمه العرب قادماً لا محالة، وبين «سلاح» توهمه الإسرائيليون قادرا على رسم الخرائط، دخلنا جميعا في تيه لا يبدو له أفق. رغم أطنان السلاح والذخيرة وآلاف القرارات والاتفاقات وعشرات من الصور البروتوكولية المزدحمة. فالحقائق على الأرض لا تؤسس لها أبداً أوهام أو أمنيات.

في وسط القاهرة التي وقعت معاهدة «للسلام» مع إسرائيل قبل ما يزيد على ربع قرن لافتة كبيرة كتب عليها بحبر الإحساس بالظلم واليأس «نصر الله يا حبيب .. اضرب اضرب تل أبيب».

... ولا تعليق. ■



الخيارات المفتوحة

مستقبل حزب الله

نعيم قاسم

التساؤل حول مستقبل حزب الله ظل حاضراً وبقوة منذ سنوات عديدة وتحديداً عقب الانسحاب الإسرائيلي من لبنان في مايو عام ٢٠٠٠م. عندها قيل: لقد انتصرت المقاومة فما الداعي لاستمرار السلاح في أيدي حزب الله وبقاء الجيش اللبناني بعيداً عن الحدود مع إسرائيل؟ ثم تجدد السؤال وبإلحاح مع صدور القرار الدولي ١٥٥٩ الداعي لانسحاب سوريا من لبنان ونزع أسلحة الميليشيات، ومع اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في فبراير ٢٠٠٥م. وعقب الانسحاب السوري وسلسلة الاغتيالات التي تلته، عقد الفرقاء اللبنانيون جلسات حوار خلال الشهور القليلة الماضية لبحث مستقبل لبنان وفي القلب منه مستقبل الحزب لكن جاء العدوان الإسرائيلي في ١٢ يوليو الماضي ليبعث الفوضى والدمار في لبنان وليحاول فرض واقع جديد على الأرض كان الفرقاء اللبنانيون أنفسهم يحاولون تجنبه من خلال التوصل إلى اتفاق وطني يراعي المصلحة اللبنانية أولاً.

سؤال المستقبل لم يغب عن حزب الله ذاته، وقد تحدث زعماء الحزب وكتبوا كثيراً في هذه المسألة ومن بينهم الشيخ نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله الذي أصدر كتاباً عام ٢٠٠٢ اخترنا منه هذه الصفحات.

«وجهات نظر»

أطل حزب الله على الساحة العملية من خلال المقاومة، وارتبط خطابه تبعاً لأولويته بالعمل العسكري ضد إسرائيل، وأنجز خلال فترة وجيزة حضوراً مميزاً في عملياته الجهادية النوعية، ولم تكن الحياة السياسية موجودة في لبنان خلال تكوّنه بسبب الحرب الداخلية[1]. واتجهت الأنظار الدولية والإسرائيلية إلى نمو الحزب المقاوم وخروجه إلى العلن في مطلع العام ١٩٨٥، فانهمرت الاتهامات عليه بالأصولية والإرهاب، وظهرت وسائل الإعلام الأجنبية - بتوجيه استخباري - صورة الحزب المقاتل والصلب الذي لا يمكن التعايش معه. وتتالت التصريحات والتحليلات الأجنبية وبعض المحلية عن مناطق مقفلة للحزب، وحياة خاصة لم يعهدها الناس، وصلابة لا تبقي صاحباً ولا تبني علاقة، وشدة برزت من خلال المواجهات القاسية مع الجيش الإسرائيلي وعملائه، ما ربط الحزب بحضوره وصورته العسكرية، حتى ترسخت القناعة عند أكثر المحللين والناس، أن وجود الحزب مرتبط بالمقاومة، ولا شيء عنده غيرها، ولا يستطيع الاستمرار بدونها، فإذا تم التوصل إلى تسوية ما في المنطقة، فسيكون الحزب ضحيتها، وبالتالي فحضوره ووجوده مؤقت، ولمرحلة خاصة في الصراع مع إسرائيل.

ولّد هذا الانطباع مناخاً عاماً عن حصرية اهتمام الحزب بالمقاومة، شمل أيضاً شريحة من قاعدة الحزب، بسبب ظروف النشأة وضرورات التعبئة ضد الاحتلال وواقع لبنان، وهذا ما تطلب جهداً ثقافياً وتربوياً وعملياً في الأوساط المؤيدة، عندما قرر الحزب المشاركة في الانتخابات النيابية عام ١٩٩٢. كما تطلب خطاباً عاماً، وإجابات عن أسئلة صحفية متكررة ومتلاحقة، وتوضيحات تفصيلية أثناء بناء العلاقة مع الشخصيات والأطراف المختلفة.

ساهم خطاب الحزب، إضافة إلى العمل الميداني شعبياً ونقابياً وانتخابياً ونيابياً وسياسياً في الاكتشاف التدريجي لنظرة الحزب الشمولية، ورؤيته للعمل السياسي، واهتماماته المتنوعة، شأنه شأن أي حزب يعمل في بلد، مع تمايزه بمنهجه وما ترتب عليه من أهداف، وخصوصية المقاومة في لبنان.

فالحزب إسلامي قبل أن يكون مقاوماً، والتزامه العقائدي هو الذي دفعه ليرفض الاحتلال ويقاتل إسرائيل، فهو يحمل منهجاً للحياة بشموليتها، ولا يقتصر واجبه على ناحية دون أخرى، وإن برزت أولوية الجهاد على غيرها. وقد تحققت مكانته وانتشاره الشعبي من إيمانه بهذا المنهج، الذي يقدم حلولاً لمشاكل الواقع، حيث توفق الحزب في تجسيد جزء منها بمقاومة الاحتلال، بأداء متميز وتجربة ناجحة، أتت ثمارها بالتحرير في ٢٤ أيار ٢٠٠٠، وبسلوكيات فردية وعامة، اجتماعية وسياسية وعسكرية، أثرت في جمهور عريض: أيد وناصر والتف حول قيادته.

بناء عليه لم يعد الحزب فكرة للإقناع، بل تحول إلى واقع متجذر في كيان الأمة، ولم يقتصر الحزب على المجموعات الجهادية العسكرية، بل دخل في كل النسيج الاجتماعي والسياسي والثقافي للناس، ولم يتوقف عند حدود المحازبين، بل أصبح تياراً شعبياً واسعاً يشمل الرجال والنساء والأطفال، ويتجاوز الحدود المذهبية والمناطقية، فإذا كانت الاستمرارية ترتبط بالتكون النظري للفكرة والخطة والبرامج، والمسار العملي يرتبط بالامتداد الشعبي، فهما متحققان في الحزب، ما يعطيه قابلية الاستمرار بثبات. فكيف إذا اجتاز امتحانات عدة[2]، راهن البعض عليها لتكون محطته النهائية، فخرج الحزب منها أقوى، وأسس بعدها للمزيد من الحضور والتأثير.

أما التهديدات الأمريكية الإسرائيلية المتكررة، فهي جزء من وسائل الضغط على الحزب ومن يؤيده، وتدخل في إطار الحرب النفسية، التي إذا نجحت توفر النتائج المطلوبة، من دون التورط بأعمال لها مفاعيل سلبية مضادة، لكنها لم تجد نفعاً مع حزب عقائدي، يعلم تماماً طبيعة أهدافه، وما يمكن أن يتحمله في سبيلها. لذا كانت تتحول التهديدات في بعض المحطات إلى اعتداءات كبيرة، وهي قابلة للتكرار، فهي جزء من المواجهة، لكنها لا تضمن للعدو فرصة تحقيق ما يريد بل قد ترتد عليه، وهذا ما حصل فاضطر للانسحاب من جزء كبير من لبنان، على الرغم من كل الأساليب العدوانية التي استخدمها. ولا يتوقع أحد أن تكون نتيجة العدوان عادية ففيها التضحيات الكبرى،

فصل من:
حزب الله
المنهج.. التجربة.. المستقبل
الشيخ نعيم قاسم
بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٢

لم يسبق للمحتل الإسرائيلي أن التزم بخيار مستقبلي محدد، ليبقى الطرق مفتوحة أمامه، وليستفيد من مناورة الخيارات المحتملة إلى أقصى حد، فما الداعي للتصرف بغير طريقته في إبقاء الخيارات مفتوحة؟!



إلا أن نتائج الصمود أكبر بكثير. وبما أن السياسة الأمريكية الإسرائيلية مبنية على فرض واقع الاحتلال وشروطه بالقوة، فالخيار محصور بالاستسلام أو المواجهة.

وقد أحرز حزب الله تقدماً في النظرة إليه، وتوسعت علاقاته الإقليمية والدولية، وحصل تعديل نسبي في طريقة تعامل الغرب معه، وهذا يعود إلى حكمة أدائه وبياناته وعلاقاته. ولا يمكن التعويل على هذا المؤشر ومدى استمراريته. إلا أنه يحمل دلالة على الأهمية التي اكتسبها الحزب، حيث استطاع تغيير الصورة السلبية التي روج لها مع بداية نشاته.

احتمالان للضغط

وبما أن الهجمة شديدة على الحزب ووجوده ودوره وأهدافه، فإن التساؤل عن استمراريته يبقى حاضراً. فإذا لم يكن بالإمكان تصفية وجوده مباشرة عبر الاعتداءات الإسرائيلية، فإن تطورات المنطقة قد تؤدي إلى ظروف تحصل فيها إحدى حالتين أو كلتاهما معاً:

١ ـ تحريك فتنة داخلية مع الجيش اللبناني أو مع قوى محلية، تستدعي أداء سياسياً من الحكم اللبناني يلغي وجود الحزب كمقاومة.

هذا الاحتمال لا يحصل كمشكلة عابرة، بل ينطلق من موقف سياسي تبرز مقدماته تدريجياً باتجاه الفتنة لتسويق النتيجة. ولكن لا قابلية لحصوله، لأن الموقف السياسي للجيش اللبناني والأطراف المحلية الفاعلة والميدانية منسجم تماماً مع الموقف المقاوم وداعم له. وقد نسجت التحالفات السياسية في لبنان على أساس الموقف مع إسرائيل، الذي أعطى المقاومة أولوية في الاهتمام والتبني. ومع ارتباط هذا الموقف بالظروف الإقليمية، فإنه لا ينعقد من دونها، وبخاصة الموقف السوري، الذي لا يسمح بما يؤدي إلى التصادم مع المقاومة. فإذا أضفنا أسلوب المقاومة في التعاطي مع القضايا الداخلية، ومراعاة القوى المحلية، وترك التدخل في خصوصيات الدولة الأمنية، أمكن استيعاب سبب اطمئنان الواقع الداخلي، وعدم دفعه إلى التفكير بالتصادم مع المقاومة، فالتصادم لا يخدم هذه القوى، وإنما يستفيد منه خصوم لبنان.

٢ ـ مقايضة سوريا بالتخلص من الضغوطات التي تمارس عليها مقابل التخلي عن دعم الحزب، وبما أنها الجهة التي توفر الغطاء السياسي المساعد لاستمرارية المقاومة، فإن رفع هذا الغطاء يكشف الحزب



ويجعـلـه مسـتفرداً فيسهل ضرب المقاومة.

لكن هذا الاحتمال غير وارد أيضاً، لأن العلاقة الاستراتيجية التي نمت بشكل تدريجي وهادئ بين سوريا والحزب، والقواسم المشتركة في النظرة إلى تطورات المنطقة، والمصداقية التي حكمت تاريخ جهاد الحزب منذ الاجتياح حتى التحرير وما بعده، والحاجة الفعلية لبقاء التعاون بين الطرفين لمواجهة التحديات، وجدية الموقف السوري من الاحتلال الإسرائيلي وحق تحرير الأرض.. كلها عوامل تؤكد على استحالة هذا الاحتمال.

ومهما كانت الظروف صعبة ومعقدة، فالخيارات مفتوحة للتعاون المناسب بين سوريا والحزب، بما يساعد على تخطي العقبات والمخاطر بأقل الخسائر الممكنة وبأعلى مستوى من التفاهم. فعندما تتحمل سوريا منفردة وفي اللحظات الصعبة، في زمن المرحوم الرئيس حافظ الأسد عبء الدفاع عن حق لبنان وفلسطين بمقاومة المحتل، وترفض المساواة بين المقاومة وبين الإرهاب، وعندما يرفض الرئيس الدكتور بشار الأسد أي خدش بالمقاومة وبسلامة أهدافها، ويعلن تمسكه بخيارها من دون تحفظ، فهذا يختلف عن مجرد التأييد أو الدعم العابر أو الحديث عن حق يجب أن يُراعى. فقد تحولت المقاومة إلى جزء لا يتجزأ من الإيمان والسياسة السورية الثابتة، وهذه ضمانة مهمة لعدم الاختراق والمقايضة المزعومة.

استمرارية المقاومة

هل يعني هذا أن المقاومة مستمرة بشكل دائم ولا عائق أمامها؟

لقد نشأت المقاومة كرد فعل على الاحتلال الإسرائيلي، الذي انطلق من فلسطين وامتد إلى المنطقة العربية، ومادام الاحتلال موجوداً فإن المقاومة مستمرة، لأنها انطلقت من الإيمان بإزالة الاحتلال، ولم تكن حالة عرضية أو عشوائية. وبما أن مفاعيل الاحتلال امتدت لتشمل احتلال الأرض، وإرهاب المنطقة، وتهجير الفلسطينيين، واختراق الأجواء والمياه الإقليمية لدول مجاورة كلبنان، فمقاومته يجب أن تستمر، وبطرق مختلفة، تنسجم مع طبيعة الظروف الميدانية الجغرافية، وبالأساليب التي تُفوت على إسرائيل تحقيق أهدافها، وبالاستفادة أيضاً من الواقع السياسي الإقليمي والدولي.

ولطالما طرح الدبلوماسيون والصحافيون سؤالاً على حزب الله: ماذا سيفعل الحزب فيما لو تحررت الأراضي اللبنانية بالكامل وتم الإفراج عن المعتقلين والأسرى؟ وهو سؤال تحتاج إسرائيل وأمريكا معرفة الإجابة عنه، لبناء منظومة من الخطط والمواجهة تنسجم مع الإجابة. لكن الحزب أصر على عدم الإجابة. فالأمور متشابكة ومترابطة، والتطورات تحمل الكثير من المفاجآت والمتغيرات، ولكل احتمال مستقبلي إجابة تفصيلية مختلفة، وبما أن الاحتمالات كثيرة فالإجابات كثيرة، وحيث تؤدي الإجابة إلى تحقيق رغبة إسرائيلية، فالأفضل أن تبقى مبهمة. ولا داعي لأن تقيد المقاومة نفسها بأجوبة تُلزمها أو تضعها أمام مساءلة من الآن، إضافة إلى تعقيدات وترابط التطورات على الساحات الفلسطينية واللبنانية والسورية وما يمكن أن تفعله إسرائيل في المنطقة، وهذا ما يتطلب جهوزية عالية لا تنفع معها كثرة التصريحات.

كما لا يمكن تحديد طريقة عمل واحدة للمقاومة، ولا يمكن تقييدها بأساليب محددة، بل من الحكمة إبقاء الخيارات مفتوحة أمامها. ولا داعي لرسم نتائجها المستقبلية وما يمكن أن تقوم به لتصل إليها، حتى لا تنكشف مخططاتها للعدو، وكي يبقى في حالة قلق مما تختزنه المقاومة من قوة ومفاجآت وأداء مستقبلي.

لم يسبق للمحتل الإسرائيلي أن التزم بخيار مستقبلي محدد، ليبقى الطرق مفتوحة أمامه، وليستفيد من مناورة الخيارات المحتملة إلى أقصى حد، فحدود ومساحة فلسطين خاضعة للتفاوض، وطبيعة الدولة الفلسطينية تحسمها المفاوضات، والمدى الزمني الذي يرسم الوضع النهائي مرتبط باطمئنان الإسرائيلي على أمنه، ولا تحدد الخطوات اللاحقة إلا بعد الانتهاء من كل خطوة بطريقة منفصلة عن غيرها. فما الداعي للتصرف بغير طريقته في إبقاء الخيارات مفتوحة؟!

وإذا تخوف البعض من إبقاء لبنان في دائرة المواجهة بهذه النظرة للمقاومة، فإن تخوفه خاطئ في تحديد سبب المواجهة. لأن العدوان على لبنان بدأ من إسرائيل بعنوان تحقيق المدى الأمني للاحتلال، واستمر لفترة ٢٢ سنة من أجل استدراج لبنان لاتفاق سياسي وضمانات أمنية لمصلحة الكيان الإسرائيلي، ومع انسحاب الهزيمة عام ٢٠٠٠، فإن مطامع الاحتلال في لبنان لم تتوقف، وإذا لم يتقدم على مغامرة عدوان جديدة حتى الآن فلخشيته من جهوزية المقاومة الإسلامية وردة فعلها، ما يؤكد ضرورة إبقاء القدرة المقاومة للبنان كي يتصدى للأخطار المحتملة، فضلاً عن تبعات الاحتلال التي لازالت مترتبة على لبنان، من وجود اللاجئين على أرضه، إلى الاختراقات الدائمة لأجوائه ومياهه الإقليمية، واحتلال مزارع شبعا، ووجود الأسرى والمعتقلين، ومحاولة منعه من الاستفادة من مياهه. ومهما عالجت إسرائيل مضطرة لبعض هذه الملفات، فإنها ستبقى الخطر المستقبلي على لبنان.

لبنان وفلسطين

ولا ننس مسئوليتنا في مؤازرة الشعب الفلسطيني، وترابط قضيته مع واقعنا، وانعكاس القضية الفلسطينية على لبنان والمنطقة، وهذا ما يجعل الإيمان بالتحرير قضية واحدة، والمصالح المشتركة همّا واحداً. أما كيفية المؤازرة والدعم، فهي من عوامل القوة في الموقف والتي تُمارس عملياً ولا ينفع الحديث عنها، وهي مرتبطة بعوامل كثيرة سياسية وجغرافية وميدانية.

فالقاعدة الأساس في مواجهة الخطر الإسرائيلي الآني والمستقبلي هي: أن الكيان الإسرائيلي يشكل خطراً كبيراً على فلسطين والمنطقة، ويجب مواجهته ورفضه ومقاومته، وإعداد العدة اللازمة للتصدي له، والتعاطي مع كل مرحلة بحسب مستلزماتها، على قاعدة رفض تشريع الاحتلال واستمرار مقاومته كأصل، ولا داعي للحديث عن أي خطوة مستقبلية، فلكل حادث حديث.

هل هذا يعني أن الجبهة اللبنانية قد تُفتح للتواصل مع الداخل الفلسطيني؟ إنه سؤال مستقبلي يخضع لطريقة التعاطي مع كل الأسئلة المستقبلية، التي لا تسدي الإجابة عنها خدمة لإسرائيل. فلا يضمن أحد ما سيكون عليه حجم العدوان المستقبلي، والجبهات التي يمكن أن تُفتح أو تُقفل، فالمسألة لا ترتبط بما تقرره المقاومة فقط، بل ترتبط بمجموعة من التطورات الإقليمية التي قد تفتح الأبواب على كل الاحتمالات، فلا داعي للعجلة، لأن المهم هو التحصين والاستعداد لمواجهة التحديات، من دون السقوط أمام التهويل والتهديدات المتكررة، فهي أقل بكثير من النتائج الصعبة والخطرة التي تنشأ عن التسليم لضغوطات الصهاينة ومطالبهم.

آمن الحزب بوجوب تحرير كامل فلسطين والأراضي العربية المحتلة، واعتبر أن زرع الكيان الصهيوني في المنطقة غير مشروع، فهو غدة سرطانية ووجوده مقدمة للسيطرة على المنطقة بأسرها، ولا تبرر مصالح الدول الاستكبارية ودعمها للكيان الغاصب خضوع المنطقة لمشروع الاحتلال، فمن الضروري والواجب الشرعي والإنساني والأخلاقي والقانوني بذل أقصى الجهد للتحرير، وإذا كان فرض الاحتلال بقوة السلاح والدعم الدولي، فإن إسقاط الاحتلال يكون بقوة المقاومة وتعاون القوى التحررية في المنطقة.

هذا لا يعني أن الطريق معبدة وأن النتائج سريعة، لكن يجب أن تكون الآمال كبيرة وأن يتم السعي لتحقيقها، وأن تبحث كل القوى التحررية عن وسائل التعاون والدعم ومقاومة الاحتلال.

فلو علمنا جدلاً بحصول التسوية، ورسمت معالم جديدة لفلسطين والمنطقة، فإن الحزب لا يمكنه أن يقبل أو أن يوقع على مثل هذه التسوية التي تلزم أصحابها، ولا تغير واقع فلسطين في أنها لأصحاب الأرض الأصليين. لكن



كيف تترجم هذه الممانعة؟ فهذا يرتبط بالتطورات والظروف، لكن عندما تكون الممانعة هي الأصل، فمن الطبيعي أن يتلازم معها إعداد عدتها، ولا داعي لاستعجال الاحتمالات الكثيرة في هذا الاتجاه.

إن الحزب يأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية التي تحيط به، ويُدخلها في حسابه في إجراءاته العملية، لكنه لا يخضع لها ولا يستسلم لضغوطاتها. إنه حريص على إيمانه وثوابته حيث لا تؤثر التكتيكات المرحلية عليها ولا تكون ثمناً للتخلي عنها، وهو يستفيد من الظروف السياسية، للنفاذ منها باتجاه تقوية عوامل تحقيق أهداف المقاومة. فهو لا يعزل المقاومة عن العوامل المحيطة بها بطريقة تجريدية، لكنه لا يجعلها جزءاً من صفقة أو مساومة على حل سياسي يسقطها في مقابل ما يكرس شرعية الاحتلال. فلا بديل عن التحرير ولو طال الزمن وكثرت العوائق. لكن المهم هو الثقة بالله وبالنفس والحق، والصبر على الصعوبات والتضحيات، وعدم استعجال النتائج.

توقعات المستقبل

عند الحديث عن المستقبل، لابد من تقييم الحاضر، الذي يحمل مقومات النجاح أو الفشل، الاستمرارية أو الانحسار، النمو أو الاضمحلال، لتكون مؤشرات التقييم مساعدة في رسم الصورة المستقبلية المحتملة.

فإذا عدنا إلى النهج، نجد أن منهج الإسلام الذي استمر قوياً فاعلاً، على الرغم من مرور أكثر من ألف وأربعمائة سنة على طرحه، وهو الذي بنيت على أساسه وانطلقت مسيرة حزب الله بهذا الثبات والوضوح. وبما أن الانتماء لا ينفصل عن التربية العقائدية والسلوك الإسلامي، وحيث يعتبر التثقيف والتعبئة جزءاً أساسياً من نمط عمل الحزب، فإن التأصيل العقائدي والشرعي قد ربى جماعة متمسكة بالنهج، الذي يحمل قدرة ذاتية على الاستمرار ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (سورة الحجر الآية ٩) وهو تأصيل لم يقتصر على الحزبيين، وإنما شمل شرائح الأمة المختلفة، بمواقعهم وأنشطتهم ومستوياتهم العمرية المختلفة، وبما هم متواجدون في الدائرة الشعبية الواسعة.

لم يعمل الحزب ليربط الناس به كمحور بمعزل عن المنهج، وما يسجل للحزب، نجاحه في أن يكون إطاراً فاعلاً لحشد الطاقات، وتوزيع الأدوار، وربط



إذا تخوف البعض من إبقاء لبنان في دائرة المواجهة، فإن تخوفه خاطئ، لأن العدوان على لبنان بدأ من إسرائيل بعنوان تحقيق المدى الأمني للاحتلال

الجماعة ببعضها، وإنجاز تجربة عملية في ساحة الجهاد، وفق ترجمة المضمون الإسلامي السليم. وهذا يعطيه حصانة التماسك والنمو والصمود أمام التحديات.

وبما أن النمو كان طبيعياً، من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن العزلة إلى التعاون، فقد رسخت هذه الخطوات بناء متيناً، على الرغم من التطور السريع الذي ارتبط بشكل أساسي بحجم التضحيات، وقبل وبعد كل شيء بتسديد الله لعباده المؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (سورة محمد الآية ٧) فالبناء المركز والثابت لا يمكن أن ينهار بتهويل أو قرار استكباري.

فإذا أضفنا حاجة الناس إلى من يقودهم ويسير أمامهم، وما حققته طروحات الحزب وتجربته وإنجازاته من إشراقة أمل في المنطقة بواقعها الأليم والمحبط، وما آلت إليه تجارب المستسلمين والمنسحقين أمام الاستكبار وإسرائيل، فإن النتائج الواعدة للاستمرارية متوقعة أكثر من أي احتمال آخر.

وكي تكون الأمور أكثر وضوحاً، فإن الخطر على الحزب وعلى غيره من القوى الحية، يأتي من القرارات العدوانية لأمريكا وإسرائيل. أما تجربة إسرائيل في فرض حدودها وأمنها، رغم مرور ٥٤ سنة على احتلالها لفلسطين، فلم تنجح حتى الآن، وأما تجربة أمريكا بأساليبها المشابهة للأساليب الإسرائيلية فهي تسير في مخاض عسير، واضطرت في بداية الطريق لمواجهة حملة عارمة من الكراهية لها في المنطقة، ولم تستطع تسخير نفوذها لتحريك أدواتها، فانكشفت في أداء استكباري إرهابي مباشر، وهذه بداية السقوط وعدم القدرة على تحقيق الأهداف.

على الرغم من القرار الأمريكي بالتغيير الجيو سياسي في المنطقة، عبر العدوان المباشر على العراق، فإن فلسطين ولبنان وسوريا داخلة في حصة العدوان الإسرائيلي المباشر، الذي يريد الاستفادة من تداعيات العدوان الأمريكي، لتحقيق مشروعه.

لكن لأن إسرائيل فشلت في الاعتماد على نفسها، فإن أمريكا ستكون داعمة وموجهة، وبما أننا ناقشنا قدرة إسرائيل وأثبتنا عجزها عن إنجاز استقرارها، فلنناقش قدرة أمريكا برؤية إجمالية تتعلق بالسيطرة على المنطقة ومن ضمنها ضرب حزب الله، من دون التوقف عند المباشرة الإسرائيلية (التي تعثرت) أو المباشرة الأمريكية (المستبعدة) لها.

إن أمريكا قادرة على التخريب في المنطقة، وعلى الاعتداء على ثرواتها وأنظمتها وشعوبها وأحزابها، لكنها قدرة المحتل والمستعمر التي لا تؤدي إلى الاستمرارية والاستقرار، أما قدرتنا على حشد الطاقات والمقاومة فهي مستمرة ومتصاعدة، فحقنا يحمل قوة ذاتية، ومنطلقنا قوي، ونحن مصممون على متابعة المسيرة.

فمن من الخطأ أن ينحصر التفكير باللحظة الحاضرة، وطبيعة ظروفها والمعادلات التي تحيط بها، فالسؤال عن المستقبل هو سؤال عن مستقبل أمريكا وإسرائيل والعالم والمنطقة، كما هو عن مستقبل حزب الله، لأن عوامل التغيير والضغط والظروف السياسية لا تختص بفئة دون غيرها، ومؤشرات النجاح أو الفشل تخضع لقواعد وسنن تنطبق على الجميع، مع ميزة يعيشها المؤمنون من اطمئنان وثقة بدعم الله تعالى لهم، تمدهم بقوة إضافية فيستفيدون من نتائج الإيمان التي لا يستفيد منها المعتدون.

فلننتزع الوهم من نفوسنا عن قوة العدو التي لا تقهر، فلكل عدو نقاط ضعف، وعلينا معرفتها والتركيز عليها جيداً، ولنقم بواجبنا في بذل الجهد للمحافظة على قيمنا واستقلالنا، ولنعلم بأن النصر يبدأ من انتصار الإنسان في داخل نفسه، فإذا كنا مؤمنين بنصر الله تعالى فهو آت: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (سورة القصص الآية ٥). وإذا كنا واثقين بأننا نمهد لظهور الإمام المهدي[٣] (عج) ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، فإن المستقبل واعد، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ■

الهوامش:

(١) منذ تأسيس حزب الله عام ١٩٨٢ إلى سقوط العماد عون عام ١٩٩٠ كان الانقسام قائماً بين منطقتين شرقية وغربية، وبرزت المعارك الداخلية كعنوان رئيس في هذه المرحلة، كما توجهت الأنظار إلى ما يحدث في الجنوب والبقاع الغربي من عمليات لحزب الله ضد الاحتلال الإسرائيلي.

(٢) منها فتنة أمل - حزب الله، عدوان تموز ١٩٩٣، وعدوان نيسان ١٩٩٦، الانتصار في أيار ٢٠٠٠.

(٣) أجمعت الرسالات السماوية على وجود المخلص في آخر الزمان، وهو الإمام المهدي (عج) عند المسلمين، لكن السنة يقولون بولادته في آخر الزمان، أما الشيعة فيعتبرونه موجوداً على قيد الحياة، لكنه غائب عن أنظار الناس، وهو الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام، محمد بن الحسن الذي يصل نسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام والذي ولد سنة ٢٥٥ للهجرة، وسيظهر في الوقت المناسب ليحكم بالعدل.



سنى / شيعى .. عثمانى / صفوى .. عربى / فارسى

تباين المشروعات

مازن النجار

المقاومة فى فلسطين ولبنان والعراق مثلا لا تنتمى إلى الشيعة فقط أو السنة فقط. وهذه المقاومة هى استجابة الشعوب للاحتلال، وليست من اختراع دولة أو محور أو تحالف

** تجاوز رد الفعل الإسرائيلى على عملية حزب الله فى ١٢ يوليو الماضى والتى تمكن خلالها من أسر جنديين إسرائيليين كل الحدود التى تتخذها ردود الفعل المتوقعة والمعهودة فى العلاقات الدولية على مثل هذا الفعل. وظهر مبكرا أن الحرب ليست من أجل الأسيرين الإسرائيليين. بل ليست من أجل إسرائيل تماما. فقد دخلت الولايات المتحدة بقوة على الخط، بل ربما بدت كأنما هى التى رسمت ذلك الخط كما رأى وحذر نواب ووزراء إسرائيليون، ورفضت تماما أى مساع إلى وقف إطلاق النار من أجل بدء التفاوض حول تبادل الأسرى والقضايا الأخرى العالقة. بررت واشنطن هذه الحرب التدميرية كدفاع عن النفس، واعتبرتها فرصة سانحة لتطبيق قرار مجلس الأمن الدولى رقم ١٥٥٩ الخاص بلبنان، والمؤدى إلى نزع سلاح حزب الله وتصفية المقاومه الإسلامية ونشر الجيش اللبنانى على كافة المناطق، خاصة فى الجنوب. واستصدرت واشنطن من مؤتمر قمة الثمانية فى بطرسبرغ بروسيا شبه قرار يفوض اسرائيل القيام بتنفيذ قرار ١٥٥٩ عبر الحرب التدميرية على لبنان. ثم حالت واشنطن عبر مجلس الأمن الدولى دون إصدار قرار بوقف إطلاق النار وبدء التفاوض وصولا إلى نشر قوات دولية كما اقترح الأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان. ثم طلعت وزيرة الخارجية الأميركية بأفكار كبرى حول اعتبار هذه الحرب فرصة تؤذن بقيام شرق أوسط جديد عبر ترتيبات أمنية واستراتيجية تنهى الصراع العربى الإسرائيلى وتعزل محور الممانعة ضد النفوذ الأميركى، وتعرض على سوريا الانضمام إلى الإجماع (الدولى)، وتعتبر أنه لا مجال للعودة إلى الشرق الأوسط القديم.

كان أهم المظاهر اللافتة والمترافقة مع اندلاع الحرب والمؤثرة فى سيرورتها - وربما صيرورتها ومآلاتها - هو موقف النظام العربى الرسمى. فقد أدانت الحكومة السعودية عملية حزب الله بسرعة، وحملت الحزب مسؤولية الحرب الإسرائيلية، ووصفتها بالمغامرات غير المحسوبة، وميزت بينها وبين المقاومة المشروعة. لقى هذا الموقف الذى تبعه مواقف عربية مماثلة قبولا إيجابيا فى إسرائيل. تلا الموقف السعودى مباشرة لقاء القمة المصرى الأردنى الذى أعاد التركيز على خطورة المغامرات والتحذير من عواقبها الوخيمة. من الناحية الأخرى، اعتبرت قيادة حزب الله هذا الموقف العربى الرسمى تغطية للحرب الإسرائيلية على لبنان، بل اعتبرته مسؤولا بشكل مباشر عن تصعيد وإطالة أمد الحرب واتساع نطاقها إلى ما هو أبعد بكثير من الحدود المعتادة والمتوقعة لردود الفعل الإسرائيلية.

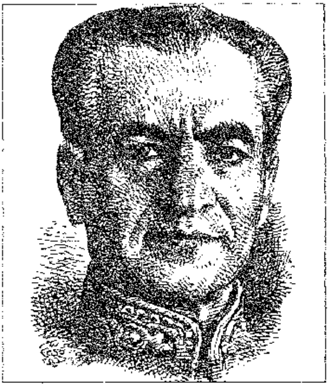
ورغم سعى السعودية لاحقا إلى ترتيب وقف لإطلاق النار فى محاولة جادة لوضع حد للدمار الشامل وإنقاذ الدولة اللبنانية، فقد اتسمت ردود فعل الشارع والجماهير العربية على الموقف الرسمى العربى بالمرارة والغضب والاتهامات اللاذعة والإدانة الشديدة، وتماهت بشكل أو بآخر مع موقف حزب الله وحركات الإسلام السياسى والاتجاهات القومية والوطنية. لكن وبرغم كل شىء، فإن موقف الرأى العام العربى وردود فعله - مبررة أو غير مبررة - لا تفسر المقدمات أو الأسباب التى أدت إلى أن يتخذ الوضع العربى الرسمى هذا الموقف الذى صدم وعى الشارع وافترق عن مساره وأولوياته التى تحددها بوصلة الصراع العربى الإسرائيلى. خاصة أن المملكة العربية السعودية تبنت ولا تزال -على مدى ستة عقود من عمر الكيان الإسرائيلى- موقفا لا يعترف بإسرائيل، ولا يقيم علاقات اتصال معها، بل يتبنى المقاطعة العربية لها.

التصدى للمشروع الإيرانى

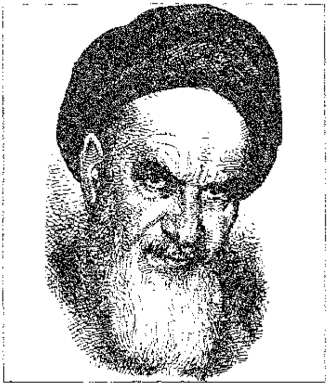
بيد أن تفسير هذا الموقف العربى الرسمى الذى اتخذته الدول الثلاث وتبنته الكويت أيضا، وربما غيرها بدرجات متفاوتة، يجب أن يستبطن عاملا آخر يشكل تحديا كبيرا فى نظر معظم اللاعبين الكبار من أنظمة المشرق العربى؛ ذلك هو التحدى الذى يمثله المشروع الإيرانى فى الشرق الأوسط أو بالأحرى فى الشرق العربى الإسلامى. وكان أبرز تجليات هذا المشروع الإيرانى هى الإصرار على بناء برنامج طاقة نووية، والوقوف فى طليعة الخط المضاد للنفوذ الأمريكى والإسرائيلى فى المنطقة، والتحالف مع سوريا ضد التهديد الأمريكى والإسرائيلى، وتبنى حزب الله فى لبنان، ودعم حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة الجهاد الإسلامى فى فلسطين، وعلاقات وثيقة مع التيار الصدرى وحزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وجناحه العسكرى (منظمة بدر) فى العراق.

وربما كان دور إيران فى العراق هو أضعف حلقات أو تجليات المشروع الإيرانى، بسبب دور بعض الأطراف المرتبطة بإيران فى الصراع الطائفى الدائر بالعراق، وتعاطى بعضها إيجابيا مع سلطة الاحتلال بدخولها عملية سياسية بدون أفق استقلال أو سياق واضح ينتهى عنده الاحتلال. ويبدا أن العراق مهدد بالتقسيم ليس على المستوى الإثنى فحسب، بل على المستوى الطائفى كذلك. واتخذت هذه المخاطر من شعار أو فكرة الفيدرالية غطاء لها. وإضافة إلى الوضع الفيدرالى الخاص لإقليم كردستان فى الشمال، والذى يتيح إدارة ذاتية ببرلمان وحكومة وعلاقات خارجية وجيش وغير ذلك من مظاهر الدولة السيادية، طالب زعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق السيد عبد العزيز الحكيم بفيدرالية مماثلة فى الجنوب، وربما طالب غيره باقتسام بغداد طائفيا. وقد ترافق ذلك مع تطهير طائفى ضد العرب السنة فى بعض المناطق، والذى تراوح بين القتل المباشر الذى استهدف اختطاف واغتيال علماء وأئمة وأكاديميين وضباط وقياديين ناشطين وقرويين وعمال وطلاب ومشاة فى الطرقات - قتلوا على الهوية - ثم ألقى بجثثهم فى وديان ومقالب قمامة وسيارات نقل؛ أو ردود الفعل على عمليات العنف بواسطة السيارات المفخخة والانتحاريين التى ارتكبت ولاتزال ترتكب ضد الشيعة - بدوافع طائفية واضحة - من قبل مجموعات مسلحة متطرفة داخل العراق. وقد أثبت عدم تحرك القوى العراقية المرتبطة بإيران - فى الأسبوعين الأولين للحرب فى لبنان- أو عجزها عن التحرك محليا، بما يخفف الضغط عن حزب الله والمقاومة الإسلامية، إن هذه القوى العراقية قليلة الجدوى، بل هى عبء

لا يمثل المشروع الإيرانى الراهن مأزقا أو تحديا حقيقيا للنظام العربى الرسمى، بل المأزق هو فى افتراقه عن الاتجاه الذى تؤشر إليه بوصلة الصراع العربى الإسرائيلى ومواجهة الهيمنة والمد الإمبريالى فى المنطقة



محمد رضا بهلوى



الإمام الخمينى



أحمدى نجاد

على إيران، التى يتوقع المحللون أن تقيم علاقات تعاون وتنسيق مع قوى من المقاومة العراقية، لا تتبنى خطا طائفيا.

أدى صعود وتكريس الحالة السياسية الطائفية فى العراق إلى أضرار بالغة بالمشروع الإيرانى فى العالم العربى، ومواقف مضادة لإيران والشيعة فى منطقة الخليج بشكل عام، وتوتر واستنفار لدى الأنظمة الخليجية الحاكمة. وفى دول أخرى غير خليجية، كمصر والأردن. وتراوح الخطاب السياسى الرسمى بين حديث أردنى عن «هلال شيعى يمتد من إيران والعراق إلى سوريا ولبنان» رغم أن الجغرافيا السكانية والسياسية لا تؤشر على وجود هذا الهلال، ولوم سعودى للأميركيين الذين سلموا العراق للنفوذ الإيرانى، وحديث مصرى عن ولاء شيعة العراق لإيران وليس لبلادهم، ومطالب إماراتية لإيران بالوفاء بالتزامات متعددة، كى يطمئن الجيران القلقون فى الخليج من مخاطر وتداعيات البرنامج النووى الإيرانى الاستراتيجية والأمنية والإشعاعية، خاصة مع قرب اكتمال وتشغيل مفاعل بوشهر الواقع شمال الخليج. وفى صراع إيران مع الغرب حول برنامجها النووى، بدا واضحا حرص الغرب - خاصة الولايات المتحدة- على تحريض الجيران وإثارة مخاوفهم إزاء إيران، كما حدث سابقا مع العراق، واستخدم ذلك كذريعة لاستصدار قرارات ملزمة من مجلس الأمن الدولى -بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذى يجيز استخدام القوة- ضد نظام الرئيس العراقى الأسبق صدام حسين، أدت إلى حصار شامل وحرب ١٩٩١. بل إن حملة الأردن على حماس، واتهامها بتهريب أسلحة «إيرانية» الصنع عن طريق «سوريا» وتخزينها فى الأردن ورصد أهداف لاستخدام الأسلحة هناك، قد ورطت عمليا كلا من إيران وسوريا، ولكن من دون توجيه الاتهام صراحة أو مباشرة.

حاولت إيران تخفيف حدة التوتر والعداء لها ولمشروعها. فأرسلت رئيس مجلس الأمن القومى محمد جواد لاريجانى إلى مصر والسعودية أكثر من مرة، وقيل آنذاك أن الهدف هو التنسيق فى مسألة البرنامج النووى للضغط على إسرائيل من جهة برنامجها النووى، وربما التنسيق فى العراق أيضا. كما أرسلت وزير الخارجية منوشهر متكى، إلى الأردن فى أعقاب قضية أسلحة حماس. وقبل ذلك وبعده زيارات على مستوى عال إلى الكويت وغيرها من دول الخليج، لطمأنتها وعدم تركها لاستفراد التحريض الأمريكى.

لم يقتصر التوتر والنفور إزاء المشروع الإيرانى فى هذه الدول العربية على إيران أو الأطراف المرتبطة بها أو المحسوبة عليها فى العراق؛ بل طال أطرافا عربية صديقة لإيران، مثل سوريا التى لم تكن علاقتها بشريكتيها فى المحور الرئيسى للسياسة العربية (مصر - السعودية - سوريا) فى أحسن حال قبل اندلاع حرب لبنان مباشرة. وإن كان من المتوقع أن تستعيد سوريا دورها فى هذا المحور الذى يسميه الرئيس الأسد «نواة العمل العربى المشترك»، نظرا لتحديات وتداعيات حرب لبنان. ورغم محاولة الأردن الدخول على خط هذا المحور - فى الفترة الأخيرة - إلا أنه تقليديا غير مرشح للانضمام إليه. كذلك، تفسر المشاركة العربية - المحدودة على الأقل - فى حصار حكومة حماس التى شكلت على أثر فوزها بأغلبية أعضاء المجلس النيابى فى انتخابات يناير/ كانون الثانى الماضى، بأنها رسالة تحذير أو ربما رسالة عتاب عربية لحماس نظرا لاتساع علاقات التعاون والدعم مع إيران، وهذا التوتر لم يقتصر على موقف الأردن ومصر فقط، بل طال علاقة حماس بالسعودية، التى كانت - على مدى عقود - مصدرا رئيسيا للدعم والإسناد.

استدعاء المثال الصفوى

فى هذا السياق الإقليمى المضاد للمشروع الإيرانى، دأب بعض الساسة ورجال الإعلام على إكساب مواقفهم دلالة تاريخية باستدعاء تجربة الصراع العثمانى الصفوى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. والقصد من ذلك بالطبع هو إضفاء السمات السلبية للمشروع الصفوى فى الهضبة الإيرانية ومحيطها الشاسع على المشروع الإيرانى المعاصر، لإفقاده المصداقية، ودفعه نحو العزلة والانكفاء على الذات، وصولا لاحتوائه وإفشاله. من ناحية أخرى، تنظر بعض الأصوات إلى المشروع الإيرانى الآن باعتباره تجليا قوميا فارسيا مضادا للعرب والعروبة، وتلقى عليه أعباء الميراث التاريخى للشعوبية المعادية للعرب والخلافة العربية فى القرون المبكرة التالية على الفتوحات الإسلامية. وفى الأعوام الثلاثة التالية للغزو والاحتلال الأمريكى للعراق، لم يقتصر استدعاء وإطلاق النموذج الصفوى من قبل التوجهات المضادة لإيران فى الخليج والمشرق العربى، بل تعداها إلى شخصيات وقوى شيعية علمانية أو قومية عراقية معادية لأطراف عراقية مرتبطة بإيران، وتمكنت من الهيمنة على معظم العملية السياسية الراهنة، وتشكل أكبر الكتل النيابية والوزارية والأمنية.

غلب طابع الصراع الطائفى (السنى الشيعى) على مسارات ومبررات وتداعيات الصراع العثمانى الصفوى، مع أن جوهر وسياق الصراع لم يكونا كذلك تماما. نشأت الدعوة الصفوية فى إيران أواخر القرن الخامس عشر، وكانت تحولا من خلفية سنية صوفية إلى التشيع الاثنى عشرى فى المجال الفارسى الذى كان يغلب عليه فقهيا المذهب الشافعى وعقيديا العقيدة الأشعرية وثقافيا التصوف. لم يعرف عن التشيع الاثنى عشرى نزوع إلى العنف أو الثورات فى القرون السابقة على الصفويين، بل تعايش الاثنا عشرية بشكل كبير مع أهل السنة فى العصر العباسى الثانى، وانصرف علماؤهم إلى التأسيس الأكاديمى العلمى الشامل لأصول المذهب وفروعه المعرفية، بحيث يكون له فقهه وكلامه وتفسيره وحديثه وغير ذلك. وشارك وجهاؤهم فى إدارة الدولة العباسية فتولوا الوزارات وغيرها. ورغم قيام دولة بنى بويه (قبائل فارسية غلب عليها التشيع) فى ظل الخلافة العباسية ودامت لأكثر من قرن؛ وباستثناء بعض التوترات المذهبية، لم تتولد آنذاك مظاهر الصراع الذى وقع بين الصفويين والعثمانيين. توجهت جهود علماء الاثنى عشرية فى العراق العباسى إلى مواجهة الهوامش المتطرفة فى حركة التشيع، خصوصا تلك التى لا تستند إلى تأسيس علمى أصولى أو تنطوى على معتقدات حلولية أو باطنية أو ممارسات فوضوية.

والحقيقة أن تبنى الصفويين

في إيران للتشيع الاثني عشري أدى إلى تصفيه أو اختفاء تلك الجيوب المتطرفة على هامش التشيع. وحتى ما قبل المشروع الصفوي كان التشيع تقليدا عربيا بامتياز، ولم يكن للشعوب غير العربية دور هام في حركة التشيع؛ بل لا يزال عربيا إلى اليوم في لبنان والعراق والحجاز والإحساء ومناطق أخرى في الخليج، مع بعض الاستثناءات.

الصراع العثماني الصفوي

كانت القرون الوسطى المتأخرة بامتياز هي قرون سيطرة القبائل والنخب التركمانية على معظم العالم القديم. فقد انطلقت مملكة تيمورلنك من آسيا الوسطى إلى وسط أوروبا والأناضول والشرق العربي، وامتدت الامبراطورية العثمانية في ثلاث قارات. وحكمت سلالتان من المماليك البرجية والبحرية (قبجاق وشركس) معظم المشرق العربي. وسيطر المغول على شبه القارة الهندية؛ والصفويون - الناطقون بالتركية وقد تعود أصولهم إلى الكرد - على العالم الإيراني القديم. وحكمت سلالة خوارزم شاه في آسيا الوسطى وبلاد فارس والسند. وغيرها. كانت الخبرة التركمانية التاريخية تنطوي على تعدد الخانات (الأمراء) ووحدانية الخاقان - وهو الخان الأعظم والأقوى بينهم - وتتحقق خاقانيته لدى قبول باقي الخانات بها أو أن تفرض عليهم. في هذا الإطار، وقعت الحرب بين تيمورلنك والسلطان العثماني بايزيد يلدرم (البرق) في معركة أنقرة ١٤٠١ التي كانت ارتطاما هائلا بين جيشين تركيين مسلمين حنفيين، بسبب عدم تقديم السلطان بايزيد الولاء لتيمورلنك كخاقان. من جانب آخر، لعبت العوامل الجيوسياسية، وتوجه نخب التركمان نحو التمدد على حساب نخب أخرى، دورا هاما في الصراع بين الدول التركية، وكانت في معظمها سنية حنفية أشعرية. وكان العالم الإسلامي قد استنكر بشدة حملة تيمورلنك على العثمانيين في عهد السلطان بايزيد، واعتبرت الحملة غير مبررة؛ فقد مزقت دولة فاتحين مرابطين في الثغور، وأدخلتها في مرحلة من الفوضى.

لذلك، ينبغي أن يعزى التحول المذهبي للصفويين نحو التشيع الاثني عشري، وتبنيه كمذهب وعقيدة الدولة وفرضه بالقوة، إلى رغبة القبائل والنخب المعروفة بـ «القزلبش» - أي رؤوس الخراف؛ لأنهم ربما كانوا يرتدون جلودها ورؤوسها في الحرب - في توكيد استقلالهم عن العثمانيين، واتخاذ دعوة دينية سبيلا للتنافس أو التدافع معهم ووسيلة لبناء الملك (على نحو وصفه ابن خلدون في «المقدمة» تفسيرا لقيام الممالك والدول)، وانتزاع بعض خصائص العثمانية. شكلت الدولة العثمانية قوة فتح توحيدية عملاقة؛ فرضت النفوذ والسلام العثماني (Pax Ottomana) على أرجاء شاسعة من العالم لعدة قرون، وكانت ألقاب السلطان تؤكد أنه سلطان البرين وخاقان البحرين وظل الله في الأرض وحامي الحرمين الشريفين، إضافة إلى ألقاب عديدة أخرى، وردت في رسالة السلطان سليمان القانوني إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا. وبتعبير المؤرخ العثماني أحمد دهده منجمباشي، كان للسلطان آلاف القلاع والحصون، في كل منها آلاف الجنود.

رفض الصفويون خاقانية السلاطين العثمانيين. وشكلت الصفوية مخاطر حقيقية على الدولة العثمانية، ومنافسا على ولاء العشائر التركمانية في الأناضول. فقد بادر الصفويون إلى إرسال دعاتهم لنشر دعوتهم بين تلك العشائر، ومن ثم إقناعهم بالانتقال إلى إيران والالتحاق بالصفويين. ونجحوا بالفعل في استقدام نحو نصف مليون تركماني من الأناضول. أثار هذا الأمر قلقا واستنفارا عظيما لدى السلالة العثمانية، وتغيرات استراتيجية وسياسية داخلية وخارجية. فقد أدى التحدي الصفوي إلى صعود السلطان سليم الأول (ياوز) إلى سدة السلطنة متخطيا أخاه ولي العهد؛ لأن النخبة وجدت في سليم الأول استجابة حازمة وكافية للتصدي للتهديد الصفوي، ونتائجه. فقد حفز استشعار المماليك في مصر والشام للخطر العثماني عليهم قيام تعاون بينهم وبين الصفويين على اختلافهم المذهبي في أوائل القرن السادس عشر. وهنا تبرز العوامل الجيوسياسية التي تعمل أفقيا (من الشرق إلى الغرب) لدى تزايد المخاطر أو الضغوط من الشمال إلى الجنوب. قد يكون ذلك هو الدافع الأبرز لقرار سليم الأول بفتح بلاد الشام في ١٥١٦ ثم مصر في ١٥١٧ واضعا نهاية لقرون من حكم المماليك، الذين عجزوا - في نظر العثمانيين - عن صد الخطر البرتغالي عن مياه وثغور المسلمين في البحر الأحمر وبحر العرب والخليج.

على مدى قرنين ونيف، خاض العثمانيون والصفويون معارك طاحنة أنهكت الطرفين معا. دارت أبرز المعارك حول السيطرة على العراق. فبعد ضم العراق إلى العثمانيين لأول مرة في عصر السلطان سليمان القانوني في النصف الأول من القرن السادس عشر، استعاد الصفويون العراق حتى عصر السلطان مراد الرابع الذي حاصر بغداد، ودارت - وفقا للمصادر العثمانية - رحى معركة هائلة سقط فيها عشرات الآلاف من القتلى والجرحى، وأبدى الصفويون صمودا مذهلا حتى قتل منهم ٥٠ قائدا برتبة بكلربك (فريق)؛ فقد كانت أوامر الشاه الصفوي أن لا تسليم. عندما استولى الصفويون على العراق، ارتكبوا إساءات وتعصبا طائفيا ترك جروحا غائرة في تاريخ وروح العراق. فقد خربوا قبر ومزار الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان وغيره، بينما كان العثمانيون يبادرون إلى بناء وتكريم جميع العتبات المقدسة والمزارات، خاصة مزارات آل بيت النبي الأطهار (ص). وفي بعض المراحل، تحالف الصفويون مع قوى أوروبية ضد الدولة العثمانية. امتدت حروب الدولتين إلى تبريز في أذربيجان وتبليسي في كرجيستان (جورجيا)، وغيرها. وبرز بين القادة العثمانيين عثمان باشا بن أوزدمير باشا، وهو مصري والده مملوك من أصدقاء السلطان سليم الأول وأمه أميرة من العباسيين المصريين. خاض عثمان باشا معارك عديدة في اليمن والخليج والعراق وأذربيجان وشرق الأناضول. كان قائدا أسطوريا رغم مرضه المزمن؛ بل أهم قائد عاش في القرن السادس عشر، وتوفي وهو الصدر الأعظم العثماني في ١٥٨٠.

بنهاية القرن السابع عشر تقريبا، استقرت الحدود العثمانية الصفوية تقريبا على صورة الحدود التركية الإيرانية الراهنة. لكن الإنهاك والإعياء والوهن بلغ من الدولتين مبلغه. وقبيل نهاية القرن الثامن عشر، انقرضت السلالة الصفوية في ١٧٨٤، وحلت محلها الدولة القاجارية. أما الدولة العثمانية فقد تدهورت مكانتها العالمية في القرن الثامن عشر من الدولة الأولى إلى الدولة الثالثة أو الرابعة، وتمكنت إمارة موسكو (الروسية) - التي كانت تدفع الجزية لأمراء القرم التتار من سلالة كيراي خان التابعين للسلطان العثماني - من إلحاق هزيمة منكرة بالدولة العثمانية في الحرب الروسية البولندية التي خاضتها الدولة العثمانية دفاعا عن أراضي بولندا التي كانت حليفا تقليديا للعثمانيين. انتهت الحرب بنتائج كارثية جسدتها معاهدة قينارجه في ١٧٧٤. استنزفت الحروب العثمانية الصفوية طاقات وقدرات الدولتين، وأوصلتهما إلى العصر الحديث -عصر صعود الامبريالية الأوروبية- وهما أعجز عن الصمود في وجه المد الاستعماري. تتمثل إشكالية أو مأزق المشروع الصفوي في أنه قد وجه منذ البدء طاقته الصراعية نحو الداخل، نحو الأمة؛ فهو مشروع للانفجار الداخلي. بل كان باللغة الكلاسيكية مشروعا للفتنة والانقسام والاستنزاف بكل التضمينات والنتائج السلبية المترتبة على ذلك.

ورغم أنه ليس من حسن الفطن أن ينظر طلاب التاريخ إلى أحداثه السابقة وفقا لفرضيات أو رؤى لاحقة، يعتقد كاتب هذه الصفحات بأن الصراع العثماني-الصفوي العدمي والمنهك للأمة لم يكن حتمية تاريخية مترتبة على التحول المذهبي في إيران القرن السادس عشر باتجاه التشيع الإثناعشري. وكما سبق، تؤشر الشواهد التاريخية إلى دور العوامل الإثنية والثقافية والجيوسياسية في حدوث تلك الارتطامات بين النخب المسيطرة على الدول ذات الانتماء التركي. وكانت الدولة العثمانية في الأناضول والبلقان قد دخلت في صراع أقصر مدى مع سلالتين تركيتين سيطرتا على المجال الإيراني قبل الصفويين، هما أصحاب الخرفان البيض وأصحاب الخرفان السود. وقد كانوا كالعثمانيين سنيين وأحنافا كذلك. خاضت هاتان الدولتان حروبا لا يستهان بها ضد العثمانيين، وبتحريض من أمراء الإمارات التركمانية في الأناضول الذين أزاحتهم العثمانية ضمن مشروعها التوحيدي. الفارق الرئيس بين التجربة العثمانية وغيرها من الممالك التركمانية هو رحابة

> استنزفت الحروب العثمانية - الصفوية طاقات وقدرات الدولتين، وأوصلتهما إلى العصر الحديث - عصر صعود الإمبريالية الأوروبية - وهما أعجز عن الصمود في وجه المد الاستعماري

آفاق العثمانية وتوجهيا نحو العالمية مبكرا، بل وتمثلها لذاتها أحيانا كوريث واستمرار لامبراطورية الروم الشرقية (بيزنطة)، وقيام السلاطين على مدى قرون بدور حامي وراعي الكنيسة البيزنطية. ورؤية السلطان لذاته امبراطورا (عاهلا) لشعوب العثمانية على اختلاف أعراقها وأديانها، وخليفة للمسلمين من رعاياه وغيرهم، وخاقانا للشعوب والممالك التركية. وقد عبر الشاعر العثماني نامق كمال عن هذه الرؤية العالمية فقال شعرا: نحن أهل الهمم العالية نحن أهل الطموح والإرادة... من عشيرة صغيرة أقمنا دولة عالمية.

أين المشروع العربي؟

هذا التباين بين خصائص وتوجهات كل من المشروع العثماني والمشروع الصفوي هو الذي أكسب الأول عدالته وأهليته وشرعيته التاريخية؛ بينما أفقد الأخير الصدقية والقبول. وقاد إلى ترذيل التجربة الصفوية باعتبارها صمحة غير مشرقة. بل عاملا سالبا - في مسار التجربة التاريخية للأمة. عزل الصفويون مجالا جغرافيا وثقافيا وانسانيا هاما من الأمة. هو المجال الإيراني - عن باقي العالم الإسلامي، وكرست التجربة الصفوية أسباب النفور والغربة. وأساءت بدون شك إلى معنى وروح التشيع، كما رأى بحق المفكر الإيراني الراحل علي شريعتي. الذي ميز بوضوح بين التشيع الصفوي والتشيع المحمدي. على المستوى الموضوعي، كان الوريث الحقيقي للمشروع الصفوي - في التاريخ المعاصر - هو مشروع الشاه السابق محمد رضا بهلوي؛ فقد عمل على تكريس الفجوة بين إيران وبين العرب والمسلمين: فتحالف مع إسرائيل والقوى الاستعمارية، وأصبح وكيلا محليا للإمبريالية الأميركية في الخليج والشرق الأوسط بناء على مبدأ نيكسون الذي جاءت صياغته كرد فعل للعقدة الفيتنامية، وسعى إلى تسريع وتيرة تغريب ومسخ الشخصية الإيرانية. واتخذ مواقف معادية للإسلام والحقوق والتطلعات العربية؛ واحتل الجزر العربية الإماراتية الثلاث - بمباركة أو صمت غربي - مدشنا عقدة تاريخية صعبة بين العرب وإيران.

ومن أجل تقييم ماهية ومسار المشروع الإيراني الراهن، ينبغي النظر في وجود عناصر التباين بين المشروعين العثماني والصفوي في السياق العربي الإيراني الراهن؛ فهي تشكل معيارا صائبا وهاديا في الحكم على أي توجهات أو مشروعات. بيد أن الإشكال هو في افتقاد المشروع العربي الذي ينبغي أن يقارن به المشروع الإيراني. فلم يكتسب المشروع الصفوي التاريخي خصائصه السلبية إلا لدى مقارنته أو تضاده بالمشروع العثماني. وليس هناك الآن مكافئ موضوعي راهن للمشروع العثماني؛ وهذا ينفي بدوره وجود مكافئ موضوعي راهن للمشروع الصفوي كذلك.

من ناحية أخرى، يذكرنا العدوان الإسرائيلي الراهن في فلسطين ولبنان بأن هناك مشروعا صهيونيا استيطانيا إحلاليا ليس له حتى الآن من رد مكافئ سوى المقاومة في فلسطين ولبنان، كما يذكرنا الاحتلال الأمريكي في العراق والتواطؤ الأمريكي مع العدوان الإسرائيلي في لبنان بمشروع الهيمنة والإخضاع الأميركي، وكان يدعى سابقا الشرق الأوسط الكبير الذي يضم إسرائيل ويلغي الهوية العربية للإقليم والتناقض العربي الإسرائيلي، ويدعى حاليا الشرق الأوسط الجديد. والجديد هنا هو تصفية المقاومة للاحتلال الإسرائيلي والمانعة للهيمنة الإمبريالية. ولذلك لا رد مكافئا له سوى مزيد من المقاومة في العراق ولبنان وفلسطين.

لا يمثل المشروع الإيراني الراهن مأزقا أو تحديا حقيقيا للنظام العربي الرسمي؛ بل المأزق هو في افتراقه عن الاتجاه الذي تؤشر إليه بوصلة الصراع العربي الإسرائيلي ومواجهة الهيمنة والمد الإمبريالي في المنطقة. يؤدي هذا المأزق إلى مفارقة مزدوجة تتمثل في افتقاد الخيارات العربية الرسمية أمام تحديات وتهديدات المشروع الصهيوني والمشروع الأمريكي سوى الهروب أو التمارق أو التهميش، كما تتمثل في التناقض مع مشروع المقاومة الذي هو خيار الأمة الحقيقي والوحيد. وهكذا يؤدي الافتراق عن البوصلة الحقيقية للأمة إلى افتقاد أو ضبابية الرؤية؛ فهي تنظر إلى المقاومة - التي هي خيار الأمة- من خلال منظار الانتماء الطائفي، وهي مقولة عقيمة لا تفسر. فالمقاومة في فلسطين ولبنان والعراق مثلا لا تنتمي إلى الشيعة فقط أو السنة فقط. وهذه المقاومة هي استجابة الشعوب للاحتلال، وليست من اختراع دولة أو محور أو تحالف. وفي القطر الواحد، وداخل الطائفة الواحدة، هناك من يقاوم الاحتلال وهناك من يتعاون معه، فالانتماء الطائفي لا يفسر هذه التناقضات أو التباينات في المواقف. فوعي الأمم بتاريخها وقضاياها وتصوراتها حول ذاتها وهويتها أبلغ أثرا في تشكيل توجهاتها وخياراتها الكبرى، بصرف النظر عن التضحيات اللازمة لإنفاذ وإنجاز تلك الخيارات. وفي هذا السياق تصبح التكاليف المادية والمعاناة الإنسانية معقولة ومحتملة في سبيل كرامة الأمم وتحقيق المعنى الأسمى لحياتها ومستقبلها. ■

كتاب الزاوية

قاسم أمين

الأعمال الكاملة

اختلف الناس ولايزالون مختلفين حول طبيعة الإسهام الفكري لقاسم أمين.. استقطاب حاد، أثمر تيارين فكريين أحدهما تعصب لفكر قاسم أمين، فهو الرائد الذي قاد الحركة الفكرية والاجتماعية لتحرير المرأة وثانيهما تعصب ضد فكر قاسم أمين، فهو ذلك الذي فتح نافذة التغريب الأوروبي، على عالم المرأة العربية المسلمة.

هكذا كتب المفكر الدكتور محمد عمارة في مقدمة الطبعة الثانية عام ١٩٨٨ لكتابه «قاسم أمين.. الأعمال الكاملة» الذي أصدرت «دار الشروق» طبعته الثالثة عام ٢٠٠٦.

وقد ولد قاسم أمين في ديسمبر ١٨٦٣ لأب تركي عثماني وأم مصرية وحصل على ليسانس الحقوق عام ١٨٨١ وكان أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغاني ومدرسته الفكرية آنذاك. ثم سافر إلى فرنسا في العام نفسه ودرس الحقوق لأربع سنوات، وعاد إلى مصر عام ١٨٨٥ ليعمل في النيابة المختلطة. ثم إلى قسم قضايا الحكومة وأصبح رئيسًا لنيابة بني سويف ثم رئيسًا لنيابة طنطا وبعد ذلك عين نائب قاضٍ في محكمة الاستئناف ورقي بعد ذلك إلى مستشار. وامتد نشاطه فكتب في الصحافة وشارك في تأسيس الجامعة المصرية، وأصدر كتابه «المصريون» كذلك «تحرير المرأة» ١٨٩٩، و«المرأة الجديدة» ١٩٠٠. وفارق الحياة فجأة عام ١٩٠٨، وقد عرضت «وجهات نظر» من قبل مقتطفات من كتابه «تحرير المرأة» وهي تعرض في هذا العدد مقتطفات من أعماله غير المنشورة التي ضمها كتاب الدكتور محمد عمارة.

إنجيل الخائن!

أيًا ما كانت القيمة الدينية أو التاريخية أو العلمية لمخطوطة البردي التي عثر عليها فلاح مصري في إحدى قرى صعيد مصر في سبعينيات القرن الماضي وبعد ثلاثين عامًا فقط من اكتشاف مخطوطات نجع حمادي الثلاثة عشر، فقد أثار نشر ترجمتها أخيرًا على يد عالم مخطوطات سويسري جدلاً واسعًا في العالم المسيحي.

وأيًا ما كان أمر هذا الجدل، أو أيًا ما كانت الحقيقة بشأن تلك المخطوطات فإن ما جاء بها من نصوص كان موضوعًا لكتاب مهم صدر عن National Geographic، وكان الكتاب موضوعًا لهذا المقال الذي نشرته الدورية الرصينة The New York Review of Books بعد أسابيع فقط من نظيرتها The New Yorker.

وتود «وجهات نظر» أن تنبه هنا إلى أن المقال مترجم عن الإنجليزية، مما قد يترتب عليه شيء من الاختلاف في بعض النصوص الدينية.

قال عيسى (عليه السلام) ليهوذا عالما بأنه يدبر أمرا عظيما: «ابتعد عن الآخرين وسوف أطلعك على أسرار المملكة. بإمكانك أن تصل إليها ولكنك سوف تعاني حزنا شديدا».

في الطبعة الأخيرة من «إنجيل يهوذا» تتحول شخصية الشرير في القصة التقليدية لتصبح أكثر حواريي عيسى (عليه السلام) إخلاصا له. إن قارئ «العهد الجديد» سوف يلاحظ أن «إنجيل يوحنا» يصور عيسى (عليه السلام) متساهلا تجاه خيانته إلى درجة التواطؤ، حيث إنه حث يهوذا: «افعل بسرعة ما أنت مقدم عليه». ويخبرنا «إنجيل يهوذا» كيف حدث ذلك. هنا يختار عيسى (عليه السلام) يهوذا ليتلقى الأسفار السرية ويفوضه في تسليمه للموت.

فيما كتب عام ١٨٠ للميلاد تقريبا، يخبرنا «إيرينايوس Irenaeus» أسقف «ليونز Lyons» ومن المنتقدين الشهيرين للهرطقة: أن بعض المسيحيين كانوا يحيدون لتخيل قصة يهوذا بعد مرور عقود على كتابة الأناجيل الأصلية. وقد ذكر في كتابه «تفنيد كل الآراء الجدلية Refutation of All Heresies» أن بعض الناس أعلنوا أن يهوذا الخائن، والذي وحده يعرف الحقيقة دون الآخرين، دبر حادثة الخيانة. وبسببه أصبحت كل الأشياء الدنيوية والسماوية موضع شك. وتجسد كل ذلك في عمل مصطنع يسود الشك لقب بـ «إنجيل يهوذا».

لمدة ألفي عام تقريبا كان تفسير الأسقف الساخط هو أفضل ما أتيح لنا من مصادر حول هؤلاء الناس



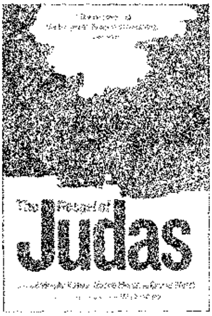
The Gospel of Judas from Codex Tchacos
(إنجيل يهوذا من مخطوطة تشاكوس)
Rodolph Kasser
Marvin Meyer
Gregor Wurst
National Geographic, 185pp., $22.00
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي

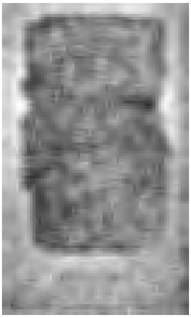
ادوارد إريستشي

لانس جينوت

فيليبا تاونسند



الغلاف


المخطوط

ونصوصهم. أما الآن فقد تغير ذلك بعد اكتشاف نسخة من الإنجيل المفقود منذ أمد بعيد والذي كان محفوظا لعدة قرون في قبر بصحراء مصر.

إن «إنجيل يهوذا» الذي كشف عنه للمرة الأولى في أبريل الماضي هو من أهم الإضافات لمصادرنا عن المسيحية الأولى منذ اكتشاف ثلاثة عشر من مخطوطات البردي بالقرب من مدينة نجع حمادي المصرية عام ١٩٤٥. وقد احتوت تلك المخطوطات التي تعود للقرن الرابع الميلادي، والتي دفنها على الأرجح رهبان من دير «باشوميوس Pachomius» القريب، على كتابات مسيحية يرجع تاريخها الأصلي إلى القرنين الثاني والثالث للميلاد. وبسبب وصمها بالهرطقة من قبل أساقفة مثل «أثاناسيوس Athanasius» أسقف الإسكندرية، فقد جرى استبعادها من لائحة أسفار «العهد الجديد» واختفت من تاريخ المسيحية بدون أثر، فيما عدا شجبها في مجادلات الكتاب الأوائل عن الهرطقة. وقد اجتذبت تلك النصوص التي اشتهرت بالأناجيل الغنوسطية (الغنوسطية أو الغنوصية أو العارفية هي مدرسة عقائدية فلسفية نشأت حوالي القرن الأول الميلادي) اهتماما كبيرا في الآونة الاخيرة كأحد مصادر الإلهام لرواية «دان براون Dan Brown» الشهيرة «دا فينشي The Da Vinci Code» المثيرة للجدل. ومع ذلك، فإن كتابات مثل «إنجيل مريم» و«إنجيل توماس» ، ويصرف النظر تماما عن جاذبيتها ، وفرت للعلماء فرصة غير مسبوقة لزيادة فهمنا فيما يتعلق ببدايات الجدل المسيحي حول قضايا مثل الجنس والهرطقة وزعامة الكنيسة.

ومثل نصوص نجع حمادي، حفظ «إنجيل يهوذا» المكشوف عنه أخيرا في مخطوطة من ورق البردي تعود للقرن الثالث أو الرابع، وهو مكتوب باللغة القبطية، اللغة القديمة للمسيحية المصرية (رغم اعتقاد العلماء أن الإنجيل الأصلي كان مكتوبا باليونانية). وقد اكتشف هذا الإنجيل للمرة الأولى في السبعينيات من القرن الماضي على يد بعض الفلاحين المصريين في كهف للدفن قرب قرية كرارة في مصر الوسطى. فبينما كانوا - على الأرجح - ينقبون عن الكنوز القديمة التي ما زالت رمال مصر تجود بها بين الحين والآخر، عثر هؤلاء الفلاحون على هيكل عظمي ملفوف في كفن وبجواره صندوق من الحجر الجيري. وبداخل الصندوق كان هناك كنز من مخطوطات البردي لم يدرك أحد أهميته الحقيقية قبل مرور ثلاثين عاما أخرى.

وقد لحقت بذلك الإنجيل أضرار جسيمة أثناء رحلته الطويلة من ظلام ذلك الكهف قرب النيل وحتى نشره مؤخرا. وقد قام تاجر المخطوطات الذي اشتراه ثم حاول بيعه، بالاحتفاظ به لعدة سنوات في خزانة بأحد البنوك في مدينة هيكسفيل بولاية لونغ أيلاند الأمريكية مما سبب تدهور حالته. وقام تاجر آخر بالاحتفاظ به داخل فريزر ثلاجة مما أصابه بالمزيد من الأضرار. وعندما وصل الإنجيل عام ٢٠٠١ إلى «رودلف كاسر» عالم البرديات السويسري الشهير، كان في حالة يرثى لها. ويستحضر «كاسر» في مقال نشر له مع الطبعة الأخيرة للإنجيل أنه أطلق صرخة عندما رآه للمرة الأولى.

يقول «كاسر»: «كان ذلك الإنجيل ضحية صارخة للجشع والطمع. لقد صرخت بسبب صدمتي لرؤية شيء نفيس لتلك الدرجة يلقى مثل هذه المعاملة السيئة. كان متحللا لأقصى درجة، وقد تحول جزء منه لرماد، وأصبح هشا تماما، ويتفتت لدى أقل لمسة».

وبمساعدة «فلورنس داربر Florence Darbre» كبيرة المرممين بـ«مؤسسة بودمر Bodmer Foundation» في سويسرا، تولى «كاسر» المهمة المضنية لإعادة تجميع المخطوطة ثانية. كان يجب تجميع كل الشظايا معا مثل أجزاء ألغاز الصور، ولم يتوجب تطابق أشكال الشظايا فقط بل أيضا الألياف الفردية. وقد استخدمت «فلورنس داربر» مجهرا قويا لرؤية الألياف الدقيقة التي لا تراها العين المجردة. وعندئذ فقط استطاع «كاسر» أن يشرع في نسخ وترجمة النص القبطي. وعبر الألياف ثم الحروف، بدأت تتجلى القصة التي ظلت غير مقروءة لأكثر من ١٥٠٠ عام، على الرغم من وجود عدد كبير من الثغرات في النص الذي نشر أخيرا هذا العام بموجب اتفاق حصري مع «جمعية الجغرافيا القومية National Geographic Society».

إن شخصية يهوذا بخيانته الشائنة الشهيرة - وإن لم يكن هناك مفر منها - تجسد تناقضات الشر. فلماذا يسمح الله الكريم القادر بالشرور؟ وإذا كانت الشرور جزءا من الخطة الإلهية، فكيف يمكن - عدلا - اعتبار البشر مسئولين عنها؟ في تفاسير «العهد الجديد» تلخص نبوءة عيسى (عليه السلام) الشهيرة المشكلة ولكنها لا توفر لها حلا. تقول النبوءة: «إن ابن الإنسان لابد أن يمضي كما قدر له ولكن الويل لذلك الرجل الذي يسلمه. كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد» (إنجيل مرقص ١٤: ٢١، إنجيل متى ٢٦: ٢٤، إنجيل لوقا ٢٢: ٢٢).

يذهب لوقا إلى أبعد من كاتبي الإنجيلين الآخرين في تحري الدوافع وراء ما فعله يهوذا، فيعزو ذلك إلى تقمص الشيطان له (ودخل الشيطان في يهوذا الملقب بالإسخريوطي، إنجيل لوقا ٢٢: ٣). ولكن لوقا بذلك زاد فعلا من تعميق التناقض، جاعلا الشيطان في أحد المعاني مسئولا عن خلاص البشرية. أما تفسير يوحنا فهو الأكثر تعقيدا، حيث يوحي بأن الشيطان قد تقمص يهوذا بتحريض من عيسى (عليه السلام) نفسه. يقول يوحنا: «فأجاب يسوع: هو الذي أعطيه اللقمة التي أغمسها. ثم غمس اللقمة وأعطاها ليهوذا بن سمعان الإسخريوطي. وبعد اللقمة، دخله الشيطان» (يوحنا ١٣: ٢٦-٢٧).

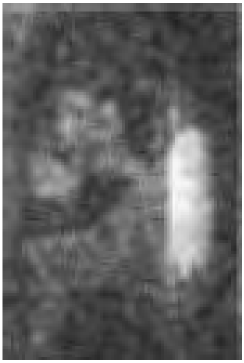
يؤكد «إنجيل يهوذا» بطريقة مختلفة إصرار كتاب الأناجيل السابقة على أن عيسى (عليه السلام) كان على علم مسبق بموته ووافق عليه. في «إنجيل يهوذا» لم يكن عيسى (عليه السلام) وحده في مهمة سرية، ولكن يهوذا أيضا.

إن «إنجيل يهوذا» الذي كتب عام ١٤٠ للميلاد تقريبا بعد عقود من كتابة الأناجيل الكنسية، لا يقدم أساسا لإعادة تقييم يهوذا تاريخيا، ولكنه يطرح سؤالا حول السبب الذي قد يدفع مسيحيا من القرن الثاني الميلادي إلى الاهتمام بإعادة الاعتبار لعدو عيسى (عليه السلام) اللدود. ما الذي يلهم كاتبا للإتيان بهذا العمل الذي يتناول لغز الخيانة محولا الخائن الملعون إلى أكثر حواريي عيسى (عليه السلام) ولاء له، بل ويعيد كتابة التاريخ المسيحي في إنجيل يحمل اسمه. إن العديد من نصوص القرن الثاني المسيحية تزعم أنها تسجل أسفار الرؤيا التي نزلت على الحواريين البارزين مثل بطرس ويوحنا، أو الشخصيات الأخرى التي عرفت بقربها من عيسى (عليه السلام) مثل مريم المجدلية. وعلى النقيض من ذلك، فمن الواضح أن كاتب «إنجيل يهوذا» قد ارتكب ما يعد بالتأكيد عملا هداما بنسبة هذا الإنجيل إلى شخصية ملعونة بالفعل من قبل المسيحيين القدماء. ولابد أنه قد درس هذا الخيار بعناية. ومن بين التفسيرات المحتملة لهذا القرار أن يكون كاتب «إنجيل يهوذا» أحد أعضاء جماعة مسيحية هوجمت ونبذت وربما نفيت تماما من قبل زعماء الكنيسة. وربما كان الكاتب ضحية لمحاولات مستمرة لاستبعاد من انشقوا على الأساقفة وتصنيفهم كـ«هراطقة» حسب التعبير الحديث وقتئذ. وبالنسبة لجماعة من البشر هوجموا كمارقين وخونة، فإن قصة يهوذا التي أعيدت كتابتها ربما وفرت وسيلة لإعادة تأويل تجربتهم وتقديم أنفسهم - ليس كمنبوذين من الدين المسيحي - ولكن كأكثر المدافعين عنه إخلاصا وإن كانوا قد أسيء فهمهم. في الحقيقة، أن «إيرينايوس» منتقد الهرطقة وشاهدنا الأول على «إنجيل يهوذا»، يرى أن

جماعة المسيحيين الذين قرأوا هذا النص يتصورون أنفسهم بالفعل وقد أساء فهمهم ولم يربط بينهم وبين يهوذا فقط بل أيضا بينهم وبين شخصيات مذمومة أخرى في الإنجيل مثل «قابيل Cain». وبينما يجب أن تبقى إعادة تشكيل موقف الكاتب موضع تفكر، فمن المنطقي أن ننده‍ش لغرابة اختيار يهوذا كشفيع.

اعتاد العلماء تناول النصوص غير الكنسية مثل كتابات نجع حمادي على اعتبار أنها تفترض رؤية عالمية خاصة تعرف بـ «الغنوسطية». وفي الطبعة المنشورة حديثا لـ «إنجيل يهوذا» يستخدم كل من «مارفين ماير Marvin Meyer» وبارت إيرمان Bart Ehrman» هذا المنهج لتأويل النص. وقد كتب «إيرمان» ملخصا أحد المبادئ الأساسية لـ «الغنوسطية» كما يفهمها: «إن العالم الذي نعيش فيه مستنقع للألم والبؤس والمعاناة، والأمل الوحيد أمامنا للخلاص هو هجر ذلك العالم». ويرى هذا الرأي أن الكون هو خلق شرير لكائنات بغيضة حقيرة، والتي خلقت البشر عن طريق احتباس ومضات إلهية في أجساد مادية. ولكن تلك «الومضة الإلهية» لا تتوفر لكل شخص، والقلائل الذين قدر لهم أن يحصلوا عليها هم فقط الذين سيتم إنقاذهم. ومع ذلك، فلا يتعلق الخلاص بالإيمان أو الأخلاق، وإنما باكتساب المعرفة الروحانية أو «الغنوسطية». وفي النهاية، فطبقا لهذا التفسير للأناجيل الغنوسطية، فإن موت عيسى (عليه السلام) ليس له دور في خلاص البشرية سوى كونه مثالا لكيفية تحرير الموت للنفس الحقيقية من الجسد: «إن عيسى (عليه السلام) - في «إنجيل يهوذا» كما في الأناجيل الغنوسطية الأخرى - هو في الأساس معلم وناشر للحكمة والمعرفة وليس منقذا يموت بسبب آثام العالم».

ولا يظهر أي من تلك الاعتقادات بوضوح في النصوص الغنوسطية المزعومة كما أقر «إيرمان» ذات مرة بدون تحفظ (العهد الجديد: مقدمة تاريخية للكتابات المسيحية الأولى The New Testament: A Historical Introduction to the Early Christian Writings مطبعة جامعة أوكسفورد، ٢٠٠٣، ص ١٧٣). كما أنه ليس لدينا أي دليل أن مؤلفي تلك الأعمال اعتبروا أنفسهم «غنوسطيين» أكثر من كونهم مجرد مسيحيين. وعوضا عن ذلك، فإن العقيدة الغنوسطية هي الأساس الذي نشأ عليه العلماء الجدد والتي كونوها - جزئيا - عن طريق الاعتماد على تفنيدات منتقدي الهرطقة مثل «إيريناوس»، وكذلك بتجميع الأفكار الواردة في كتابات



ما السبب الذي قد يدفع مسيحي من القرن الثاني الميلادي إلى الاهتمام بإعادة الاعتبار لعدو عيسى (عليه السلام) اللدود؟

نجع حمادي المختلفة وفي غيرها من النصوص. ومن الممكن بالطبع أن يكون تصنيف العلماء هذا مفيدا، وليس هناك من شك في إمكانية العثور على عناصر معينة للمبادئ الأساسية لـ «الغنوسطية» في بعض نصوص نجع حمادي وكذلك في «إنجيل يهوذا» نفسه. ومع ذلك، فالافتراض المسبق بأن هناك «رؤية عالمية غنوسطية» عند تناول تلك النصوص غير الكنسية بالدراسة يخلق سلسلة طويلة من المشاكل الخطيرة. وأكثر تلك المشاكل وضوحا هو أن الكثيرين يقرأون في النصوص ما ليس فيها بالفعل. ومن المشاكل الأخرى أنه يحدث تعتيم على الفوارق بين النصوص المختلفة، بينما يتم التركيز على الفوارق بينها وبين النصوص الكنسية. وقد أدى ذلك إلى النظر إلى نصوص نجع حمادي باعتبارها «لا كنسية» أو صورة منعكسة لـ «العهد الجديد» (أو كما يصفها «إيرمان»: «المسيحية مقلوبة على رأسها») بينما من المفيد أكثر أن ننظر إلى جميع تلك النصوص المسيحية المبكرة باعتبارها مواقف مختلفة في نفس المناقشة أو أصواتا متنافرة ضمن نفس المحادثة.

يتم تعريف النص في صفحته الأولى بأنه «الرواية السرية لسفر الرؤيا التي كشف عنها عيسى (عليه السلام) في حديثه مع يهوذا الإسخريوطي، قبيل عيد فصح اليهود، عندما تواطأ يهوذا مع القوى اليهودية. يبدأ «إنجيل يهوذا» بإخبارنا ما يلي:

«عندما ظهر عيسى (عليه السلام) على الأرض كانت له علامات ومعجزات كبرى لخلاص البشرية، لأن البعض كان يسير في طريق الصلاح بينما آخرون يسيرون في طريق الخطيئة. والآن الاثنا عشر يسمون بالحواريين، وقد بدأ يتحدث معهم حول الأسرار التي تعلو العالم وعما سيحدث في النهاية» (كل الترجمات الواردة هنا لـ «إنجيل يهوذا» قام بها المؤلفون، وهي تختلف في بعض الحالات عن الترجمة المنشورة مؤخرا).

وينقسم الإنجيل بعد ذلك إلى ثلاثة مشاهد. في المشهد الأول يلتقي عيسى (عليه السلام) بالحواريين الاثني عشر بينما هم مجتمعون يقدمون الشكر على الخبز فيضحك (عليه السلام). وعندما يسألون عن سبب ضحكه على تقديمهم الشكر، قائلين أنهم «فعلوا الصواب»، يجيبهم (عليه السلام) بأنه لا يضحك عليهم وإنما لأنهم ينفذون إرادة ربهم. يجيب الحواريون - مرتبكين - بأنه ابن الرب. ولكنه يخبرهم: «أقول لكم حقا أنه لن يعرفني أي جنس من البشر من بينكم». وعندما سمع الحواريون ذلك «غضبوا وأصابهم الحنق وبدأوا يسبونه في قرارة أنفسهم».

ماذا يقصد عيسى (عليه السلام) عندما ينفصل بوضوح بينه وبين «ربهم»؟ كما يشير ناشرو «إنجيل يهوذا»، فبإمكاننا أن نتفهم ملاحظات عيسى (عليه السلام) على ضوء نصوص مشابهة من نجع حمادي. تحاول تلك النصوص تفسير الطبيعة المنقوصة لعالمنا عن طريق نسبة خلقه ليس إلى الله الحقيقي بل إلى إله خبيث أدنى يعرف بـ «إسرائيل». ويوفر لنا «إنجيل يهوذا» بعد ذلك تفاصيل أكثر حول مجموعة الشخصيات العالمية الواردة فيه، ولكن عند تلك النقطة فإن تعليقات عيسى (عليه السلام) توضح أن الحواريين يعبدون - بالخطأ - كائنا وضيعا بدلا من الله العلي، وهو اتهام - وذلك مما يمكن فهمه - يزعجهم كثيرا. ومع علمه بسخطهم، يوجه عيسى (عليه السلام) تحديا: «فليأت منكم من هو قوي بما يكفي من بين البشر بالإنسان الكامل ويقف أمام وجهي». ويستمر النص:

قالوا جميعا: «إن لدينا القوة».

ولكن أرواحهم لم تجرؤ على الوقوف أمامه، فيما عدا «يهوذا الإسخريوطي». كان قادرا على الوقوف أمام عيسى (عليه السلام)، ولكنه لم يستطع النظر في عينيه وأشاح بوجهه بعيدا.

قال له يهوذا: «أعلم من أنت ومن أين أتيت. أنت من مملكة «باربيلو Barbelo» الخالدة. وأنا لا أستحق أن أتلفظ باسم الذي أرسلك».

وطبقا لبعض نصوص نجع حمادي فإن «باربيلو» هي الأم المقدسة العذراء وشريكة الله الحقيقي. وعند تعريفه لعيسى (عليه السلام) بأنه من «مملكة باربيلو» فإن يهوذا يوضح بذلك أنه الوحيد الذي يدرك من هو عيسى (عليه السلام) وأنه أرسل من قبل الإله الأعلى. وقد تأثر عيسى (عليه السلام) كثيرا بالبصيرة الروحانية ليهوذا فاستبقاه ليطلعه على الأسفار: «ابتعد عن الآخرين وسوف أطلعك على أسرار المملكة. بإمكانك أن تصل إليها ولكنك سوف تعاني حزنا شديدا». وعندئذ يسأل يهوذا متى سيخبره عيسى (عليه السلام) بتلك الأشياء، ولكن عيسى (عليه السلام) يغادر تاركا يهوذا - والقارئ - في حالة ترقب.

وفي المشهد الثاني يظهر عيسى (عليه السلام) ثانية للحواريين، وعندما

من الواضح أن كاتب «إنجيل يهوذا» قد ارتكب ما يعد بالتأكيد عملا هداما بنسبة هذا الإنجيل إلى شخصية ملعونة بالفعل من قبل المسيحيين القدماء

يسالون عن المكان الذي ذهب إليه عندما غادرهم يجيب بقوله: «ذهبت إلى جنس آخر عظيم ومقدس». تصيب الحيرة حوارييه مرة أخرى ويسألون: «أيها الرب، ما هو الجنس العظيم المقدس الذي هو أعلى منا وليس في تلك الممالك؟ يضحك عيسى (عليه السلام) ويجيب: «لماذا تفكرون في قلوبكم بالجنس القوي المقدس؟ أقول لكم حقا، لن يرى ذلك الجنس اي شخص ولد في هذه المملكة». إن ناشري «إنجيل يهوذا» يترجمون كلمة «جنس race» هنا بـ «جيل generation»، ولكن «جنس» في الحقيقة هي الترجمة الأكثر طبيعية والتي تتماشى مع وصف كل من اليهود والمسيحيين الأوائل لأنفسهم كجنس أو كشعب.

ويتزعج الحواريون ثانية - وذلك مفهوم - تجاه كلمات عيسى (عليه السلام) التي تتسم بالصد - هل لن يكونوا جزءا من الشعب المقدس؟ - ولكن أسوأ انتقاد لهم ما زال قادما. يسألون عيسى (عليه السلام) أن يفسر لهم رؤيا شاهدوا فيها اثني عشر كاهنا شريرا يقدمون القرابين على المذبح:

«البعض يقدمون أبناءهم كقرابين، وبعضهم يقدمون زوجاتهم. والجميع يسلكون سلوكا ودودا ومتواضعا فيما بينهم. البعض ينامون مع الرجال، والبعض يقتلون، والبعض يرتكبون الكثير من الآثام والخطايا. أما الواقفون على المذبح فكانوا يتوسلون باسمك».

ولم يحقق تفسير عيسى (عليه السلام) الرضا للحواريين:

«أنتم الذين كنتم تقومون بالطقوس عند المذبح الذي رأيتموه. ومن كنتم تقومون بخدمته هو الله، والاثنا عشر رجلا الذين رأيتموهم هم أنتم. أما الحيوانات التي رأيتموها تجلب كقرابين، فتلك هي الحشود التي تقودونها بضلال إلى ذلك المذبح».

ويعتمد التصوير النقدي للحواريين الاثني عشر هنا على الالتباسات التي جاءت بالفعل في الأناجيل الكنسية، مع توجيهها وجهة جديدة. ورغم كل شيء، كثيرا ما يظهر الحواريون في «العهد الجديد» باهتين تافهين متقلبين بصورة كبيرة. وقد أساءوا فهم الحكايات الرمزية وغطوا في النوم في حديقة «الجثمانية» (الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس) وتنصلوا من عيسى (عليه السلام) بينما كان يواجه الموت. ومع ذلك فقد رد إليهم عيسى (عليه السلام) اعتبارهم كاملا بعد قيامته وتحولوا في النهاية إلى مؤمنين مبشرين برسالته. وبحلول القرن الثاني الميلادي كان الإرث البابوي - وهو المذهب الذي وصل للسلطات الدينية من الحواريين عبر سلسلة متصلة من الأساقفة - قد تم تأسيسه بالكامل، وزعم الأساقفة أنهم ورثوا سلطاتهم مباشرة من الحواريين: باستثناء يهوذا بالطبع. إن التصوير شديد السلبية للحواريين في «إنجيل يهوذا» (والذي يزداد سلبية مع التقدم في النص)، وكذلك الارتقاء بمنزلة يهوذا، الحواري الوحيد الذي لم تعترف به سلطات الكنيسة كأحد الأسلاف، لابد أن المقصود منه هو انتقاد الأساقفة أنفسهم. فرغم كل شيء، لو أن سلطة الأساقفة قد ورثوها عن مجموعة من الناس الذين عبدوا الإله الخطأ ولم يعرفوا أبدا تعاليم عيسى (عليه السلام) السرية، فإن تلك السلطة ستكون غير شرعية في الحقيقة.

لو كان الحواريون الاثنا عشر يمثلون فعلا الأساقفة الذين ادعوا السلطة البابوية، فماذا كان النص يقصد بالإيحاء بأنهم كانوا يقودون الحشود إلى الضلال مثلما تقدم قرابين الحيوانات إلى المذبح؟ يبدو من المرجح أن هذا كان انتقادا لمصادقة الأساقفة على فكر الاستشهاد وأيضا لاستسلام المسيحيين الأوائل اللاحق للإعدام على يد السلطات الرومانية. من الواضح أن مؤلف «إنجيل يهوذا» يعتبر الاستشهاد تضحية لا جدوى منها، ويلقي باللوم على زعماء الكنيسة بسبب قيادتهم للحشود شبه النائمة إلى الذبح. لقد فاتت الناشرون تلك السمة في «إنجيل يهوذا»، فترجموا النص بقولهم: «تلك هي الحشود التي تقودونها بضلال أمام المذبح». ومع ذلك، فالنص القبطي يقول حرفيا «إلى» المذبح وليس «أمام» المذبح.

بحلول القرن الثاني للميلاد كان خطر الموت على يد السلطات حقيقة واقعة بالنسبة للمسيحيين، حيث كان الكثيرون في العالم الروماني ينظرون للمسيحية بريبة شديدة. بالنسبة لمن آمنوا بأن أمن ورخاء الإمبراطورية كان يعتمد على إرادة إلهية طيبة، بدا رفض المسيحيين لاحترام الآلهة المتعددة وإنكارهم لتقاليد الأسلاف مهددا للمجتمع بأكمله. وقد ارتابت السلطات الرومانية على وجه الخصوص في دين يشجع أتباعه على عدم المشاركة في الاحتفالات والطقوس التي كانت محورية في الحياة العامة للإمبراطورية، ويفضلون على ذلك عقد اجتماعات خفية في منازل خاصة. وقد بدا هذا السلوك للكثيرين انسحابا غير مفهوم من المجتمع ومعاداة له.

ورغم هذا الفهم لديانة المسيحية، فإن اضطهاد أتباعها في القرن الثاني الميلادي كان متقطعا وكان يهدف في الأساس إلى محاولة إقناع المسيحيين للتحول عما كان ينظر إليه كممارسات مناهضة للمجتمع وليس إلى معاقبتهم بدنيا. وعموما، كان على أي عضو من الكنيسة - في سبيل النجاة من الإدانة بتهمة المسيحية - أن ينكر إيمانه وأن يعرب عن استعداده للمشاركة في عبادة الآلهة الرومانية، مثل نثر بعض البخور على المذبح. وكثيرا ما منح القضاة الرومان فرصا عديدة للمسيحيين للارتداد قبل الحكم عليهم بالموت في النهاية. ولكن العديد من زعماء الكنيسة - ومنهم على سبيل المثال أسقف «أنتيوخ Antiock» في القرن الثاني الميلادي - حذروا رعاياهم من اجتناب الاستشهاد، بل والسعي إليه. كان المسيحيون المتمردون يحدون قدوة رائعة للآخرين. إن التفكير بأن الاستشهاديين كانوا يشاركون عيسى (عليه السلام) في الآلام، كان يجعل المعاناة شيئا ليس فقط محتملا بل مرغوبا أيضا. وعلى سبيل المثال، فأثناء نقل «إجناتيوس Ignatius» أسقف «أنتيوخ» إلى روما لمواجهة الموت، كتب إلى الكنيسة هناك مناشدا رعاياها عدم استغلال علاقاتهم النافذة لإنقاذ حياته:

«امنحوني الفرصة كي تلتهمني الوحوش، فذلك هو الطريق للقاء الله. أنا قمح الرب وأطحن بأسنان الوحوش الضارية حتى أصبح خبزا صافيا للمسيح. تضرعوا إلى المسيح من أجلي، حتى أصبح بتلك الطريقة قربانا».

كما يوحي النص السابق، فإن تصوير الاستشهاد كتضحية أصبح وسيلة قوية للمسيحيين ليقتدوا بالمسيح. فمن رأيهم أن الشهداء كانوا يعيدون تمثيل موت عيسى (عليه السلام) الذي كان - في اعتقادهم - تضحية عن البشرية جمعاء. إن مؤلف «إنجيل مرقص» يفسر الخبز والخمر المستهلكين في عيد الفصح اليهودي كرمز لجسد عيسى (عليه السلام) ودمه: «هذا هو دمي الذي للعهد الجديد والذي يسفك من أجل كثيرين» (إنجيل مرقص ١٤: ٢٤). أما «إنجيل يوحنا» فيركز أكثر على تلك النقطة الرمزية عن طريق إعادة ضبط توقيت صلب المسيح، حتى يتم ذلك ليس في اليوم التالي لعيد الفصح اليهودي وإنما في يوم وجبة العيد نفسه: وهكذا يصبح عيسى (عليه السلام) هو الحمل القربان.

ومع ذلك، فعلى الرغم من الصورة المتراصة للمسيحيين الأوائل المستعدين للموت على يد السلطات والتي وصلتنا عن طريق سجلات الشهداء والكثير من الكتب الأخرى، ناهيك عن أفلام مثل «إشارة الصليب The Sign of the Cross»، فإن الاستشهاد في الحقيقة كان موضع جدل في ذلك الوقت. فقد اعترض بعض المسيحيين على ما اعتبروه مضيعة للحياة لا لزوم لها، وآمنوا بأن إشهار إيمانهم علنا ليس بالأمر الهام. ويعبر عن هذا الرأي أحد النصوص التي عثر عليها في نجع حمادي وعنوانه «شهادة الحق The Testimony of Truth». وقد تحول هذا النص - مثله في ذلك مثل الكثير من كتابات نجع حمادي - إلى شظايا تقريبا، ولكن النقطة التي يشير إليها المؤلف واضحة بما يكفي:

«الحمقى» يعتقدون في قرارة قلوبهم أنهم لو اعترفوا بألسنتهم فقط بأنهم مسيحيون بدون أن تكون لهم القوة، وقدموا أنفسهم للموت دون أن يعلموا إلى أين يذهبون أو من هو المسيح، معتقدين أنهم

من غير المرجح أن يزعزع «إنجيل يهوذا» إيمان العديد من المسيحيين في الرواية التقليدية لخيانة وصلب عيسى (عليه السلام)، ولكنه يطرح أمامنا فكرا معقدا عن العلاقة بين الرب والشر

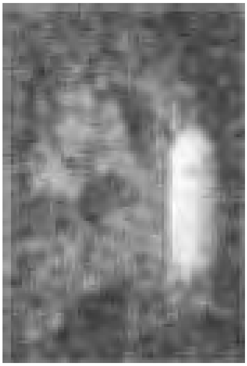
سيعيشون بينما هم في الحقيقة على خطأ، ويسارعون بتقديم أنفسهم إلى المسئولين والسلطات».

ربما يقصد بالمسئولين والسلطات المشار إليهم هنا الإمبراطورية الرومانية، أو قد يكونون قوى شيطانية تحكم سيطرتها على العالم، وبينما لا نعرف الكثير عمن كتب وقرأ هذا النص، فمن المرجح أنهم آمنوا أن الالتزام الروحاني هو الأهم، وعلى نفس المنوال الذي نصح به «بولس» الكورنثيين (نسبة إلى مدينة كورينث باليونان) أنه لا مانع من أكل اللحم المقدم كقربان للآلهة الوثنية لأنها في الحقيقة ليس لها وجود، فربما شعر هؤلاء المسيحيون أن الإنكار العلني لمعتقداتهم والمشاركة في طقوس القرابين لم تكن خيانة طالما حافظ المرء في باطنه على التزامه الشخصي بالدين المسيحي.

يبدو أن «إنجيل يهوذا» يعبر عن توجه مشابه بخصوص الاستشهاد، ولكن بدلا من انتقاد الشهداء أنفسهم، فإنه يلوم الأساقفة ضمنيا باعتبارهم كهنة أشرارا يتضرعون إلى عيسى (عليه السلام) ومع ذلك يسلمون أتباعهم كحيوانات عمياء إلى مذبح إله زائف، وكما في المشهد الأول تماما، والذي يضحك فيه عيسى (عليه السلام) لأن الحواريين يؤدون طقوس صلاة الشكر إلى الإله الخطأ، فهو هنا أيضا ينتقدهم، كما ينتقد - تلميحا - من سار على نهجهم من الأساقفة بسبب قصور فهمهم لما يريده الإله الحقيقي:

«لقد قيل لأجناس البشر: انظروا، لقد تلقى الله قرابينكم من خلال أيدي القساوسة، أي من خلال خدم الإله الخطأ، ولكن الله - رب كل العالمين - هو الذي يأمر بمحاكمتهم في الأيام الأخيرة».

يجب النظر إلى ذلك الانتقاد للسلطات البابوية باعتباره مناقضا لتضحية عيسى (عليه السلام) الكبرى، وكما سنرى فإن أهم ما في «إنجيل يهوذا» هو تكليف عيسى (عليه السلام) الخاص له بـ «التضحية بذلك الرجل الذي يحملني»، ويعني ذلك أن يقدم الجزء البشري من عيسى (عليه السلام) إلى الموت، ومن خلال تصوير القساوسة الأشرار وتضحياتهم الزائفة، يشير يهوذا ضمنيا إلى مثالية تضحية المسيح، بل إنه بمقارنة القساوسة الذين ظهروا في رؤيا الحواريين - تلميحا - مع زعماء الكنيسة البابوية، فإنه يوجه بعض الملاحظات البلاغية المعادية لليهود -



سوف يطرد يهوذا من مجتمع الاثني عشر، ولكنه في النهاية سوف ينضم إلى الجنس المقدس ويحكم الجميع بمن فيهم خصومه السابقون

والتي يستخدمها الأساقفة «الأرثوذكس» أنفسهم - ضد الحواريين. وعادة ما استهجن المسيحيون الأوائل طقوس القرابين اليهودية التقليدية باعتبارها جسدية أكثر من كونها روحانية، وجادلوا بأن موت عيسى (عليه السلام) قد نسخ ذلك، وعلى سبيل المثال ورد في «الرسالة إلى العبرانيين» في «العهد الجديد»:

«كان دم الثيران والتيوس يرش على المنجسين، مع رماد عجلة محروقة، فيصيرون طاهرين طهارة جسدية، فكم بالأحرى دم المسيح الذي قدم نفسه لله بروح أزلي ذبيحة لا عيب فيها، يطهر ضمائرنا من الأعمال الميتة لنعبد الله الحي» (الرسالة إلى العبرانيين ٩: ١٣-١٤).

وقد طور المسيحيون اللاحقون - مثل «ميليتو Melito» أسقف «ساردس Sardis» (عاصمة مملكة ليديا Lydia) في القرن الثاني الميلادي - تلك الأفكار، مجادلين بأن التضحيات التي قام بها اليهود لم تكن سوى رمز لما سوف يتحقق في شخص المسيح.

يبدو أن لاهوت «إنجيل يهوذا» يتبنى تلك المفاهيم، ولكنه يضخم كثيرا من تلميحاتها المنطقية، موحيا بأن الأساقفة منافقون، فهم يبشرون بأن عيسى (عليه السلام) كان آخر التضحيات وأكملها، بينما يحضون أتباعهم - وزوجاتهم وأطفالهم - على أن يقدموا أنفسهم للاستشهاد كقرابين بشرية، ووفقا لـ «إنجيل يهوذا»، فإن الأساقفة لا يختلفون أبدا عن الكهنة اليهود الذين ينتقدونهم، فهم يخطئون بعبادة إله متدن بدلا من الله الأعلى الذي لم يعد يطلب تضحية من أي نوع.

وفي المشهد الأخير لم يعد أي من الحواريين الآخرين موجودا، ونصل إلى أهم أحداث الإنجيل، عندما يبوح عيسى (عليه السلام) ليهوذا بأسرار الخلاص والكون، ويطرح هذا الجزء من «إنجيل يهوذا» أصعب التحديات التفسيرية بالنسبة للقارئ المعاصر، حيث يمتلئ بالمراجع الخرافية والكونيات المعقدة، فأولا، تعرض بمزيد من التفاصيل الفكرة المتواترة عن «الجنس المقدس» وعلاقة يهوذا به، فيحكي يهوذا لعيسى (عليه السلام) رؤيا شاهدها:

«شاهدت نفسي في الرؤيا والحواريون الاثني عشر يرجمونني ويضطهدونني بشدة، ثم رأيت منزلا لم تستطع عيناي إدراك حجمه، وفي وسط المنزل كان هناك حشد، يا معلم، اقبلني أيضا مع هؤلاء».

ويبدو رد عيسى (عليه السلام) محبطا: «لا أحد مولود لرجل فان يستحق دخول المنزل الذي رأيته، لأن هذا هو المكان المخصص للقديسين. انظر، لقد أخبرتك بسر المملكة».

يتلهف يهوذا لسماع ذلك: «يا معلم، هل بذرتي بالتأكيد ليست خاضعة للحكام؟» يؤكد ناشرو «إنجيل يهوذا» في أحد الهوامش أن «بذرة» هنا تشير إلى «الومضة المقدسة داخلنا»، ولكن هذا التفسير غير ضروري. إن تعبير «ومضة مقدسة» الذي يظهر مرارا وتكرارا في تعقيب «إيرمان» لم يظهر مرة واحدة في «إنجيل يهوذا» نفسه، ومن الطبيعي أكثر أن تفهم كلمة «بذرة» في سياقها المعتاد للذرية يهوذا أو البذرة التي أتى منها. ويبدو أن سؤال يهوذا هو عنه وعن ذريته وهل سيخضعون للقوى الشيطانية التي تحكم سيطرتها على العالم. يجيبه عيسى (عليه السلام):

«سوف تصبح الحواري الثالث عشر، وسوف تلعنك باقي الأجناس، وسوف تحكمهم، وفي الأيام الأخيرة سوف يدينون ارتقاءك إلى الجنس المقدس».

سوف يطرد يهوذا من مجتمع الاثني عشر، ولكنه في النهاية سوف ينضم إلى الجنس المقدس ويحكم الجميع بمن فيهم خصومه السابقون.

عند تلك النقطة يصبح عيسى (عليه السلام) جاهزا ليكشف ليهوذا عن أخطر أسرار الحياة، يخبره كيف أن الإله الحق - المسمى بالروح العظيمة غير المرئية - خلق الكون عبر سلسلة من انبثاقات الضوء والملائكة والتي تضاعفت بعد ذلك بسرعة هائلة. قد يبدو كل ذلك للقارئ المعاصر عويصا ومحيرا، ولكن قارئا قديما ملما بعلم الفلك والعلوم الإغريقية الأخرى سوف يفهمه كتفسير لوجود السماوات في انسجام وتوازن عددي مثالي. يقول عيسى (عليه السلام) أن أحد الكائنات الملائكية خلقت شخصية تسمى «أداماس Adamas»، و«أداماس» السماوي هذا هو الذي سيخلق جنس «سيث Seth» وهو الجنس المقدس الذي طالما سمعنا عنه في هذا النص.

(*) إن الإشارة إلى جنس «سيث» في اليهودية القديمة والمسيحية تعني رمزيا الانتماء لعضوية جماعة الصالحين التابعين لله والمنحدرين من «سيث»

إن التفكير بأن الاستشهاديين . أيام الرومان . كانوا يشاركون عيسى (عليه السلام) في آلامه. كان يجعل المعاناة شيئا ليس فقط محتملا بل مرغوبا أيضا

الابن الصالح لآدم وحواء الذي - كما يخبرنا «جينيسيس Genesis» - منحهما الله إياه عوضا عن «هابيل Abel» الذي قتله قابيل. وحيث إن من المعتقد أن جنس «سيث» كان موجودا في السابق في الممالك السماوية، فإن ذلك يعني أن كل من ينتمي لهذا الجنس على الأرض توجد منازلهم الحقيقية في الجنة.

وعند تلك النقطة يعرف «إنجيل يهوذا» القارئ بمملكة أخرى أسفل السماوات تسمى «مملكة الفوضى والعالم السفلي» ويقع عالمنا في تلك المملكة. وتستدعي قوة سماوية الملاكين «نيبرو Nebro» و«ساكلاس Saklas» كي يحكماه. وهذان الملاكان هما اللذان سيخلقان الأجساد المادية لآدم وحواء مستخدمين في ذلك هيئة «أداماس» كرسم تصميمي. ولكن بينما يقوم هذان الكائنان الأدنيان بخلق الجسدين البشريين فإن الله غير المرئي - كما يفسر «إنجيل يهوذا» - هو الذي يمنحهما الروح والحياة.

ومن منطلق اعتقاده المسبق بخرافة «الغنوسطية» التي تقضي بأن الخالق شرير يفترض «إيرمان» - في «إنجيل يهوذا» - أن عالمنا هو من صنع الملاكين المتدنيين «نيبرو» و«ساكلاس». ولكن الواقع أن «إنجيل يهوذا» يقدم «مملكة الفوضى والعالم السفلي» كما لو كانت موجودة على الدوام. إن «نيبرو» و«ساكلاس» لا يخلقان الفوضى ولكنهما معينان من قبل الله كي يسيطرا عليها؛ كنوع من العناية الإلهية التي تنشر النظام في أنحاء الكون. ومع ذلك - وكما يؤكد «إيرمان» - فإن «إنجيل يهوذا» يقدم صورة سلبية لحكام الكون، على الرغم من أنهم مفوضون من قبل الله. يجيء وصف وجه «نيبرو» بأنه «يتقيأ نارا» وأن «مظهره ملوث بالدماء». والأكثر من ذلك أن اسمه - كما يقال لنا - يعني «المتمرد». ولكن فكرة أن قوى ملائكية متمردة تحكم العالم ليست غريبة تماما في اللاهوت الغنوسطي المزعوم. فعلى سبيل المثال، يصف «إنجيل يهوذا» الشيطان بأنه «أمير هذا العالم»، وتعلن الرسالة إلى مؤمني أفسس «Ephesians»: «فإن حربنا ليست ضد ذوي اللحم والدم، بل ضد الرئاسات، ضد السلطات، ضد أسياد العالم حكام هذا الظلام» (الرسالة إلى مؤمني أفسس ٦: ١٢). ومثل الشيطان الذي يخبرنا «إنجيل لوقا» أن عيسى (عليه السلام) رآه «يهوي من السماء مثل البرق» (إنجيل لوقا ١٠: ١٨)، فإن شخصيتي «نيبرو» و«ساكلاس» تمنحان مؤلف «إنجيل يهوذا» وسيلة لتفسير الشر في العالم بأنه مستقل عن الله الكامل و- مع ذلك - خاضع له تماما في الوقت نفسه.

نستطيع عندما نأخذ في الاعتبار كثافة وتفاصيل التصوير الكوني في هذا النص، أن نفهم لماذا وجده «آدم جوبنيك Adam Gopnik» المحرر بمجلة «نيويوركر New Yorker» غير جذاب، وذلك في تقرير حديث:

إن «إنجيل يهوذا» يحول المسيحية إلى عبادة غامضة ولكنه يجردها من مضمونها الأخلاقي. وفي إحدى المراحل يصف عيسى (عليه السلام) ليهوذا النظام شديد البيروقراطية للمملكة القائية معددا المئات من الأجرام السماوية. إن رسالة عيسى (عليه السلام) في الإنجيل الجديد هي خارقة للطبيعة تماما. ليس عليك أن تحب جارك، فقط ابحث عن نجمك (الـ «نيويوركر» ١٧ أبريل ٢٠٠٦).

إن «جوبنيك» محق في أن «إنجيل يهوذا» مختلف تماما عن تلك الأناجيل الموجودة في اللائحة المعتمدة لأسفار الكتاب المقدس. وكما أشار «جوبنيك» نفسه فإن «يهوذا» ليس إنجيلا بالمعنى الذي أصبحنا نفهم به هذا المصطلح. كرواية لحياة عيسى (عليه السلام) على الأرض، ولكنه يتخذ حدثا خاصا من القصة المألوفة ويستكشف مضمونه. ليس من اليسير أن تكسب الأساطير الكونية المحيرة في تلك النصوص تعاطف البعض منا ممن اعتادوا المسيحية الدنيوية للكلاف والراعي والحكايات الرمزية ومعجزات شفاء الفقراء، ولكن تلك الأساطير كانت جزءا هاما من الصراع للإجابة على السؤال العسير الباقي دائما ..... من أين يأتي الشر؟

إن الكيفية التي يجعل بها هذا الإنجيل قراءه يفهمون أنفسهم أمر معقد. إن لاهوته بالنسبة للخير والشر بعيد عن الثنائية البسيطة لكراهية العالم. فعلى سبيل المثال يمكن للمرء أن يجادل بأن «إنجيل يهوذا» يطرح كونا مختلفا قليلا جدا عن «إنجيل يوحنا» في «العهد الجديد» بما فيه من صور صارخة للظلام والضوء، والله ضد الشيطان. إن «إنجيل يهوذا» يعلم قراءه أن خلقهم جاء على يد ملائكة سفليين، ولكن في صورة مقدسة للإنسانية المثالية، وأن لديهم القدرة على إصلاح ذواتهم السماوية الأصيلة، وأيضا القدرة على الموت دون إدراك ماهيتهم حقا. إن الخلاص في هذا النص مرتبط بالتأكيد بالمعرفة والوحي، ولكنه أيضا مسألة أخلاق. وفي الحقيقة، يوضح يهوذا منذ البداية أن رسالة عيسى (عليه السلام) على الأرض هي إنقاذ البشرية لأن «البعض كان يسير في طريق الصلاح بينما آخرون يسيرون في طريق الخطيئة». ويتم انتقاء أفعال معينة من خلال «إنجيل يهوذا» باعتبارها غير أخلاقية، بما في ذلك القتل والشذوذ الجنسي والممارسة غير السليمة للشعائر وإقرار الاستشهاد. بل إن علينا جميعا أن نطمح للانتماء إلى جنس يوصف دائما بأنه تقي أو مقدس (وليس حكيما أو «غنوسطي»).

وبعد الانتهاء من إطلاع يهوذا على أسرار الكون، يعود عيسى (عليه السلام) إلى فكرة التضحية، معدينا مرة أخرى على ما يبدو في سطور قليلة مقروءة بالكاد أولئك الذين يقدمون القرابين إلى «ساكلاس» حاكم الكون. ثم يكشف يهوذا في النهاية بمهمته الخاصة: «ولكنك أنت نفسك ستكون أعظم منهم لأنك ستضحي بالرجل الذي يحملني». ويبدو من الغريب إنكار مغزى تلك التضحية والانصراف عنها كما يفعل «إيرمان». من وجهة نظر «العهد الجديد» فإن موت عيسى (عليه السلام) كان مهما جدا للخلاص. على عكس «إنجيل يهوذا» بالنسبة لـ «إيرمان» فإن خلو «إنجيل يهوذا» من مشهد صلب المسيح يوضح أن موت عيسى (عليه السلام) لم يكن محوريا في لاهوت يهوذا. ولكن عندما نأخذ في الاعتبار أن النص بكامله يدور حول تفسير الأحداث التي أدت إلى موت عيسى (عليه السلام)، فإن هذا الإغفال تفسره بصورة مقنعة حقيقة أن أحداث صلب المسيح يفترض أنها أصبحت مألوفة بالفعل، وأن مؤلف «إنجيل يهوذا» لم يشأ أن يشكك بها. والذي كان يهتم بنقله لقرائه هو تفسير مختلف لكيفية وأسباب صلب المسيح.

ولسوء الحظ فإن النص عند تلك النقطة يصبح متقطعا بصورة محبطة، ولكن كلمات عيسى (عليه السلام) الأخيرة ليهوذا كانت مقروءة:

«وسوف ترفع صورة الجنس العظيم لآدم، لأن هذا الجنس كان موجودا في الممالك الخالدة قبل السماء والأرض والملائكة. انظر، لقد أخبرتك بكل شيء. ارفع عينيك وشاهد السحاب والضوء بداخله والنجوم المحيطة به. والنجم الذي يقود الطريق، هذا هو نجمك».

إن تلك السطور المبهمة توحي بأن ما يعتمد على أفعال يهوذا هو أكثر من مجرد عودة عيسى (عليه السلام) إلى المملكة السماوية. فخلاص البشرية نفسه بات الآن محل خطر. إن نجم يهوذا سوف يقود باقي النجوم أو الأرواح إلى السحاب المضيء حيث يعيش «أداماس» السماوي وجنسه المقدس. ويتبع يهوذا مهمته المقدسة: «لقد رفع (يهوذا) عينيه وشاهد السحاب المضيء ودخل فيه».

والآن بعد توضيح كل النقاط الهامة، يغير «إنجيل يهوذا» من نبرته فجأة لينتهي بالسطور المختصرة والممتعة نسبيا - التالية:

«لقد تذمر كبار قساوستهم لأنه (عيسى عليه السلام) ذهب إلى غرفة الضيافة لأداء صلاته، ولكن بعض النساخ كانوا هناك يراقبون بحرص كي يمسكوا به أثناء الصلاة، لأنهم كانوا يخشون الشعب حيث كان الجميع يعتبرونه نبيا».

«اقتربوا من يهوذا وقالوا له: ماذا تفعل هنا؟ أنت حواري عيسى (عليه السلام)».

«أجابهم يهوذا بما يرضيهم، وتسلم بعض المال وسلمه (عيسى عليه السلام) إليهم».

ولقد عاد بنا النص بمطاطة إلى منطقة السرد الحاسمة بالأناجيل الكنسية، ولكن هذا الشوسر الذي كان مألوفا في السابق لن يبدو أبدا كما كان مرة ثانية بعد أن شوهدنا رؤية يهوذا.

من غير المرجح أن يزعزع «إنجيل يهوذا» إيمان العديد من المسيحيين في الرواية التقليدية لخيانة وصلب عيسى (عليه السلام)، ولكنه يطرح أمامنا فكرا معقدا عن العلاقة بين الله والشر، وهو فكر ربما أوحت به تجربة شخصية أو فضول فلسفي. فرغم كل شيء فإن تجربة التلبس بشيطان، والتي ربما تعرض لها المؤلف قد تؤدي - وهذا مفهوم - بأحد المسيحيين الأوائل إلى إعادة التفكير في مشكلة الشر. أما الإجابات التي أتى بها المؤلف فمصدرها الرئيسي كليشيهات الثنائية الغنوسطية، وفي الحقيقة: وبعودة يهوذا إلى المصطبح فإن هذا النص ينتهي بالفعل بترويض الشر، على الأقل بالتلميح إلى أن الخيانة العظمى يمكن أن تتحول إلى عمل من أعمال الطاعة التقية. أما إلى أي حد نجد ذلك التفسير مقنعا ومرضيا فتلك قضية أخرى تماما. وفي النهاية، اقتباسا من أغنية «بوب ديلان Bob Dylan» فالأمر متروك لنا لنقرر ما إذا كان الرب يقف في صف يهوذا الإسخريوطي.

محمد سعيد رمضان البوطي

القول بالاستغناء العملي عن المعرفة النظرية، وهم يبعث الأخذ به على قدر كبير من الحيرة، ويزج صاحبه في الشعور بالوحشة، تجاه التعامل مع الحياة، ويلغي الرابطة القائمة بين العلوم الإنسانية والعلوم المادية الخاضعة للتجربة

اليقين الإسلامي والمعرفة الغربية

لعل كلمة «المعرفة» من أكثر الكلمات دوراناً وتداولاً فيما نقرؤه من الكتابات الغربية المنبثقة عن الرؤية الفلسفية، أو المنبثقة من علم الاجتماع والتربية.

في حين أن كلمة «اليقين» بالمقابل، أقل ما تحفل به هذه الدراسات الغربية، وأقل الكلمات وروداً فيها واستعمالاً لها. هذا مع العلم بأن المعرفة التامة بمعناها الذاتي لا تتحقق بدون يقين.

والفلسفة الغربية تعتذر عن هذه المفارقة المرفوضة (علمياً) بما تؤكده، من أنه لا توجد في الكون حقيقة مطلقة، أي غير مشروطة، بل كل ما يعبر عنه بالحقيقة فإنما هو حقيقة نسبية، خاضعة للتغير تحت سلطان الزمان والمكان، وما يسميه المناطقة بالوحدات الثماني. وهذا ما يستوجب انفصال المعرفة عن اليقين في أكثر الأحيان.

إن المعرفة - فيما تراه الفلسفة الغربية - ثمرة المماثلة التي يبذلها العقل، على طريق الإدراك. والشأن فيها أن تكون متقاصرة دائماً عن بلوغ درجة اليقين، للسبب المذكور. ومن ثم فإن اللزوم ليس موجوداً بالضرورة بين المعرفة واليقين.

وحتى في القضايا الحسية التي يتم إدراكها بالموازين الرياضية المحددة. قلما يرقى الإدراك فيها إلى درجة اليقين. لأنها تظل خاضعة للتطور والتبدل.

من أجل ذلك لا تمتأ الدراسات الغربية اليوم، لا سيما الاجتماعية منها، تتجه بالنقد إلى الفلسفة اليونانية القديمة، المادية منها والمثالية، بسبب أنها (أي الدراسات الغربية) لا تتجاوز أفكاراً معرفية نظرية، وأنها تظل تتحرك في ساحة الاحتمالات وضمن درجات الممكن..

وهي - أي الدراسات الغربية اليوم - ترى أن الهبوط عن ذلك المستوى المتعالي في البحث العقيم، إلى ساحة الأفعال والتجارب المجدية، أولى بالإنسان: هذا الكائن الذي كان ولا يزال تواقاً إلى تحقيق حاجاته الفردية والاجتماعية، مثل إشادة البنيان ونسج الثياب وإقامة الصناعات وإبداع الفنون وتطوير الزراعة. ومما لا ريب فيه أنه لا بد من اتخاذ سبل فكرية وعلمية إليها وإلى الأخرى. غير أن نجاح هذه السبل رهن بالتجربة الناجحة المحسوسة، وليس متوقفاً على اليقين.

وللتفريق بين السبيل العقلي إلى الأفعال التي يتوقف النجاح فيها على التجربة، والسبيل العقلي الفلسفي إلى اليقين الذي لا جدوى من محاولة الوصول إليه، اصطلحت الدراسات الغربية الحديثة على تسمية الأول منها «علماً» (Science) وعلى تسمية الثاني «معرفة» (Knowledge).

ولعل من أبرز الثائرين على المعرفة الفلسفية المتعالية، والداعين إلى الانشغال بالأفعال المهنية والصناعية بدلاً من الانصراف إلى الانفعال الفكري العقيم، العالم الفلسفي والتربوي (جون ديوي) وكتابه (البحث عن اليقين) خير شاهد على ذلك.

ومن أشد ما ورد في هذا الكتاب ثورة على الفلسفة التقليدية الكلاسيكية قوله:

«إن الظن بأن القيم غير المستقرة المتقلبة في العالم الذي نعيش فيه، آمنة أبداً في عالم أعلى (مما يبرهن عليه العقل ولكن لا يستطيع تجربته) وبأن جميع الخبرات التي تنهزم هنا تنتصر هناك، قد يهب العزاء للمحزون، ولكن ذلك لا يغير واقع الموقف بحال. إن الفصل الذي قام بين النظر والعمل، وما تبع ذلك من استبدال البحث العقلي لبلوغ التوكيد المطلق بالجهد العملي لجعل الحيز أكثر أمناً في الخبرة، قد حول الأنظار وشتت الجهود عن مهمة لو تمت لأفضت إلى نتائج محددة.

«وأعظم مسألة تحقق الأمن المحسوس للقيم، ترجع إلى تكميل «مناهج العمل. فالنشاط لمجرد النشاط، والسعي الأعمى، لا يخطوان بنا إلى الأمام. وليس تنظيم الظروف التي تعتمد النتائج عليها ممكناً إلا بالعمل.. وإنما يكون ذلك بالعمل الذي يهتدي بالذكاء الذي يحيط بالظروف علماً. ويلاحظ ما فيها من علاقات التتابع. أما القول بأن الفكر منفصلاً عن العمل، يمكن أن يضمن اليقين الكامل فيما يختص بمنزلة الخير الأقصى، فلا يعين على حل المشكلة الرئيسية الخاصة، بنمو الطرق البصيرة للتنظيم، بل الأولى أن ينشط الجهود التي تبذل في هذا الاتجاه وترشده»[1]

إذن فإن هذه النظرة تتهم المعرفة، من حيث ذاتها، بالعجز عن بلوغ درجة اليقين، ومن ثم تعلن الاستغناء عنها، وتدعو إلى الاشتغال بما هو أجدى، وهو النشاط الفعلي القائم على التجربة السلوكية.

غير أن الرؤية الإسلامية، تفند كلاً من هاتين الفكرتين. فالمعرفة سبيل ميسرة إلى اليقين لو تم السلوك إليه. وهو الأمر الذي يدل على أن الحقيقة المطلقة موجودة. وإنما الذي يحول دون الوصول إليها الجهل. وبعبارة أدق: الجهل بالمنهج الذي يجب أن يعتمد في البحث عنها والسير إليها.. ألا ترى أن الإنسان يتعامل مع الحقيقة المطلقة، ربما بدون أن يشعر، في كثير من القضايا التافهة وربما السخيفة: كمعرفة أن ٢×٢=٤ وأن باريس تقع في فرنسا، وأن نابليون مات في اليوم الخامس من أيار عام ١٨١٢ وأن الطيور لها مناقير.. فهذه وأمثالها تدل على أن معارفنا النسبية تنتمي إلى جذور من الحقيقة المطلقة.

وعلى كل حال، فإن القول بالاستغناء العملي عن المعرفة النظرية، وهم يبعث الآخذ به على قدر كبير من الحيرة، ويزج صاحبه في الشعور بالوحشة، تجاه التعامل مع الحياة، ويلغي الرابطة القائمة بين العلوم الإنسانية والعلوم المادية الخاضعة للتجربة.

ثم إنه ليس مهماً بالنسبة لمن زج به في مكان غريب، أن يجد أمامه مائدة توافرت عليها أصناف الطعام.. إنما الأهم من ذلك أن يتعرف على المكان الذي هو فيه، وأن يعلم السبب الذي ساقه إليه وأدخله فيه. وما لم يعلم ذلك، فسيستشعر في نفسه ووعيه أنه سجين في ذلك المكان.

ولكن كيف السبيل إلى اختراق ظواهر الأمور النسبية إلى المطلق؟

تجيب الرؤية الإسلامية بأن المهم أن نعلم أولاً بأن مصدر الخطأ يكمن فيما يتصوره الباحثون الغربيون من أن الكون ليس إلا ساحة واسعة لحقائق شتى مستقل بعضها عن بعض!.. إن الرؤية الإسلامية لا تقر بهذا الذي ذهبت إليه الأفكار الغربية قديماً وحديثاً. بل تقرر وتؤكد أن الوجود الكوني إنما يحتضن حقيقة واحدة. ولكنها ذات جوانب أو أجنحة شتى.. ولنقل بعبارة أخرى: إن الوجود الكوني وحدة مترابطة المرافق والأجزاء. فلا تستقيم معرفة أي جزء منه بمعزل عن معرفة الأجزاء الأخرى. إن معرفة أي جزء من هذا الجهاز الكوني. لا يمكن أن تتم إلا ضمن قاعدة واسعة. وإن لم تكن دقيقة، من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها. أو بتركيبة الجهاز الكوني من حيث هو.

إن ما نراه من موضوعات المعارف والعلوم المستقلة بعضها عن بعض، ليس في الواقع إلا أجزاء متراكبة متآلفة في بناء هذا الهيكل الكوني كله.. إن بينها من التمازج والتداخل والتفاعل ما يجعلك لا تحيط علماً بأي منها إلا على ضوء ما يبصرك به المجموع الكلي لهذا الهيكل الشامل.. وليست كما قد يتوهم حقائق متناثرة منفك بعضها عن بعض.

وقد علمنا أن بنيان هذا الوجود الكوني، يتألف من أركانه الثلاثة الكبرى، الإنسان والحياة التي يتمتع بها، والموجودات الكثيرة التي تموج من حوله.. فما ثمة فن من الفنون المختلفة، أو علم من العلوم المتنوعة، إلا وهو دائر في فلك هذه العناصر الثلاثة الكبرى. ومما لا ريب فيه أن هذه العناصر متصلة، متفاعلة، يتقوم كل منها (في مظهره ووظيفته وآثاره) بالعنصرين الآخرين.

ومن هنا فإن على من أراد أن يتجه إلى دراسة أي من العلوم الكونية، كالفلك والنبات وطبقات الأرض، والتاريخ الطبيعي، أو إلى أي من العلوم المتعلقة بجسم الإنسان أو بإنسانيته، كالطب والتشريح والأجنة والخلايا الحيوانية، والتاريخ والتربية والأديان، نقول: إن على من أراد أن يتجه إلى شيء من هذه العلوم والمعارف أن يجعل منطلقه إلى ذلك التبصر بالحقيقة الكونية الجامعة التي

تتفرع عنها هذه المعارف والعلوم كلها، والمتمثلة - كما قلنا - في: الإنسان، والكون، والحياة، مع ضرورة التأمل في مظهر العلاقة السارية فيما بينها. وهو المظهر الذي يكشف عن كونها حقيقة واحدة.

إن هذه الضرورة لا تختلف قط عن الضرورة التي يشعر بها ذاك الذي يبسط أمامه خارطة، ليعلم موقع بلد أو مجرى نهر أو مسار سلسلة من الجبال.. إن من البداهة بمكان أن عليه قبل كل شيء أن يتصور الرسم الكلي للخارطة، وأن يتبين موقعها من الاتجاهات الفلكية المحيطة بها، وما يتقاسمها من خطوط الطول والعرض.. فإن هو لم يبدأ بذلك لم تتحقق أي قيمة لتصوراته الجزئية عن تلك الخارطة وما تناثر فوقها من أسماء المدن والأنهر والجبال وإن هو توهمها معرفة وعلماً.

إن شكوى الباحثين الغربيين من أن «المعرفة المتعالية التي تبحث في الحقائق الكونية لا توصل أصحابها إلى يقين» مردها إلى أنهم يصرون على أن يتجاهلوا وحدة الكون وصلة ما بين الحقائق الكونية، والرابطة السارية فيما بينها، وإنها لرابطة وثيقة تجعلها تبدو وكأنها فصول متعددة من كتاب ذي موضوع واحد. فما الذي ينبغي أن نتوقعه من باحث عمد على فصل من كتاب، راح يدرسه مفصولاً عن الفصل الذي قبله والذي بعده؟!.. مما لا شك فيه أنه سيعود بمعلومات مضطربة مهزوزة، وفي أفضل الأحوال تظل من تفكيره في مرحلة الشك أو الظن.

على أنهم لو أرادوا أن يصححوا أفكارهم وأن يفترضوا أن ما يتوهمونه حقائق كونية مستقلة بعضها عن بعض، ليست في ذاتها إلا حقيقة كلية واحدة ذات زوايا أو أجنحة متعددة، لن يتبينوا مصداق ذلك، لأن الخارطة الكونية التي تبرز لهم ذلك وتؤكده، غائبة عنهم.. وسأتحدث عن هذه الخارطة الكونية وأعرف بها بعد قليل.

ومما هو جدير بلفت النظر أن الباحثين الغربيين الذين تدفعهم الرغبة إلى أن يصلوا من معارفهم بما يسمونه الحقائق والظواهر الكونية، إلى اليقين، لا يعودون من سعيهم الخائب بذلا مبالاة التي ينصحهم بها جون ديوي وأمثاله، بحجة أن لهم في الأنشطة العملية التجريبية ما يحقق لهم ثمرات معاشية مجدية، تغنيهم عن تلك البحوث المعرفية العقيمة.. بل إنهم لا يعودون من سعيهم الخائب إلا بالحسرة والوحشة.

ذلك لأنهم يجدون أنفسهم، بعد سعيهم العقيم، من الدنيا التي يتقلبون فيها، أمام لغز يستعصي على العقل فهمه، واللغز الكوني المجهول هذه، يفترض العقل فيه احتمالات شتى قد يعود بعضها بل كثير منها على الإنسان بنتائج مشقية وربما مهلكة. إن المجهول، لا سيما المتصل بحياة الإنسان ومعايشه، لا بد أن يقض مضجعه ويبعث في نفسه قدراً كبيراً من الاضطراب، ولسوف يزداد ذلك تأثيراً عليه، ما دام شلاف الجهالة مثبتاً فوقه. ولن يسليه عن ذلك التشاغل بالأنشطة العملية التجريبية.

وإليك برهان هذا، متمثلاً في مواقف وكلمات لطائفة من الباحثين، تؤكد أنهم ارتدوا عن رحلة المعرفة إلى مشاعر من الوحشة والأسى، والضيق بالمجهول الذي يحيط بهم.

يقول برتراند رسل في مقدمة كتابه «سيرتي الذاتية» في تحسر وأسى:

«قضيت حياتي سعياً إلى ثلاث غايات: الحب، والسلام، والمعرفة. ولقد أتيح لي أن أحقق قدراً كبيراً من الغايتين الأولى والثانية. أما المعرفة فقد عدت منها بأوكس الحظوظ».

ويروي الكاتب الأمريكي جورج فيرك حواراً جرى بينه وبين صديقه أينشتاين، سأله خلاله عن الموت وحقيقته، ففاجأه أينشتاين بقوله: لا أدري!.. فدهش فيرك من جوابه، وقال له: لا تدري.. وأنت صاحب النظرية النسبية، وصاحب الفضل في تحديد قوانين الفضاء والزمن والجاذبية؟!..

فقال له أينشتاين: أرأيت إلى طفل دخل مكتبة رصفت فيها الكتب بوجه كل من جدرانها الأربعة مرتفعة إلى السقف. ولما سئل الطفل عما يراه، أجاب: هي كتب تحوي علوماً شتى بلغات متعددة.. إنني لا أعرف عن هذا الكون أكثر مما عرفه الطفل عن تلك المكتبة!..

أما انجلز شريك ماركس في وضع استراتيجية المادية الجدلية، فقد اجتاحته حيرة السير إلى المعرفة ثم الرجوع عنها خالي الوفاض إلى حيث لم يجد بداً من القول بأن الأجيال القادمة على الأرجح ستنبهنا في تصحيح أخطائنا: لا سيما في شؤون التاريخ والتاريخ الطبيعي. ويقول: «إن الحقائق الأبدية تعاني مأزقاً أشد حراجة، في المجموعات الثلاثة من العلوم، وهي المجموعة التاريخية. وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشد تخلفاً منها في ميدان الحياة».

ولا تقل حيرة داروين عن حيرة انجلز وأينشتاين. وهو يتحدث عن التاريخ القصي للإنسان ويدلي بافتراضاته عن أصل الأنواع. فقد كان جوابه لمن ناقشه في بعض ما ذهب إليه من العوامل التي تدخلت بنظرد





في تطوير الإنسان قوله: «إننا لا ينبغي أن نتوقع العثور على جواب محدد معين على هذا السؤال. إذا عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة عن سؤال أقل من هذا السؤال تعقيداً».

إذن فقد كان العجز المعرفي ولا يزال غصة في صدور هؤلاء الباحثين، لا سيما ذلك العجز المتعلق بمعرفة ذات الإنسان ومبدئه ومصيره، ولم تحملهم هذه الغصة على أن ينفضوا أيديهم أو عقولهم عن هذه المعاناة، وعلى أن يتجهوا بدلاً من ذلك إلى الأنشطة العملية المعيشية القائمة على التجربة بدلاً من اليقين.

أما الآن، فبوسعنا أن نؤكد أن الرؤية الإسلامية لا تعاني من هذه المشكلة، ولا ترى أن ثمة انفكاكاً بين المعرفة واليقين.

إن إدراك الشيء لا يرقى إلى درجة المعرفة (في المصطلح الإسلامي) إلا إذا أثمر اليقين، ومن ثم فإن بين المعرفة واليقين تلازماً مستمراً، وعندما يقع بينهما الانفصال، تتحول المعرفة عندئذ إلى شك أو ظن. وهذا هو السبب في أن المنهج الإسلامي إلى المعرفة لا يفرق إلى اليوم بين مصطلحي المعرفة والعلم، اللهم إلا الفارق اللغوي الذي لا علاقة له بموضوعنا هذا، وهو أن عملية المعرفة لا تكون إلا بعد جهل، في حين أن العلم قد يكون اكتساباً بعد جهل كعلم الإنسان، وقد يكون حقيقة أزلية كعلم الله. ولذلك لا يجوز أن يوصف الله بالعارف، وإنما يوصف بالعالم.

إن ذخر المعارف الذي يتمتع به تاريخ المعارف والعلوم الإسلامية، يرقى أكثرها إلى درجة اليقين، وهو لا يكتسب اسم المعرفة أو العلم إلا بهذا الشرط. ومن ثم فإنك مهما بحثت، لن تعثر بين علماء المسلمين، الذين ألزموا أنفسهم بالمنهج الإسلامي إلى المعرفة، على من بقيت المعرفة عندهم غير متحقق في حياتهم، أو عانوا بمشاعر من القلق والاضطراب، بسبب تصورات مهزوزة غامضة إلى شيء من حقائق الكون وقوانينه.

هل تجد فيهم من سئل عن الموت فلاذ من الإجابة عن هذا السؤال بمثل ما قاله أينشتاين؟ أم هل تجد فيهم من وقف أمام كتاب هذا الوجود الكوني وقفة الحائر الذاهل، معترفاً بأنه لم يعد من رحلته في فجاج المعرفة إلا بأوكس الحظوظ؟

قارن بين قول أينشتاين عن الموت: لا أدري، وما قاله ابن القيم عن الموت نفسه وكل ما يتعلق به في كتابه (الروح) ثم قارن بين ما يؤكده الجلز من أن الأجيال الآتية ستصحح الكثير من أوهامه، وما يقوله الإمام الغزالي عن العالم المحيط بالإنسان وعن أحداث المعاد الكوني في كتابه «إحياء علوم الدين» أو كل من الإمام الجويني والرازي وابن تيمية والبيضاوي والعضد الإيجي.. إلخ فلقد كان اليقين أنيس هؤلاء العلماء الأفذاذ في رحلتهم إلى المعرفة. ولم نعثر على أي كلمات لهم تنبئ عن مشاعر الضيق التي انتابتهم من جراء معرفة تنأى بهم عن بلوغ اليقين.

وهذا لا يعني أن علماء المسلمين استوعبوا أمور الكون كله علماً. فالمجاهيل التي تحيط بالإنسان أكثر من الموضوعات المكشوفة تحت بصيرته أضعافاً مضاعفة. وجل ربنا القائل: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»، ولكنا نعني أن كل ما هو مثبت ومعرف به في الخارطة الكونية التي وضعها الله تحت أبصارنا وبصائرنا، يملك الإنسان سبيلاً إلى معرفته ومن ثم إلى اليقين به، إن هو سلك السبيل القويم إلى ذلك.

ولكن كيف تحقق في المنهج الإسلامي إلى المعرفة هذا اليقين الذي أعوز المنهج الغربي بلوغه؟ وما هي الخارطة الكونية التي استعان بها المسلمون للمعرفة، في حين أن الغربيين لم يعثروا عليها؟

والجواب أولاً: هو ما قد ذكرته لك من قبل، من أن كل من أراد أن يتجه إلى دراسة فرع من فروع المعرفة الكونية الكثيرة، لابد أن يتبين أولاً الجذع الذي تنبثق منه هذه الفروع كلها، ألا وهو الحقيقة الكونية المؤلفة من مجموعة: الإنسان والكون والحياة. تماماً كشأن من بسط أمامه خارطة يستبين فيها موقع مدينة أو دولة أو سلسلة جبال.. لا بد أن يتعرف على الخارطة أولاً.

ثم إن على من يريد أن يتخصص في دراسة فرع من فروع المعارف الكونية التي ألمحنا إليها، أن يبني دراسته المعمقة على ثقافة علمية عامة تبصره بعلاقة العلوم المختلفة بعضها ببعض، وبكيفية تسلسل المعرفة من علاقة ما بينها.

ما من ريب في أن من يبدأ فيبني دراسته المعمقة على هذه الثقافة العامة التي تبصره بعلاقة المعارف الكونية بعضها ببعض، سيرى أن البنيان الكوني أشبه ما يكون بفصول متوالية مترابطة من كتاب ذي موضوع واحد.. وتلك هي الحقيقة التي يعبر عنها العلماء بقولهم: إن الكون وحدة متآلفة متناسقة تنطق بوحدة خالقه.

فإذا سار الباحث عن المعرفة ملتزماً هذا النهج، وتحقق بهذا الشرط، فلن تبقى آمال المعرفة واليقين غصة وراء صدره، أو أمنية متأبية على التحقيق في حياته، بل يتاح له حينئذ أن يكتشف عن الحقيقة سترها، وأن يتعرف على هذا الوجود الكوني الذي يعيش في فلكه، معرفة قد تكون غير عميقة، ولكنها تكون صحيحة تبعث الطمأنينة في نفسه بكل جزم ويقين.

إذن فقد تبصر العلماء المسلمون بهذه الحقيقة، إذ أتيح لهم أن يتعرفوا على الجذع الكوني الذي تنبثق منه فروع المعارف كلها. في حين لم يتح ذلك للباحثين الغربيين، فكان شأنهم كمن قفز إلى دراسة الجملة العصبية في الإنسان فوق المرحلة التأسيسية التي لا بد منها وهي دراسة التشريح.

ولكن ما هو الجذع الكوني لفروع المعارف المختلفة، ذاك الذي عثر عليه المسلمون فتعرفوا عليه، وانطلقوا منه، في حين لم يتح للغربيين العثور عليه والاستفادة منه؟

إنه القرآن!.. هو الخارطة الكونية التي تضع بين يدي الإنسان خلاصة العالم: صوره وأحداثه وصلة ما بين جهاته وأجزائه، جامعاً بين أزمنة الماضي والحاضر والمستقبل.

ولسوء حظ الغربيين فقد كان القرآن (هذه الخارطة الكونية الجامعة) بعيداً عن أنظارهم واهتماماتهم، وإنما أقصد أولئك الذين كانوا ولا يزالون يبحثون عن اليقين دون أن يجدوه.

ولنتأمل الآن كيف تتحقق المعرفة السليمة التي تبعث على اليقين العقلي والطمأنينة النفسية، لدى الرجوع أولاً إلى خارطة الكون، القرآن، والمفروض أنك سبق أن تعرفت عليه ووقفت على الدلائل القاطعة بأنه يستحيل أن يكون كلام مخلوق، وبأنه لا يمكن إلا أن يكون كلام الخالق.

يبدأ القرآن فيتحدث للإنسان عن ذاته، ويعرفه على مبدئه ومزاياه الكونية ومنتهاه، وذلك نظراً إلى أنه - بما يتمتع به من عقل ورشد - هو الأداة الأولى في عملية الإدراك والفهم، وهو العنصر الأول من عناصر الحضارة الإنسانية.. وهي البداءة التي تجعل المتدبر للقرآن يقف طويلاً أمام مرآة ذاته، يكتشف مظاهر تكريم الله له وتفضيله على كثير من الخلائق الأخرى. ولكنه يكتشف أيضاً ما هو أهم من ذلك، وهو عبوديته ومملوكيته لله - عز وجل - في كل الأحوال والتقلبات.

ثم إن القرآن يقود المقبل إليه والمتدبر له إلى الوقوف على حقيقة أخرى ذات أهمية كبرى ألا وهي الحياة التي تسري في كيان الإنسان. يحدثه القرآن عن مصدرها وقيمتها ودور الإنسان في رعايتها والاهتمام بها، وعن الحالات التي يجب عليه فيها أن يكون ضنيناً بها، والحالات التي ينبغي أن يضحي فيها بها.

ثم يأتي دور الحديث عن المكونات الهائلة الكثيرة التي تحيط بالإنسان مسخرة له، فيحدثك القرآن عن مظاهر ربوبية الله وحكمته ووحدانيته فيها، ويلفت نظرك إلى الوظائف التي أقامها الله عليها لخدمة الإنسان وتحقيق رغائبه، وإلى العلاقة السارية ما بينها وبين الإنسان والشروط التي تؤديها لاستمرار حياته وحمايتها من أي سوء.

ثم إن القرآن يؤكد لك أن بنيان هذا الوجود الكوني، إنما نهض على دعامة من خلق الله له ابتداء، ودعامة أخرى من رعايته دواماً. وأن محور هذا البنيان إنما هو الإنسان، وأن المهمة التي أنيطت به هي عمارة الأرض وإقامة مجتمع إنساني سليم عليها، تشرق فيه العدالة وتشيع في أنحائه الرحمة.. ولما كان الإنسان عاجزاً عن تحقيق ذلك استقلالاً، فقد أنجده الله بتعاليم لإقامة موازين العدل، ولاستثارة أسباب المحبة والتراحم.. وقد شاء جل جلاله أن يلزم الناس بذلك إلزاماً، وأن يشدهم إليه بعوامل الترهيب والترغيب..

لقد تمثل إذن الهيكل الكلي للكون أمام الإنسان المقبل بتدبر إلى القرآن، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمام عينيه عندما ينظر إليها، قائمة بجذعها على

أرض مستوية، ليس بينه وبينها حجاب أو سحاب.

نعم.. هكذا يتمثل الوجود الكوني كله أمام بصيرة كل من أقبل يصغي إلى مناجاة القرآن وتعاليمه، فاتحاً له عين بصيرته، معرضاً عن مشوشات عصبيته. فإذا انطلق من هذه الصورة الكلية إلى ما يريد أن يناله من مختلف العلوم والمعارف الكونية، لم يحجبه عنها غبش الجهالة بها والاستيحاش منها، ووجد عقله بما هو مسخر له منها، أمام أسرار مكشوفة وحجب مرفوعة. فإذا تجاوزها إلى ما وراء ذلك من الغيوب التي طوى الله عن الإنسان سبيل العلم بها: سلّم الأمر للخالق الحكيم، وعاد من جهله بها راضي النفس مطمئن البال.

إن فرق ما بين الرؤية الإسلامية من خلال القرآن إلى الكون، ورؤية الفكر الغربي له، إن الرؤية القرآنية تضع الرائي من الكون أمام جهاز مؤلف من أجزاء متراكبة متناسقة يظل التفاعل البنّاء سارياً فيما بينها، ومن ثم فهو يدرك قيمة الجزء منها بما يتبينه من الأجزاء الأخرى. ويكتشف كمال كل منها بما يراه من الارتباط الوثيق السارى فيما بينها. ثم يعود فيقف من القرآن أمام مرآة ذاته، وقد تبين هويته، ووظيفته التي أقامه الله عليها، ومكانته التي يتبوؤها من الكون كله.

أما الرؤية الغربية، فهي تضع الرائي أمام نثار من ظواهر كونية شتى، لا يدرى من أين جاءت وكيف انبثقت. ومهما تأمل فيها فإنه لن يرى في عمق ما ينظر إليه، إلا ساحة وجودية مجهولة الآفاق، سداها ولحمتها نسيج من الألغاز!..

ومن ثم فإن الشأن فيه عندما يتجه بفكره إلى عملية المعرفة والعلم، أن يلتقط من تلك الظواهر الكونية المتناثرة أمامه (فيما يبدو له) ما يصح أن يدرسه ويسبر غوره، دون أن يدرك أنه إنما حصر نفسه بذلك ضمن مربع في شبكة كونية متواصلة الخيوط والحلقات. فهو كلما أراد أن يزداد في مربعه الذي حصر نفسه فيه غوصاً وعمقاً، اصطدم بمزيد من العلاقات المجهولة، والمشكلات الناشئة من ظاهرة الحركة الكونية الواحدة ووظائف الجهاز الكوني المنعكس على القطعة التي حصر نفسه فيها.

وينبغي أن أذكّرك هنا بالقاعدة العلمية القائلة: إن دراسة ٢٠٪ من كتلة ذات أجزاء متراكبة متفاعلة، ليس من شأنها أن تؤدي بالضرورة إلى معرفة ٢٠٪ من حقائق تلك الكتلة. بل إن مثل هذه الدراسة العقيمة، قد لا تؤدي إلى معرفة حتى ١٪ من تلك الحقائق، أو ربما توصل صاحبها إلى مجموعة تصورات مشوشة خاطئة عن مجموع تلك الكتلة.



وأعود إلى داروين، الذي استشهدت بكلامه قبل قليل.. إنه - كما تعلم- بذل جهداً شاقاً في دراسته لأصل الأنواع، ومنها الإنسان، آملاً أن يحول خياله عن أصل الإنسان إلى حقيقة علمية ثابتة. ولكنه اصطدم في سعيه إلى ذلك بعقبات شتى. بل بوسعك أن تلاحظ أنه كلما حاول أن يزداد في عرض نظريته عمقاً وسبراً لغور الموضوع ازدادت في وجهه المشكلات ظهوراً، وتجلت أمامه عوائق ذات صلة بموضوعات أخرى لم يكن حافلاً بها أو متنبهاً إليها، حتى ألجأته في أكثر من موضع إلى أن يعتذر عن عجزه عن الإجابة عن المشكلات المستعصية التي راحت تتزايد أمامه.. بل أكد أنه يعجز عن الإجابة عن مشكلات أقل منها تعقيداً.

ولكن هذا الموضوع لم يؤرق أذهان العلماء المسلمين، ولم يستأثر باهتمامهم، ذلك لأن القرآن وضعهم أمام أصل الإنسان ونشأته، عندما وضعهم من الحديث عنه وعن كل ما يتعلق به، أمام مرآة الذات، وكلٍ من مبدئه ومنتهاه. ثم زاد يقينهم بذلك رسوخاً، إذ قال عن الأخيلة والأوهام التي أرهق داروين وأمثاله عقولهم وأنفسهم بها «ما أشهدتُهم خلقَ السماوات والأرض، ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً». (الكهف:٥١).

بوسعك الآن، بعد أن تبينت الثغرات الكبيرة في منهج «المعرفة» عند الغربيين، وهي الثغرات التي يتنزه عنها منهج المعرفة في القرآن، أن تعلم المراد بقوله تعالى: «ما فرطنا في الكتاب من شيء»(الأنعام:٣٨) وأنه ليس كما يتوهم السطحيون من أنه حوى العلوم والمعارف كلها، وإنما المعنى أن القرآن قد حوى أصول المعارف كلها عندما وضع الإنسان أمام الرسم البياني الشامل للوجود الكوني بأسره، إلى درجة أن اكتشاف أي حقيقة علمية لا يكتسب قيمته العلمية الصحيحة إلا إذا تم ضمن تصور سليم لذلك الرسم البياني.

ويوسعك الآن أن تتبين الجواب عن الإشكال الذي يردده الكثير من الناس، عندما يقفون على قوله تعالى: «إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ» (فاطر:٢٨) وهو قولهم: إن الدنيا مليئة اليوم بالعلماء الأفذاذ، ومع ذلك فإن الكثيرين منهم لا يؤمنون بالله، فضلاً عن مخافته. والجواب أن هؤلاء ليسوا (كما قد تبين الآن) علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة.. وإنما هم أولئك الذين أعلنوا إعراضهم عن البحث عن اليقين في قضايا الكون، واستبدلوا بذلك الأنشطة العملية المهنيّة القائمة على التجربة.. وهي ليست علماً إلا بالمصطلح الغربي الحديث.. فإذا طاب لهم أن يتجهوا بوسائل المعرفة عندهم إلى التبصر بحقيقة من الحقائق الكونية، وضعوا المكبرات على رقعة صغيرة من قلب الخارطة الكبيرة، ثم حملقوا في تلك الرقعة، حيث الحقيقة التي يبحثون عنها، وهم عن الخارطة ذاتها غافلون!.. بل إنهم نموذج لأولئك الذين يحصرون أنظارهم من الجسم الإنساني كله في الكبد وحده، وهم عن مجموع جهازه العضوي معرضون.

ومن أجلى الأدلة على ذلك أنهم أنفسهم، يعترفون، بعد كل ما يستحصدونه من المعارف والعلوم، بأنهم يعانون من وطأة الجهل وأنهم بحاجة ماسة إلى المعرفة.. وبأنهم لا يجدون في معارفهم طمأنينة يركنون إليها، مهما دقت وتعمقت، بل يظلون نهباً لدوامة حيرة تطوف بأذهانهم وأنفسهم. وقد ذكرت لك نماذج من اعترافاتهم، من قبل.

كما أن من اليسير عليك الآن أن تعلم الجواب عن إشكال آخر ينبثق في أذهان كثير من الناس عندما يقرؤون قول الله تعالى عن العلماء الغربيين وأمثالهم: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا» إذ يخيل إلى المستشكلين أن كلمة «ظاهراً» تعني المدارك السطحية للشيء، بالمعنى المتداول عند الناس، وهو ما لا ينطبق على العلماء الغربيين.

ولكن الحقيقة أن المعرفة السطحية للشيء تتمثل أول ما تتمثل في المعرفة التي يزهى بها من لم يعلم بعد شيئاً من هذا المعلوم وحجمها وحقيقتها، ولكنه انطلق يغوص بدلاً من ذلك في أجهزتها ودخائلها الجزئية، تائهاً وسط حجمها الفسيح، غير متعرف على ذاتيتها من حيث هي.

والمهم أن مثل هذا العمل، وإن بدا في ظاهره سبراً للغور وتعمقاً في الفهم، ولكنه في واقع الأمر وحقيقته سطحية متناهية.. وهذا هو بالضبط معنى قوله تعالى عنهم: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا».

وبعد، فإن الفلاسفة لم يتنكبوا عن الحق عندما وجهوا أنظارهم ومداركهم إلى المكونات يبحثون عن حقيقتها وينشدون الوصول إلى يقين بشأنها.. ولكنهم أخطأوا في المنهج الذي ينبغي أن يسلكوه لبلوغ ذلك.

حملوا عقولهم وحدها مهمة إدراك الحقيقة والبلوغ بشأنها إلى يقين، دون أن يفرقوا بين الحقائق المادية التي تخضع للحس والتجربة، والحقائق الغيبية التي ليس للحواس إليها من سبيل.. فحملوا عقولهم من هذه المهمة الثانية أعباء تتجاوز طاقتها، وعادوا من جهودهم المعرفية بأخيلة وأوهام لا سند لها ولا دليل عليها.

ثم إن الفلاسفة المسلمين صححوا الخطأ وقوموا المنهج، عندما قرروا أن السبيل إلى إدراك الحقائق الغيبية إنما هو النقل أولاً والعقل ثانياً.. ومستند النقل إنما هو الخبر الصادق الموصل إلينا بالتواتر.. وهو كتاب الله عز وجل والمتواتر من صحاح السنة، أما العقل فهو الأداة التي لا بد من الاعتماد عليها في فهم كل شيء، أياً كان مصدره، وأياً كان نوعه: أي حسياً خاضعاً للتجربة أو غيبياً خاضعاً للنقل.

وفي كل الأحوال لا بد من الاحتكام إلى المنهج القرآني القائل: «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» (الإسراء:٣٦). ✍

...

فهرس بأسماء مراجع البحث:

- وليم جيمس: إرادة الاعتقاد.
داروين: أصل الأنواع.
- جون ديوي: البحث عن اليقين.
- برتراند رسل: سيرتي الذاتية.
- محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية.
- محمد سعيد رمضان البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن.
- انجلز: الثنى لوحرنغ

صحافة المتاعب في فلسطين

عبد القادر ياسين

لم تكن الصحافة العربية الفلسطينية، تحت الاحتلال البريطاني (١٩١٨ - ١٩٤٨) السلطة الرابعة، بل رزحت تحت نير السلطات الثلاث (التنفيذية، والتشريعية، والقضائية). بيد أن هذا لم يكن المبرر الأساسي للدكتورة عايدة النجار من أجل دراسة صحف تلك الحقبة. بل ثمة مبرر أهم مؤداه ضياع مجلدات صحف حقبة الاحتلال البريطاني في فلسطين، ضمن ما ضاع مع النكبة الفلسطينية (١٩٤٨). بيد أن المؤلفة تجاوزت هذا الاستعصاء، بما وفرته لها وظيفتها في الأمم المتحدة من فرص للسفر والتنقل، بما أتاح لها الاطلاع على المصادر الأصلية (الدوريات) في المكتبات العامة في أركان الأرض الأربعة.

لقد استقوت المؤلفة، في دراستها الموسوعية «صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن (١٩٠٠ - ١٩٤٨)»، بالمبرر نفسه الذي سبق لكاتب هذه السطور أن ساقه في تصديره لكتابه «الصحافة والحياة السياسية في فلسطين (١٩٠٧ - ١٩٤٨)»، قبل خمسة عشر عاماً من صدور كتاب النجار. حيث أفاد هذا المبرر أن الدراسات السابقة انتزعت الصحافة العربية في فلسطين من السياق الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والثقافي، والقانوني لفلسطين، «الأمر الذي أظهر الحركة الصحافية وكأنها هبطت من السماء في مظلة». كما أخذت النجار على الدراسات السابقة عن الصحافة العربية في فلسطين أنها لم تف الصحافيين والكتاب حقهم.

معروف أنه منذ أواسط التاسع عشر استجدت جملة من التطورات في مجالات عدة، مهدت السبيل لظهور الصحافة في فلسطين، بعد أن تلقت العلاقات شبه الإقطاعية ضربات قاصمة متلاحقة، ما نقل البلاد إلى أعتاب الرأسمالية، وأخذت المصانع الآلية في الانتشار بالبلاد، وفي كنفها ولدت المطابع، القابلة الحقيقية للصحافة، فضلاً عما رافقها وتلاها من تداعيات ثقافية وتشريعية إيجابية.

خيراً فعلت النجار حين لم تؤرخ للصحافة العربية في فلسطين منذ العام ١٨٧٦، حين أصدرت السلطات العثمانية نشرتين في فلسطين، هما: «القدس الشريف»، و«الغزال»، لكونهما نشرتين أولاً، ولاقتصارهما على نشر الفرمانات والأوامر الحكومية، دون الأجناس الصحافية، ثانياً. لذا بدأت المؤلفة من سنة ١٩٠٧، تاريخ صدور أول صحيفة عربية في فلسطين (الترقي)، وقد أسسها وترأس تحريرها عادل جبر.

لقد غطى الكتاب ٥٤٣ صفحة من القطع الكبير، خصصت ٣٥٤ صفحة منها للفصول التسعة، والباقي للملاحق الضرورية على أنني لا أدري لماذا جعلت المؤلفة من المدخل فصلاً أول كذلك؟! وقد خصصته للحديث عن «وضع فلسطين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً». وفيه أظهرت النجار كيف أن الحركة الصهيونية ظلت على أجندة العرب، وصحافتهم، منذ تنبهوا لخطرها (ص٣٦)، ما جعل الصحافة العربية الفلسطينية رائدة في رفض الصهيونية، منذ ما قبل الانتداب البريطاني. وحتى في مصر فإن جريدة «المقطم» فتحت صفحاتها للصهاينة، كي يردوا على جريدة «الأهرام». وفي فلسطين أنشأ الصهاينة جريدة «السلام»، وأسندوا رئاسة تحريرها إلى نسيم ملول، مراسل «المقطم» في يافا (ص٤١). فيما استمرت صحيفتا «الكرمل» في حيفا، و«فلسطين» في يافا، في فضح الصهيونية، بعد أن عاودت هاتان الصحيفتان الصدور، تحت الانتداب البريطاني، كي تنخرط في الحركة الوطنية الفلسطينية (ص٤٤).

معروف أن كلا من «اتفاق سايكس - بيكو» لاقتسام المشرق العربي بين فرنسا وإنجلترا، فضلاً عن «وعد بلفور» قد جاءا في غياب الصحافة العربية في فلسطين، بفعل الحرب العالمية الأولى. وإن نشرت «المقطم» خبراً عن ذاك الوعد.

مع غياب الصحافة العربية الفلسطينية، وتعثر وصول صحف من الخارج، خلال سني الحرب العالمية الأولى، استمرت حركة المثقفين والسياسيين، في ظروف جديدة، تبلورت فيها الهوية الفلسطينية، واتضحت فيها التحديات الوطنية. فبعد الصدمة من أعمال الغدر البريطانية المتتالية، تنامت وسيلة اتصال جديدة، ربطت القيادات السياسية بالجماهير، عن طريق تأسيس جمعيات وأندية ثقافية وسياسية (ص٥٩). وتمكنت المؤسسة السياسية للشعب العربي الفلسطيني، وأعني بها «الجمعيات الإسلامية المسيحية»، من عقد مؤتمرها الأول، في القدس (١٩١٩/١٢/٢٥)، الذي رفض «وعد بلفور»، والهجرة اليهودية إلى فلسطين، واحتلالها من قبل بريطانيا. فيما أصر المؤتمر على اعتبار فلسطين جزءاً من الولايات العربية، وانتهى إلى الدعوة لاستقلال فلسطين وتعززت رغبة العرب الموحدة، عندما انعقد «المؤتمر السوري الأول» للعرب في دمشق، في الأسبوع الأول من يوليو/ تموز ١٩١٩، وضم ممثلين من سوريا، ولبنان، وفلسطين (٦٤ - ٦٥).

في الوقت الذي أصدر السياسيون الصحف لتكون منبراً وطنياً، بعد الاحتلال البريطاني، انضم إليهم، بفضل هذا الموازع، عدد من المربين، والأدباء المبدعين، لإعلاء شأن اللغة العربية، والأدب. أما أهم المجلات الأدبية، فكانت «النفائس العصرية»، التي أسسها خليل بيدس (١٩٠٨ - ١٩١٤، ١٩١٩ - ١٩٢٤)، فضلاً عن مجلة «المنهل» لمحمد موسى المغربي.

عن «الانتداب البريطاني والواقع الجديد للفلسطينيين والصحافة (١٩٢٠ - ١٩٢٩)» كان الفصل الثاني الذي بدأ بالحديث عن صدور قرار دولي، قضى بانتداب بريطانيا على فلسطين، في



الدكتورة عايدة النجار
صحافة فلسطين
والحركة الوطنية في نصف قرن
1948-1900

صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن
(١٩٠٠ - ١٩٤٨)
عايدة النجار
بيروت - عمان: مؤسسة الدراسات العربية، ٢٠٠٥

مؤتمر لندن (٢١/٢/١٩٢٠). سرعان ما صادق عليه مؤتمر سان ريمو (٢٥/٤/١٩٢٠)، وبموجبه غدت بريطانيا مسؤولة عن تنفيذ «وعد بلفور» واعتمدت «عصبة الامم» هذا الانتداب في ٢٤/٧/١٩٢٢، وعمدت بريطانيا إلى إقامة بنية تحتية، لتساعدها على الحكم، والوصول إلى شتى المناطق، بسهولة (ص٦٩).

في المجال الصحافي، ما أن انتهى الحكم العسكري البريطاني لفلسطين، حتى شهد الربع الأخير من عام ١٩١٩ ظهور أربع صحف، فيما عادت صحف قديمة إلى الصدور (ص٧٥).

كعادتها استغلت سلطات الانتداب بعض الصحف، وأهمها «لسان العرب» التي استقدمت لها صحفيا من لبنان، و أطلق عليها عرب فلسطين اسم «لسان العقرب» إلى جانب «مرآة الشرق» ورئيس تحريرها عربي فلسطيني (ص ٩٢). وذلك في موازاة تأسيس «الحزب الوطني» في يونيو/ حزيران ١٩٢٣، برئاسة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي الذي أسس، سنة ١٩٣٢، جريدة «الجامعة الإسلامية». وتقول النجار إن «الحزب الوطني» قام «بتشجيع من السلطات البريطانية» ونادى بسياسة «خذ وطالب». بينما الحقيقة أن مدير الإدارة العربية في «الوكالة اليهودية»، كالفاريسكي، هو صاحب فكرة هذا الحزب، وممول؛ ما جعل هذا الحزب بلا مستقبل. وفي السنة ذاتها تشكل «حزب الزراع» في سبيل توسيع الهوة بين القرية والمدينة العربيتين الفلسطينيتين. لكنه لم يكن أسعد حظًا من «الوطني» (ص ٩٣). وقد استغلت «الوكالة اليهودية» ركود الحركة الوطنية الفلسطينية لتزرع الوكالة هذين الحزبين. الأمر الذي لم تشر إليه النجار.

انبرت الصحف للتنبيه إلى الأراضي، التي بدأت تتسرب من أيدي الفلاحين.

صحيح أن الصحافة تماهت مع الحركة الوطنية، لكن حدث، أحيانًا، أن تقدمت الأولى على الثانية، ففي أوج احتدام الخلافات داخل الحركة الوطنية، اجتمع تسعة رؤساء تحرير للصحف، هم: علي ناصر الدين (المنير)، نجيب نصار (الكرمل)، عيسى العيسى (فلسطين)، بولس شحادة (مرآة الشرق)، خليل نصر (الأردن)، عيسى البندك (صوت الشعب)، حسني فهمي الدجاني (الجزيرة)، إيليا زكا (النفير)، وجميل البحري (الزهرة)، فيما بين ٨ و ٩/٦/١٩٢٤؛ بهدف إيجاد حل يوفق بين آراء الصحف أو الهيئات السياسية، وانتهى المجتمعون إلى ميثاق شرف؛ قضى بأن تكون الصحافة للمصلحة العامة، وألا تنزلق إلى المطاعن الشخصية، مع التنديد بحزب الزراع؛ لخروجه على الإجماع الوطني على شجب «وعد بلفور»، فضلا عن دعوة الميثاق إلى مقاومة النعرات الطائفية، وإلى المصالحة الوطنية، وإن لم تنجح هذه الدعوة، لامتناع «الوطني» و«الزراع» عن الاستجابة (ص ٩٨). وكأن القيادة التقليدية للحركة الوطنية فقدت الاتجاه، فمالت لمهاودة الثورة المضادة!

في سياق مواقفها الوطنية، نددت الصحافة بزيارة لورد بلفور إلى القدس، من اجل افتتاح «الجامعة العبرية» (٢٥ ـ ٢٨/٣/١٩٢٥)، وبزيارة وزير المستعمرات البريطاني، مستر إمري، (١٦/٤/١٩٢٥) (١٠٠ ـ ١٠٧).

لكن بعض الصحف اتخذت مواقف سلبية إزاء معركة انتخابات «المجلس الإسلامي الأعلى»، فقد خاض الشيخ عبدالله القلقيلي، عبر صفحات جريدته «الصراط المستقيم» معركة ضارية ضد المجلس، وفي المقابل نشطت صحافة «المجلسيين» ضد «المعارضين» ما وفر سانحة للصحافة العبرية لتوجيه سهام نقدها، وبذا تمكنت سلطات الانتداب من تحقيق سياستها «فرق تسد». ولم يكن الحال أحسن في الانتخابات البلدية، بعد سنتين، ناهيك عن تورط بعض الصحف في إثارة النعرات الطائفية (١٠٧ ـ ١١٣).

لم تنعزل فلسطين، قط، عن جوارها. ومن بيروت جاء صوت المفكر الوطني اللبناني المرموق، أمين الريحاني، منتقدا المتحزبين من الصحافيين، فرأيه «المبدأ الجوهري هو مقاومة الصهيونية». ورد منيف الحسيني، في جريدة «الجامعة العربية» بأن «الاختلاف، أيها السيد، إنما يقوم على المبادئ القومية، ولا اختلاف عائليا هناك»! كما تدخل عرب آخرون، من بينهم الرمز السياسي السوري، إحسان الجابري، بعد أن اخفق الفلسطينيون في التصافي، في مؤتمر وادي حنين (١٤/١٠/١٩٢٧).

هنا عمد الصحافيون إلى التدخل الإيجابي، فعقدوا مؤتمرا، في يافا، استمر ثلاثة أيام (١٢ ـ ١٤/١١/١٩٢٧)، وحضره ممثلون عن صحف «الكرمل» و«فلسطين»، «مرآة الشرق»، «صوت الشعب»، «اليرموك»، «الجامعة العربية»، «الصراط المستقيم»، «صوت الحق»، «الزهرة»، ودعا المجتمعون إلى «جمع كلمة الأمة، وتسهيل عقد مؤتمر وطني عام، يمثل آراء الأمة». وحث الصحافيون على ضرورة «تبادل الاحترام وعلى اختلاف الآراء»، وتوالت المحاولات، حتى أفضت إلى انعقاد المؤتمر الفلسطيني السابع (٢٠ ـ ٢١/٦/١٩٢٨) بعد انقطاع دام ست سنوات!

حين داهمت الأزمة الاقتصادية (١٩٢٨) مبكرة سنة كاملة عن غيرها من بلاد العالم، أرجعت الصحافة الفلسطينية هذه الأزمة إلى السياسة البريطانية ـ الصهيونية، التي ابتلعت الأرض، فوسعت دائرة المعدمين من الفلاحين، والعاطلين من العمال العرب، ودعت الصحافة إلى تشكيل نقابات عمالية، كما حذرت من تنامي التحالف البريطاني ـ الصهيوني.

باندلاع هبة البراق، صيف ١٩٢٩، انتهت مرحلة، وبدأت أخرى في حياة الحركة الوطنية والصحافة في فلسطين (١٢٤ ـ ١٣٧).

حمل الفصل الثالث عنوان «الصحافة الحزبية الملتزمة والصحافيون الشجعان (١٩٣٠ ـ ١٩٣٩)» ويرصد مدى انعكاس انتعاش الحركة الوطنية، ووحدتها في وجه الانتداب والصهيونية، إيجابيا، على الصحافة، التي وثقت الأحداث والبطولات الشخصية والشعبية، في هذه المرحلة، كما شكلت تلك الأحداث مادة غنية للصحافة، ما عزز دورها، ومن جهة أخرى عاقب الانتداب الصحافة على دورها الوطني، وعلى مدى عشر صفحات غطت المؤلفة قيام الأحزاب، وتأسيس صحفها، ما بين سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٥ (ص ١٤٩ ـ ١٥٩).

بعد أن وصلت الأخبار عن فشل الوفد الفلسطيني الثالث إلى حكومة لندن، غضبت الصحافة، غضبا مضمخا بالإحباط، والإصرار على مواصلة محاربة الانتداب والصهيونية، ونداء للعرب والعالم للمساعدة.

> **لم يقل الدور القيادي للصحافيين عن دور الزعماء السياسيين، ما دفع الانتداب إلى تطبيق «قانون منع الجرائم» على الصحافة (١٩٣٠). فقرر خمسة من أصحاب الصحف الاضراب، لمدة أسبوع، احتجاجا**

لم يقل الدور القيادي للصحافيين عن دور الزعماء السياسيين، ما دفع الانتداب إلى تطبيق «قانون منع الجرائم» على الصحافة (١٩٣٠). فقرر خمسة من أصحاب الصحف الإضراب، لمدة أسبوع، احتجاجا، فيما بين ١٠ و١٧/٨/١٩٣١، ثم عقدوا مؤتمرا صحفيا، في يافا، في ١٨/٩/١٩٣١، تحدوا فيه «الانتداب» الذي «رد بسن «قانون المطبوعات» سيئ الذكر، غير مكتف بـ«قانون الطوارئ»، ثم توالت التعديلات الأكثر جورا على «قانون المطبوعات»»!

لقد اهتمت الصحافة بأخبار «انتفاضة خريف ١٩٣٣»، فطالب «المندوب السامي البريطاني من الصحافيين استعمال صحفهم «لتهدئة الناس، واحترام النظام، وخلق روح الأمان في شتى انحاء البلاد»».

تجمعت السحب منذرة بالعاصفة، وانعقد اجتماع نابلس الغاضب الكبير (١٢/١١/١٩٣٥)، بمجرد انكشاف كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر مرسلة للصهاينة، عبر ميناء يافا، مخبأة في صناديق للأسمنت، من بلجيكا، أضربت البلاد، في ٢٦/١٠، إضرابا شاملا، عن نظيره، وفي ١٣/١١ صدرت الصحف حافلة بأنباء عزم البلاد على الإضراب.

هنا توفرت «اللحظة الثورية»، فاندلعت حركة القسام الثورية (٩/١١/٣٥)، التي وصفتها الصحافة الوطنية بـ «ثورة الفلاحين»، وتكتل الشباب، مطالبين بمواصلة التحريض السياسي، وعدم التعاون مع السلطات، والامتناع عن دفع الضرائب، وتنظيم المظاهرات، والإعداد لمؤتمر وطني عام، والتحضير للمواجهة.

صباح ٢٠/١١ نشرت الصحافة أخبار معركة يعبد، وأبن الكتاب وبعض الزعماء الشهيد القسام، ومن بينهم سليمان التاجي الفاروقي، وأكرم زعيتر، وحمدي الحسيني، وصبحي الخضرا، وعجاج نويهض، وإبراهيم الشنطي، ومن الثاني إلى السادس هم من قادة «حزب الاستقلال».

عن «صحافة المرحلة الأولى من الثورة» كان الفصل الرابع، حيث صمدت الصحافة الوطنية في وجه عسف الانتداب، كما تطورت، مهنيا، في النوع، والمضمون،

والأساليب في استقصاء الأخبار، بسبب التحسن الذي طرأ على وسائل الاتصال، وتم الاعتماد على وكالات الأنباء العالمية، ومندوبي الصحف نفسها.

منذ ١٩٣٦/٤/١٥ بدأت أعمال قتل، وردود فعل متبادلة بين عرب فلسطين وصهاينتها، توجت بإضراب سياسي عام في القطاع العربي، منذ ٤/٢٠. وبعد خمسة أيام اجتمعت قيادات الأحزاب، وقررت الإضراب العام، في تخلف ملحوظ عن حركة الجماهير!

أسهمت الرسائل الإعلامية في إنجاح الإضراب، ولعل أجمل مثال على روح التضامن الشعبي ما قام به تجار حي الياسمين في نابلس، إذ جمعوا مفاتيح دكاكينهم، وربطوها بحبل، وقدموها للجنة الإضراب، «إلى أن يفك الإضراب»!

التزمت الصحافة بالأجندة الوطنية، إلى أن كان إضراب الصحافيين (٢٨، ٣٠/ ٣٦/٥)، بعد أن غطت الصحافة «مؤتمر اللجان القومية» الذي انعقد في القدس (٥/٧)، وشنت حملة للدفاع عن الفلاح.

لم تخل جريدة واحدة من اللغة الاستشهادية الحماسية، كتبت «فلسطين»: «إننا قوم احترف التضحية»! وفي طبعتها الإنجليزية قالت: «إضراب أمة من أجل حياة وشرف»! (ص٢١٥).

منذ أغسطس/ آب ١٩٣٦ أخذت الصحافة تكتب تفاصيل وساطة ملوك العرب وأمرائهم، لوقف الإضراب والثورة، معاً! كما رحبت الصحافة بوصول ابن طرابلس الشام فوزي القاوقجي من العراق إلى فلسطين، على رأس بضع مئات من المتطوعين العرب المسلحين، وتسلمه القيادة العسكرية للثورة.

في المقابل ارتفع منسوب القمع للقيادات الشعبية، والزعامات التقليدية، والصحافيين، على حد سواء.

انتقدت الصحافة زعماء فلسطين، فضلاً عن ملوك العرب وأمرائهم، «لأن علاقتهم جيدة مع الإنجليز»! وفي عمان صارح رؤساء تحرير الصحف الفلسطينية أمير شرق الأردن، عبدالله بن الحسين، بعدم تمكنهم إيقاف الإضراب: «إلا إذا أوقفت الهجرة اليهودية» (ص٢١٨).

في ٣٦/١٠/١١ نشرت الصحافة الفلسطينية نداء الملوك والأمراء العرب، إلى «أبنائنا عرب فلسطين» بإنهاء الإضراب، «معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل». وفي اليوم التالي نشرت الصحف نفسها بيان «اللجنة العربية العليا» الذي تغنى «بعظيم الفائدة، التي تنجم عن «توسط الملوك والأمراء» ومؤازرتهم! (ص٢٢٠).

هذه «لجنة بيل» الملكية البريطانية تؤكد في تقريرها «أن العقاب المتخذ ضد الصحافة، غير كاف لإسكات الصحافة المحرضة الشريرة»! وقد سجنت سلطات الانتداب خمسة صحفيين، وصادرت «الصحف، جميعها، بين ٢ - ٩/٨، لنشرها «مقالات تحريضية». وعلى مدى أشهر الإضراب الستة، صودرت الصحف ٢٤ مرة، وأنذرت ١١ مرة. مقابل مصادرة الصحف اليهودية مجرد ١٣ مرة. وخلال الشهرين التاليين للإضراب أقفلت ٩ صحف، مقابل صحيفة يهودية فقط، ومنع دخول ٧ صحف أجنبية، وكتاب واحد، لمساندتها الثوار.

لقد صودرت «الجامعة الإسلامية» ٥ مرات، ما بين ٥/٢٢، ١٩٣٦/١٠/١١، أما «فلسطين» فتم تعطيلها ٨ مرات، ما بين مايو/ أيار وديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٦، (ص ٢٢٤، ٢٢٥)، وهما الصحيفتان المعارضتان!

تجددت الثورة، بمجرد صدور تقرير «لجنة بيل» (١٩٣٧/٧/٧)، الذي أوصى بتقسيم فلسطين. وعن هذه المرحلة الثانية من الثورة جاء الفصل الخامس، حيث لم تكتف فلسطين بما لديها من الصحف، فعززتها بست صحف أخرى.

قررت حكومة لندن السماح بمزيد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فقررت «اللجنة العربية العليا» عدم التعاون مع «لجنة بيل»، وانقسمت الصحافة، على غرار القيادة السياسية، حول «عدم التعاون». واستجد أسلوب الاغتيال السياسي.

ورحبت الصحافة بالمؤتمرات العربية التي انعقدت لنصرة فلسطين في ثورتها، مثل «مؤتمر بلودان» (٣٧/٩/٨)، و«المؤتمر البرلماني العالمي للبلاد العربية والإسلامية» و«المؤتمر النسائي الشرقي» (القاهرة - أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٨).

أولت الصحف مقتل حاكم الجليل ل. ي. أندروز (٣٧/٩/٢٥) اهتماماً ملحوظاً. وبعده ألقت سلطات الانتداب القبض على مئات من الثوار والزعماء. ومع وصول الثورة إلى صيف ١٩٣٨، غدت لغة الصحافة أكثر ثورية، وكأنها أحد أسلحة الثوار. ونشرت الصحافة بيان «ديوان الثورة» بطلب ارتداء الكوفية والعقال، بدل الطربوش، الأمر الذي تحقق على نحو شبه كامل، ما عكس مدى تمتع الثورة بالنفوذ والتأييد الشعبيين.

خلال سنتي ٣٧ و١٩٣٨، تم إيقاف ١٢ صحيفة عربية فلسطينية، مدداً بلغ مجموعها ٥٢ شهراً، مقابل وقف ٤ صحف يهودية لأسابيع فقط.

في الفصل السادس تم رصد تهاوي الصحافة مع انطفاء جذوة الثورة، ولم يبق في الساحة سوى صحف «فلسطين» و«الدفاع» و«الصراط المستقيم» الأقرب إلى المعارضين، الذين تقدمتهم عائلة النشاشيبي، في مواجهة «المجلسيين» بزعامة عائلة الحسيني.

مهنة المتاعب في فلسطين



ولا أدري ما مبرر تخصيص الفصل السابع، بعنوان «دار الإذاعة الفلسطينية/ وسيلة اتصال جماهيرية جديدة»، والتي أسستها سلطات الانتداب في سنة ١٩٣٦، واجتذبت أدباء، وكتاباً مرموقين، كما ناقشت الإذاعة الصحافة الأدبية، في مرحلة الركود السياسي.

ما كان لصحافة تتصدى وتواجه الانتداب والصهيونية، إلا أن تتسبب في محاولات محمومة لتكتم صوت الفلسطينيين، فكان الفصل الثامن عن «آليات القمع وقوانين الصحافة والمطبوعات تحت الانتداب البريطاني (٢٠ - ١٩٤٨)»، والتي بدأت بإنشاء «مكتب المطبوعات»، وتخصيص باب «الجرائم التحريضية» في «القانون الجنائي». فقانون المطبوعات لعام ١٩٣٣، والتعديلات المتوالية عليه، كما أجريت ترتيبات مع السلطات البريطانية في كل من مصر، والعراق، والأردن، لمراقبة مواد أي صحيفة تعالج المسألة الفلسطينية، واكتشف الانتداب أن «الصحف لن تفقد قوتها في دعوى قضائية، حسب تقارير «المطبوعات» المتوالية.

رغم كل هذه المعاناة، استمر تطور الصحافة، من حيث العدد، والنوع، والمستوى التقني، وعاد ذلك إلى الارتفاع النسبي في التعليم، وغدا المحررون يكتبون بمستوى فكري أعلى، ما أفضى إلى انتقادات لسياسة الانتداب.

ختمت النجار كتابها بفصل تاسع عن الحركة الوطنية والصحافة «ما بين سنتي ١٩٤٠ - ١٩٤٨، حيث تمددت الصحافة الأدبية، بسبب ركود الحركة الوطنية، وإنشاء دار الإذاعة، وعملت الصحافة على إحياء الروح القومية العربية، ورفع المعنويات، ومتابعة عرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة، وما كان من انقسام القيادة السياسية الفلسطينية، وعكست الصحافة مقدمات الحرب العربية - الصهيونية الأولى، كما غطت مذبحة دير ياسين (١٩٤٨/٤/٩)، وبعدها كان النزوح، فالنكبة.

وبعد، فهذا هو الكتاب السادس الذي غطى الصحافة العربية في فلسطين حتى نكبة ١٩٤٨، وأولها الكتاب الرائد لأحمد خليل العقاد «الصحافة العربية في فلسطين، عمان، ١٩٦٧»، وثاني الكتب ليعقوب يهوشع «تاريخ الصحافة العربية في فلسطين» بأجزائه الثلاثة (١٩٧٤، ١٩٨٣، ١٩٨٤)، فيما كان الكتاب الثالث ليوسف ف. خوري «الصحافة العربية في فلسطين (١٨٧٦ - ١٩٤٨)» (١٩٧٦). وإن اكتفت هذه الكتب بمجرد رصد ظهور الصحف، دون الإطار المجتمعي لهذا الصدور، بل دون ربط هذه الصحف بالحركة السياسية الفلسطينية.

فيما أصدر محمد سليمان رابع هذه الكتب «تاريخ الصحافة الفلسطينية (١٨٨٦ - ١٩٧٦)، نيقوسيا، ١٩٨٧» الذي تميز عن سابقيه أولاً بتجاوز المدى الزمني، ثانياً بالاستناد إلى الأساس السياسي لظهور الصحافة الفلسطينية، وإن أهمل الأساس الاقتصادي، الاجتماعي، والثقافي، والقانوني. الأمر الذي غطاه كاتب هذه السطور مرتين (١٩٩٠)، الأولى في كتاب، والثانية في دراسة أكاديمية واسعة، تضمنتها «الموسوعة الفلسطينية» في قسمها الثاني، المخصص للدراسات الخاصة، الأمر الذي لم تستعن به النجار، فيما استعانت بدراسة صغيرة لي، نشرت في شهرية «شئون فلسطينية»، قبل نحو ثلاثين سنة، عن الصحافة السرية، التي عملت بها غداة حرب ١٩٦٧، وهي خارج نطاق موضوع النجار، ومداه الزمني!

فيما عدا الأخطاء المطبعية، التي ما كان يجب أن تكون ودار النشر في المدينة التي تقيم فيها المؤلفة (عمان)، فضلاً عن إصرار النجار على استخدام مفردة «الاضطرابات» التي صكها الاستعماريون، وأطلقوها على التحركات الثورية لشعوب المستعمرات، في سبيل تشويه هذه التحركات. وبينما لم تظهر أول صحيفة عربية في فلسطين إلا سنة ١٩٠٧، فإن اعتماد المؤلفة سنة ١٩٠٠ بداية لمدى دراستها الزمني، غدا غير مبرر.

على أنه ما كان لمثل هذه الهنات الهينات أن تقلل من القيمة التاريخية، والفكرية لهذا السفر الأكاديمي الموسوعي، الذي أضاف الكثير إلى موضوعه، بعد أن نجحت المؤلفة في تضفير الصحافة بالحركة الوطنية، في حرفية عالية.



كمبيوتر لكل ٤ طلاب في كوريا

●● فجأة تسمع صراخاً وعويلاً صادراً من طفل يتلوى ويتقلب بين أيدي والديه، والطبيب يحاول تهدئته قائلاً: لو تحليت بالهدوء والسكينة فسوف تكون طفلاً جيداً وسينتهي الأمر بسرعة دون ألم. ثم يبدأ الطبيب في إجراء الجراحة وهي عملية في لسان الطفل لتحسين قدرته على نطق حروف اللغة الإنجليزية بشكل سليم.

وقد عرض لهذه المناظر برنامج وثائقي بعنوان «ربط اللسان» بثته إحدى قنوات التليفزيون الكوري الجنوبي قبل شهور ليكشف عن حالة فريدة من الهوس بين الكوريين لتعليم أبنائهم اللغة الإنجليزية. ورغم أن عديداً من الآباء الكوريين الذين التقيتهم قالوا لي إن مثل هذه الجراحات نادرة، إلا أن الدكتور كيم سونج هيي الباحث في العلاقات الاقتصادية الدولية والحاصل على درجة الدكتوراة من جامعة بنسلفانيا الأمريكية أبلغني بأن هناك اعتقاداً لدى الكوريين بأن هناك عيباً ما في لسان الطفل الكوري يجعله غير قادر على نطق حرفي «L» و«R» في اللغة الإنجليزية بشكل سليم، الأمر الذي يستدعي إجراء جراحة للتخلص من هذا العيب.

لكن الدكتور نوود كونج من أحد المتخصصين في علم نفس الأطفال في كوريا الجنوبية يقول إن المسألة لا علاقة لها إطلاقاً باللسان، لكنها ترتبط برغبة عميقة لدى الآباء لتعليم أبنائهم اللغة الإنجليزية باعتبارها «المفتاح» للتعامل مع العالم. ويشير إلى أن هذا الهوس باللغة الإنجليزية يبدأ خلال فترة حمل الأم بالطفل، إذ يتم عزف أنواع معينة من المقطوعات الموسيقية لمؤلفين إنجليز أو أمريكيين للطفل وهو في رحم أمه وعندما يبلغ الطفل عاماً من عمره يأتي الآباء بمعلمين خصوصيين لترديد الكلمات الإنجليزية أمامه، ومحاولة جعلها معتادة بالنسبة له، ثم يرسل الأطفال في عمر ٤ أو ٥ سنوات إلى الحضانة التي تعلمهم اللغة الإنجليزية مقابل ما يعادل ألف دولار في الشهر، بل إن بعض الآباء يرسلون أولادهم في سن الخامسة أو السادسة إلى الولايات المتحدة حيث يقضون عدة سنوات لكي يتعلموا اللغة الإنجليزية هنالك.

وقد أبلغني الدكتور سونج جيون باني مدير قسم تخطيط السياسات والتنسيق بوزارة التعليم وتنمية الموارد البشرية في كوريا الجنوبية بأنه أرسل نجله إلى الولايات المتحدة في عمر ٦ سنوات لتعلم الإنجليزية، حيث قضى ٤ سنوات. وأشار إلى أن الأم تذهب في الغالب مع الطفل إلى الولايات المتحدة، بينما يظل الأب في كوريا لكي يستطيع توفير الأموال اللازمة وإرسالها إلى أمريكا. وفي حالات أخرى يذهب الطفل بمفرده إلى الولايات المتحدة حيث يعيش في مدرسة داخلية.

وتكشف الإحصاءات أن ٩٠٪ من الأطفال في كوريا الجنوبية يذهبون إلى مدارس تدعى باللغة الكورية هاجوانز Hagwons، وهي مدارس خاصة يدرس فيها التلاميذ مواد الحساب والعلوم باللغة الإنجليزية. ويتجاوز حجم الأموال التي تنفقها الأسر الكورية على هذه المدارس الخاصة إجمالي ميزانية التعليم الكورية.

ويرتبط بظاهرة الهوس بتعلم اللغة الإنجليزية في كوريا الجنوبية نوع جديد من المدارس يدعى «القرية الإنجليزية» بدأ ينتشر في بعض مقاطعات البلاد، وهو يقوم على فكرة أساسية مفادها أن تعليم اللغة الإنجليزية من خلال الدروس المدرسية وحدها ليس كافياً، بل لابد أن يعيش الطفل في جو إنجليزي، أي أن تتاح له الفرصة لممارسة أمور واكتساب مهارات اجتماعية من خلال وجوده في مكان كل ما فيه ناطق باللغة الإنجليزية ابتداء من أسماء المطاعم وكلها تحمل الطابع الأمريكي أو البريطاني والمدرسين القادمين من دول تتحدث شعوبها الإنجليزية وليس نهاية بالمواد التي يدرسها التلاميذ. وهي مواد ليست في المناهج التعليمية، بل عبارة عن دروس في الدراما والإبداع وإلقاء الخطب والموسيقى والطهي. ويقول جيفري جونز الأمريكي الجنسية ورئيس المدرسة: إن المدرسة تستهدف تحسين قدرة الأطفال على الاتصال الإنساني، ومحاولة تخليص هؤلاء الأطفال من الخجل الذي يتصف به الكوريون عادة. كما أن المدرسة تعمل على إقناع التلاميذ بأنه ليس هناك نطق واحد للإنجليزية وأن من المهم أن يعبروا عن أنفسهم بصورة واضحة.

ويستطرد جونز قائلاً: إن المدرسة تحاول خلق تأثير نفسي على التلميذ من خلال إشعاره لدى دخوله القرية بأنه خرج من كوريا ودخل بلداً آخر ناطقاً بالإنجليزية، فالمكان أي المدرسة مختلف في كل شيء عن خارجه سواء في طراز المباني أو نوعية الطعام المقدمة أو الدروس التي يدرسها التلاميذ.

وتعتمد الدراسة في القرية الإنجليزية على نظام البرامج الدراسية، فهناك برنامج لمدة يومين وآخر لمدة أسبوع وثالث لمدة أسبوعين وهي كلها تستهدف خلق نوع من الألفة بين التلميذ واللغة الإنجليزية وإشعاره بأنه يمكنه أن يتحدث هذه اللغة بسهولة ويتمكن دون عناء كبير.

ولأن تكاليف تلك المدرسة باهظة، فإن المقاطعات تساهم بحوالي ٧٥٪ من التكاليف على أن تدفع الأسر الباقي. وقد وجد بعض حكام المقاطعات أن التكاليف عالية ومن الصعب على المقاطعات

Education in Korea
2005 - 2006
(التعليم في كوريا)
Ministry of Eduction
Republic of Korea

Brief Statistics on Korean
Education
(إحصاءات حول التعليم الكوري)
Korean Educational Development
Institute

تحقيق من كوريا

عبد الله عبد السلام

التعليم دين الشرق الأقصى الجديد!

فلسفة التعليم فى كوريا الجنوبية لم تعد تركز على إعداد السوق المحلية فقط بما تحتاجه من كفاءات بل على جعل الشباب الكورى قادراً على التنافس مع خريجى الجامعات العالمية والتفوق عليهم

الاستمرار فى تحملها ولذلك يدرسون حاليًا مشاركة القطاع الخاص فى العملية إلى أن ينتهى الأمر بتحمل هذا القطاع المسئولية كاملة.

الاهتمام باللغة الإنجليزية ليس سوى مجرد دليل واحد على هوس الكوريين بالتعليم بشكل عام بل إن بعض الباحثين يصفون هذا الشغف المبالغ فيه، بأنه أشبه بالمرض الاجتماعى، فالأسر لا تكتفى بتعليم أولادها فى المدارس الحكومية التى تقدم حسب اعتراف هذه الأسر تعليماً جيداً، لكنها ترسل هؤلاء الأبناء فى ساعات ما بعد الدراسة إلى مدارس خاصة هى أقرب للدروس الخصوصية فى مصر. وتعترف الحكومة الكورية بهذه المدارس التى يقضى فيها التلاميذ أوقاتًا طويلة قد تصل إلى ٧ ساعات يوميا.

ويقول الدكتور سونج جيون بانى إن هذه المدارس ترافق التلاميذ منذ بداية تعليمهم المدرسى وحتى الصف الثالث الثانوى وتكون مهمتها إعداد الطلاب للامتحانات وهى تشرح نفس المناهج التى يدرسها التلاميذ فى المدارس الحكومية، لكن المدرسين فيها يحاولون توضيح الأمور بشكل أفضل للتلاميذ. ويشير إلى أن الآباء ليسوا راضين بشكل كامل عن المدارس الحكومية وحتى لو كانوا راضين فإنهم يرغبون فى أن يحصل أولادهم على أفضل فرصة ممكنة لكى يحرزوا أعلى الدرجات فى الامتحانات.

ويعترف سونج قائلاً: رغم أننى مسئول فى وزارة التعليم، إلا أن أولادى يذهبون للمدارس الخاصة لأننى أريد لهم أن يدخلوا أفضل الجامعات. ويشير إلى أنه يدفع ما يعادل ٥٠٠ دولار فى الشهر لكل طفل.

وتطويراً للعمل الذى تقوم به المدارس الخاصة ظهرت عشرات المؤسسات التى تقدم ما تقدمه هذه المدارس ولكن عن طريق الإنترنت. وقد زرت إحدى هذه المؤسسات فى العاصمة سول وهى تدعى Megastudy وقد نشأت فى أكتوبر ٢٠٠٢، ولديها حوالى ١٢٠ مدرساً يقدمون الدروس فى شتى المواد التعليمية للتلاميذ وبشكل خاص فى المدارس الثانوية من خلال موقع على الإنترنت. وتقول سون أون جين مديرة التسويق بالمؤسسة أن هناك ما لا يقل عن ٥٠٠ محاضرة أو درس يمكن للتلميذ أن يختار منها ما يريد حسب تخصصه. وتشير إلى أن حوالى ٢٢٠ ألف تلميذ شاركوا فى هذه الدروس عام ٢٠٠٥. وتهدف هذه المدارس أو المؤسسات فى الأساس إلى إعداد التلميذ للامتحانات وخاصة تلك التى تسبق دخول الجامعات. وتقول سون أون جين إنه ليست هناك علاقة مباشرة بين التلميذ والمؤسسة Megastudy فإذا أراد التلميذ الاشتراك فى الدروس التى تقدمها فإن عليه أن يحول المبلغ المطلوب من خلال الإنترنت وعندها يمكنه الدخول على الموقع وإذا أراد الاستفسار عن سؤال ما فإنه يمكنه أن يرسله عن طريق الإنترنت ويتم الرد عليه خلال ٢٤ ساعة. وتشير أون جين إلى أن حوالى ١,٣ مليون تلميذ فى شتى أنحاء كوريا مشتركون فى دروس المؤسسات التعليمية الخاصة عن طريق الإنترنت.

وقد عرفت كوريا نظام التعليم الغربى الحديث لأول مرة فى القرن التاسع عشر على أيدى الإرساليات المسيحية والجمعيات الغربية التى أسست مدارس خاصة فى البلاد. وترافق دخول هذا النمط من التعليم إلى كوريا مع زيادة النفوذ اليابانى الذى بلغ الذروة باحتلال اليابان لشبه الجزيرة الكورية عام ١٩١٠. ورغم أن الكوريين يرفضون الحديث كثيراً عن أية «حسنات» للاحتلال اليابانى فإن بعض المؤرخين يقولون إن اليابان اهتمت كثيرا بالتعليم فى كوريا، الأمر الذى انعكس فى تراجع معدلات الأمية وقيام مؤسسات تعليمية عديدة فى شتى أنحاء البلاد.

وعقب تحرير البلاد من الاستعمار اليابانى جرى تقسيم شبه الجزيرة الكورية إلى دولتين هما جمهورية كوريا ودولة كوريا الشعبية الديمقراطية وكانت الأولى خاضعة للنفوذ الأمريكى والثانية للنفوذ الشيوعى السوفيتى، وأصدرت جمهورية كوريا (كوريا الجنوبية) عقب الاستقلال قانون التعليم الذى أعطى المقاطعات نوعًا من الاستقلالية فيما يتعلق بإدارة شئون التعليم، كما أنه جعل التعليم إلزاميًا ومجانيًا حتى نهاية المرحلة الإعدادية.

إلا أن الطفرة الكبيرة فى التعليم بكوريا الجنوبية حدثت مع التوسع الاقتصادى والصناعى الذى بدأ فى ستينيات القرن العشرين، حيث شهد التعليم ما قبل الجامعى توسعات غير مسبوقة فى إعداد المدارس، وكذلك أعداد التلاميذ الذين زادت الحاجة إليهم فى سوق العمل بعد التخرج. وقد تواصل هذا التوسع فى أعداد المدارس والتلاميذ ليصل عدد المدارس الابتدائية فى عام ٢٠٠٣ إلى حوالى ٥٤٦٤ مدرسة يتعلم فيها ٤ ملايين و١٧٥ ألف تلميذ ويقوم بالتدريس فيها ١٥٤ ألف مدرس، أما المدارس الإعدادية فإن عددها حسب إحصاء عام ٢٠٠٣ بلغ ٢٨٦٥ مدرسة يتعلم فيها مليون و٨٥٩ ألف تلميذ ويقوم بالتدريس فيها ٩٩ ألف مدرس، بينما يصل عدد المدارس الثانوية حسب نفس الإحصاء إلى ٢٠٩٥ مدرسة بها مليون و٧٨٧ ألف تلميذ و١١٦ ألف مدرس.

ولم يبدأ التطوير النوعى فى التعليم الكورى بشكل حقيقى وجدى سوى فى ثمانينيات القرن الماضى، فقد جرى النص بداية فى الدستور على الحاجة للتعليم مدى الحياة، وهو ما يعنى أن أهم وظيفة للتعليم هى إعداد الإنسان الكورى، لكى يكون قادرا على الابتكار والتجديد والتعامل مع المنجزات العلمية الحديثة



التعليم دين الشرق الأقصى الجديد!

طيلة حياته. وتحقيقاً لهذا الهدف جرى إدخال سلسلة من الإجراءات أهمها إنشاء شبكة إذاعية مخصصة بالكامل للتعليم وإدخال نظام ضرائبي يتم من خلاله فرض ضرائب محددة لصالح التعليم فقط، كما تم التخلص من النظام الذي يعطي الامتحانات القول الفصل في تحديد قدرة الطالب على دخول الجامعات وجرى إعطاء الأنشطة التي يقوم بها الطالب في المدارس الثانوية على مدى العام أهمية كبيرة في تحديد مستواه، وبالتالي تأهيله لدخول الجامعة.

وأنشأت الحكومة الكورية في عام ١٩٨٥ لجنة إصلاح التعليم التي آلت على نفسها إصلاح نظام التعليم وتحسين نظام الدخول للجامعات وتحسين المنشآت التعليمية وضمان وجود نوعية مميزة من المعلمين والارتقاء بالتعليم العلمي وتطوير المناهج وطرق التدريس وإعطاء المدارس والإدارات التعليمية مزيداً من الاستقلالية.

ويقول الدكتور سونج جيون باني مدير قسم تخطيط السياسات والتنسيق بوزارة التعليم وتنمية الموارد البشرية الكورية إن نظام التعليم الكوري مؤلف من ٦ سنوات للدراسة الابتدائية يسبقها عام واحد للحضانة ويشير إلى أن ٧٠٪ من التلاميذ يدخلون الحضانة. ويعد الابتدائية هناك ٣ سنوات للمرحلة الإعدادية. والتعليم في الابتدائي والإعدادي مجاني، ثم تأتي المرحلة الثانوية (٣ سنوات) والتي يتحمل فيها التلاميذ نفقات الدراسة، والدخول للتعليم الثانوي يكون اعتماداً على امتحانات محددة، إلا أن الدكتور باني يقول إن هناك أنظمة مختلفة للدخول إلى التعليم الثانوي لكنها جميعاً تستهدف تحقيق نوع من العدالة والمساواة بين التلاميذ، وكذلك المناطق المختلفة من البلاد.

ويشير إلى أن ٤٠٪ من الناجحين في المرحلة الإعدادية يدخلون المدارس الفنية الصناعية بأنواعها المختلفة بينما يدخل ٦٠٪ الثانوي العام. ويستطرد قائلاً: كلما اقترب الأمر من دخول الجامعات حدث نوع من الحرب الأهلية داخل الأسر: فالآباء والأمهات يبذلون مع أبنائهم جهوداً ضخمة لكي يتمكنوا من دخول أفضل الجامعات ولذلك تزداد الدروس الخصوصية وتخصص الأسرة كل وقتها تقريباً لمساعدة أبنائها على اجتياز هذه المرحلة. ويشير إلى أن هناك مناخاً اجتماعياً عاماً ربما يكون سببه الثقافة الكورية التي تعطي أهمية كبيرة للتعليم، فهناك خشية من جانب الأسر من أنه إذا لم يذهب أبناؤها إلى أفضل المدارس والجامعات، فإن ذلك معناه تراجع في مكانة الأسرة. ولأن الكوريين عاطفيون فإنه في حالة فشل الابن أو الابنة فإنك تسمع صراخاً وبكاءً واتهامات للابن أو الابنة بخذلان الأسرة.

وتنفق كوريا على التعليم أكثر من أي دولة أخرى في منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي (oced) والتي تضم في عضويتها ٣٠ دولة متقدمة في العالم، ففي عام ٢٠٠٣ بلغ الإنفاق على التعليم العام ٧,١٪ من الناتج المحلي الإجمالي، الذي وصل إلى ٦٨٠ مليار دولار عام ٢٠٠٥. أما إنفاق الأسر على التعليم الخاص أي المدارس الخصوصية فقد بلغ عام ٢٠٠٣ حوالي ٨,١ مليار دولار. وتوضح الإحصائية التالية نفقات كل تلميذ في المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية سواء في المدارس الحكومية أو في التعليم الخاص الذي يساعد التلميذ على فهم أفضل للمنهج (أي الدروس الخصوصية).

المرحلة	المدارس الحكومية	التعليم الخاص
الابتدائية	٢٧٤٠ دولاراً	٢١٠٦ دولارات
الإعدادية	٣٤٢٩ دولاراً	٢٧٨٩ دولاراً
الثانوية	٤٢٨٠ دولاراً	٣٠٠٨ دولارات

بالإضافة إلى المدارس الحكومية والمدارس الخاصة هناك ٣ آلاف مدرسة كبرى تعطي الدروس باللغة الإنجليزية، كما أن هناك ما لا يقل عن ٥٥ ألف مدرسة للتدريس باللغة الإنجليزية، ولكن من ذات الحجم الصغير.

ولا حاجة إلى القول بأن المدارس الكورية على جميع المستويات والمراحل مزودة بأجهزة الكمبيوتر، حيث يبلغ إجمالي عددها مليوناً و٣٦٧ ألفاً و٢٠٨ أجهزة يستخدمها حوالي ٧ ملايين و٨١٩ ألفاً و٩٦٧ طالباً وتلميذاً، أي بمتوسط جهاز كمبيوتر لكل ٥,٧ طالب، وتصل النسبة في التعليم الابتدائي إلى كمبيوتر لكل ٧,٢ تلميذ بينما تبلغ في المرحلة الثانوية كمبيوتر لكل ٣,٨ طالب.

ويقتضي الإنصاف هنا القول بأن هذا الاهتمام بالتعليم وضخ مليارات الدولارات كل عام لتحسين مستوى المدارس والجامعات وهيئات التدريس والطلاب لا يقتصر فقط على كوريا الجنوبية. بل أصبح سمة عامة في منطقة شمال شرق آسيا: فالصين على سبيل المثال بدأت قبل سنوات نهضة تعليمية غير مسبوقة قوامها تحسين مستوى التعليم في الداخل بشقيه ما قبل الجامعي والجامعي وإرسال عشرات الآلاف من الطلاب كل عام للتعلم في الخارج. أما اليابان فإنها النموذج الذي أصبحت تسير عليه دول كثيرة في هذا المضمار ومنها كوريا والصين وسنغافورة وغيرها من دول آسيا والمحيط الهادي. إن التعليم حسب الخبراء الكوريين ليس دين كوريا الجديد وحدها، بل دين الشرق الأقصى الجديد.

خلال زيارة لجامعة سول الوطنية إحدى أهم الجامعات الكورية، التقيت بمجموعة من الطلاب من كليات مختلفة تحدثوا معي عن واقع التعليم الجامعي في كوريا، حيث تشير الإحصاءات إلى أن هناك ٢١ جامعة عامة ممولة من الدولة و٧٨ جامعة خاصة و١١ كلية للمعلمين و٩ كليات صناعية و٦ أكاديميات عسكرية. ويبلغ عدد الطلاب في الجامعات حوالي ٤ ملايين طالب.

وبشكل عام فإن ٦٠٪ من الناجحين في المدارس الثانوية يدخلون الجامعات التي تشهد تنافساً شديداً فيما بينها على اجتذاب أفضل العناصر سواء كانوا طلاباً أو هيئات تدريس. ويقول الطلاب إنه حتى في الجامعات العامة أي المملوكة للدولة، فإن الطالب يتعين عليه أن يدفع حوالي ١٠ آلاف دولار سنوياً: وهو مبلغ يمكن أن توفره الأسرة دون عناء كبير نظراً لارتفاع مستوى الدخل الفردي، إذ يصل متوسط هذا الدخل إلى حوالي ٢٤ ألف دولار في العام. ويشير الطلاب إلى أن التعليم الجيد يتطلب إنفاقاً جيداً وبالتالي فإنهم يتوقعون أن تضعهم الجامعات على الطريق الصحيح نحو الحصول على وظيفة جيدة. وخلال النقاش أكد عديد من الطلاب أن الجامعات الكورية تغرس فيهم قيماً ومبادئ تشجع على التفكير ليس في إطار محلي أو إقليمي، بل في إطار عالمي، فخريج الجامعات لم يعد يتنافس فقط مع زميله في هذه الجامعة الكورية أو تلك، بل يتنافس مع خريجي الجامعات الكبرى في العالم، وذلك بالنظر إلى أن كوريا أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حركة الاقتصاد العالمي، وعلى الجامعات أن تمد الشركات الكورية، وعديد منها بالمناسبة يعمل على نطاق عالمي مثل سامسونج وهيونداي وإل جي وغيرها، بعناصر قادرة على العمل في أي مكان والتنافس مع أبناء الدول الأخرى.

وفي هذا الإطار، فإن الشركات الكبرى ترتبط بعلاقات وثيقة بالجامعات من خلال دعم الأبحاث العلمية. تتقدم الجامعات بمشروعات إيجابية حول موضوعات معينة إلى هذه الشركات، وإذا وجدت شركة ما أن من الممكن الاستفادة بهذه الأبحاث، فإنها تمول المشروع البحثي. كما أن هذا التواجد من جانب الشركات في الحقل الجامعي جعل الطلاب يحلمون بالعمل في الشركات الكبرى، وجعل الجامعات تتنافس على تحسين مستوى طلابها خاصة في امتلاكهم القدرات العقلية والتقنية ومهارة الحديث باللغة الإنجليزية.

لكن الأثر السلبي لهذا التمان بين الجامعات والشركات، كما يقول الدكتور كيم سونج هيي الباحث في العلاقات الاقتصادية الدولية هو أن الشركات تركز على الأقسام العلمية والتقنية وبالتالي يكون الخاسر هو العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تتضاءل أمام المتخصصين فيها الفرصة لإجراء المزيد من الأبحاث والدراسات، وذلك بالمقارنة بالأقسام العلمية التي شهدت طفرة كبيرة للغاية.

وبعيداً عن تلك العلاقة الجدلية، فإن الجامعات الكورية التي لعبت أحد أهم الأدوار خلال سنوات النضال للانتقال من الديكتاتورية إلى الديمقراطية، مازالت تعج بالنشاط السياسي وصراع الآراء، وإن كانت الأمور حالياً تتركز حول قضايا داخلية، بالإضافة إلى مسألة الوجود العسكري الأمريكي في كوريا الجنوبية والذي يعود إلى سنوات الحرب الكورية (١٩٥٠ - ١٩٥٣). ويطالب الطلاب بإنهاء هذا الوجود وقد ساهمت تظاهراتهم في نقل مقر قيادة القوات الأمريكية إلى خارج العاصمة سول وهي العملية التي ستتم بشكل كامل عام ٢٠٠٨.

ورغم كل ذلك، فإن صوت المظاهرات والاحتجاجات الذي سيطر على الجامعات الكورية في السبعينيات والثمانينيات خفت ليحل محله نقاشات عميقة حول كيفية تحسين مكانة كوريا الجنوبية في العالم وتحقيق الوحدة مع كوريا الشمالية والتعامل مع الولايات المتحدة على أساس الشريك وليس التابع. ■

أحمد بهاء الدين

منحة سنوية
عشرة آلاف جنيه مصري
١٠٠٠٠ جنيه

جائزة سنوية
عشرة آلاف جنيه مصري
١٠٠٠٠ جنيه

جائزة أحمد بهاء الدين
السنة التاسعة (٢٠٠٦)
جائزة الشباب العربي في كل الوطن العربي

يعم وطننا العربي اهتمام واسع وسعى إلى الديمقراطية وإلى تغيير أسس العمل الحزبي والمشاركة الشعبية في الحكم. وبعيدا عن طرق التناول التقليدية في استعراض التاريخ وتناول الماضي والبحث في الزوايا. فهل يمكن أن يكتب الشباب عن:

"مستقبل وتحديات التحول الديمقراطي في الوطن العربي"

بغرض تقديم رؤية مستقبلية لإشكاليه الديمقراطية في وطننا العربي والتحديات التي تواجهها. مع إمكانية الاستعانة بالتركيز والدراسة على نماذج قطرية أيا كانت. مستخلصا النتائج والتصورات المستقبلية والآليات التي يمكن اقتراحها.

وفي هذا الإطار تعلن الجمعية عن مسابقتها السنوية التاسعة لتأليف كتاب باللغة العربية يتناول هذا الموضوع برؤية مستقبلية.

◆ شروط التقدم للمسابقة ◆

١ - الانتماء إلى بلد عربي.
٢ - عدم تجاوز سن الأربعين عند إقفال باب الاشتراك (١ اكتوبر ٢٠٠٦).
٣ - تقديم ما يلي من أصل مطبوع وصورة واحدة:
- ◆ السيرة الذاتية.
- ◆ خطة البحث في حدود صفحتين.
- ◆ فصل من الكتاب أو جزء منه في حدود خمسة آلاف كلمة.

٤ - أن يكون العمل جديدا ولم يسبق تقديمه لأية جهة أخرى.

ويترتب على مخالفة أو عدم مراعاة أي من الشروط السابقة عدم دخول البحث المقدم في المسابقة.

◆ إجراءات المسابقة ومنح الجائزة ◆

المرحلة الأولى

١) يقوم المشترك بتسليم أو إرسال الأوراق المطلوبة في موعد غايته أول أكتوبر (١/١٠/٢٠٠٦) على عنوان الجمعية برقم ٩٣ شارع قصر العيني، الطابق الخامس، شقة ٣٣، القاهرة، أو على ص. ب ١٨٦ الدوبارة (أو الاتصال برقم ٧٩٢٤٠٣٢ - ٠١٠٤٩٧٣٦٢٧ [illegible]).

٢) يتم عرض المشاريع المقدمة على لجنة تحكيم تختار من بينها ما يستحق الحصول على منحة بحثية قدرها عشرة آلاف جنيه مصري لمتابعة الكتابة. وللجنة أن تطلب من مقدمي المشاريع الحضور لمقابلة أعضائها.

٣) تنظم الجمعية أمسية ثقافية في الأول من نوفمبر (١/١١/٢٠٠٦) يدعى إليها الفائزون بالمنح البحثية وأعضاء الجمعية ونخبة من الكتاب والناشرين والمفكرين، ويقوم كل من الفائزين بعرض موضوعه.

المرحلة الثانية

خلال العام التالي على الفوز بالمنح البحثية يقدم كل فائز من الفائزين بها مسودة كاملة لكتابه في موعد تحدده الجمعية. وتختار لجنة التحكيم أفضل عمل كامل ليفوز صاحبه بجائزة أحمد بهاء الدين السنوية وقدرها عشرة آلاف جنيه مصري بجانب قيام الجمعية بالمساهمة في نشر كتابه.

المركز الرئيسي ٩٣ شارع قصر العيني الطابق الخامس شقة ٣٣ القاهرة
بريد: جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين [illegible] القاهرة
تليفون وفاكس: [illegible] موبايل: [illegible]





أكل المطاعم

جيســـــــــون إبســـــــتاين

ســـرعان مـــا أصبحـت عضـواً فى فـريق الطهـاة، محبوســـــاً داخــــل هــذه الحجــرة الخلفيـــة، وســكاكين الطهـــاة تصطـدم بألـواح التقطيـع بنفس الطـريقـة الإيقاعيـة المتأرجحـة، كـذا فعـل سكـينـى، عملنـا بلا نوافـذ ولا ضــوء طبيعـى، بلا اتصــال بالعــالم الخـــارجى، ولا حـــتى فكـــرة لدينـــا عـــن طبيعـــة الجـــو

إن بقاء كل المخلوقات يعتمد على الاعتدال، تلك هى نتيجة تكيف ألف عام مع حدود البيئة من خلال التجربة والخطأ: فالحيوانات البرية وطيور الحديقة لا تقتات أو تتناسل على نحو مفرط وإلا ستنتهك توازناً قلقاً ضمن موطنهم المخصص لهم لينتهى بهم الأمر إلى الهلاك. على الجانب الآخر نحن البشر - بإرادتنا الحرة نخينا أنفسنا من جنة الغريزة النقية - نفتقر إلى تلك الضوابط الأوتوماتيكية. إذ نكابد بدلاً منها شعوراً بالذنب ونخترع آلهة لا تخلو من القسوة ونفرض قوانين للإنفاق ونمتثل للمحرمات الجنسية: وعندما نفشل فى هذه الأفعال، نكفر عنها فى صالات الرياضة وبرامج تحقيق الذات المكونة من عشرين خطوة أو نلجأ إلى الأطباء النفسيين أو نستحيل بوذيين تكافح كى نفرض على أنفسنا ما تتقيد به المخلوقات الأخرى من حدود بغريزتها.

وعلى عكس العديد من الكائنات الناجحة التى يشكل التناغم البيئى جزءا لا يتجزأ من جيناتها، لا بد للإنسان، عدا من يجابهون بالفعل الانقراض فى مواطنهم المتفسخة، أن يقرر من خلال العادة أو الصراع الحفاظ على شهيته القوية للطعام والجنس فى مقابل مغريات ثقافة تجارية تروج بلا هوادة لتلك الرغبات غالباً فى نفس الوقت. لقد أوحى بتلك التأملات «بابو» وهو مطعم ثلاثة نجوم بمنطقة قرية جرينتش والموقع الأساسى لسيرة بيل بوفورد الذاتية.. فالمواجهة بين الاعتدال والرغبة تبرز على نحو عنيف فى مثل تلك الأماكن من ثقافتنا، حيث ينساق من عانوا طيلة اليوم فوق السير الرياضى ليجعلوا من أنفسهم مرغوبين فى أعين الآخرين، ينساقون مساء وراء شهواتهم البدائية. إن موضوع بوفورد هو الطعام إلا أن نظيره الشهوانى قلما يغيب عن الأنظار مهما تسامى.

سوف يجذب كتاب الحرارة انتباه القراء المهتمين بمشكلة الولع الشديد العنيد بينما سيستمتع آخرون عديدون بسرد بوفورد المحكم لقصة تدربه وهو فى منتصف العمر بمطعم شهير بنيويورك، عاصمة العالم الآن للطعام الفاخر. إن ما يجعل كتابه كتاباً غير معتاد ضمن تصنيفه الأدبى، بعيداً عن نوعية نثره، هو أنه يستمتع بمراقبة عمل الطهاة أكثر من تذوق أطباقهم. فعلى العكس من جاك كازانوفا لكن مثل الدكتور كينزى، الذى لم يعبأ بنشاطه الجنسى إنما بالمراقبة الدقيقة لنشاط الآخرين الجنسى، لم يكن بوفورد محباً للطعام مثلما كان محباً لمراقبة الطهاة، هوس يشترك فيه كثيرون كما يتبدى لنا من خلال الكتب الكثيرة وبرامج التليفزيون التى تناقش الموضوع وكذلك المطابخ «المحترفة» التى يركبها المطورون على نحو دورى بغرض استغلال أوهام المطبخ التى تخامر من يشترون بيتاً من الأغنياء.

كان بوفورد محرراً بارزاً بإحدى المجلات إلا أنه ترك وظيفته فى يناير عام ٢٠٠٢ وسط رحلة حياته وكذا ترك حصافته بمثل العاطفة التى تنتاب فى العادة الشهية المنتجة للرجال فى مثل سنه. استقال من النيويوركر وألزم نفسه بأن يصبح «عبداً بالمطبخ»، متدرباً لا يتقاضى أجراً، لصديقه الحبيب ماريو باتالى - الطاهى والمالك الشهوانى لأحد المطاعم. جعله ظهوره بصفته مولتو ماريو على محطة «شبكة الطعام» شخصية عامة ذائعة الصيت فى مطعمه بابو الذى كان أشبه بالمزار. إلا أن بابو لم يكن فقط مقصداً إلزامياً على كل السياح بما يحويه من صورة مالكه البيضاوية المعلقة بالحانة، وصورة شخصية «هامتى دامتى» بالحجم الطبيعى تنسدل منه ضفيرة برتقالية ويلبس سروالاً لا يتجاوز الركبة وقبقاب المطبخ.

يتسم مطعم بابو بالرقى وهو يقدم قائمة طعام جريئة وغالباً ما تكون المعية تعكس التزام باتالى المتقد بطعام توسكانى التقليدى. لم تشهد نيويورك مثيلاً لباتالى على الإطلاق ومن المستبعد أن يجىء مرة أخرى مثل ذلك

Heat: An Amateurs Adventures as Kitchen Slave, Line Cook, Pasta-Maker, and Apprentice to a Dante-Quoting Butcher in Tuscany
(الحرارة: مغامرات هاو كعبد فى المطبخ وطاه وصانع للفطائر ومتدرب تحت يدى جزار فى توسكانى يستشهد بكلمات دانتى)
Bill Buford
New York: Knopf, 2006

My Life in France
(حياتى فى فرنسا)
Julia Child, with Alex Prudhomme
New York: Knopf, 2006

بترتيب مع: مجلة
New York Review of Books

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين



المزيج الفوار من العبقرية والذوق والحماسة والتصميم الفولاذى والشهوة المفرطة. بدأ هذا الكتاب، الذى هو فى الحقيقة مجموعة من المقالات المرتبطة، كمهمة اسندتها مجلة نيويوركر لكتابة لمحة من حياة باتالى. إلا أن بوفورد ود لو يصبح نسخة منه وليس كاتباً لسيرته وحسب. وعليه تطوع فى هذا الكتاب للعمل دون أجر عند باتالى بنيويورك بعدها تدرب عند الطاهى التوسكانى الذى علم باتالى فن المعجنات. يحكى كتاب الحرارة قصة علاقة غرامية وقعت بالمطبخ من جانب واحد، علاقة انخرط فيها بوفورد أحياناً انخراطاً لم يخل من الكبت فيما لم يبد باتالى رد فعل مساوياً.

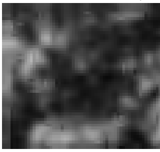
وصف بوفورد مطبخ بابو، الذى وطأه بوصفه «عبداً» بدون الأجر فى يناير ٢٠٠٢، بأنه جحيم ملتهب بضيقه وحرارته، تحدق به الأخطار من سكاكين لامعة وألسنة دهنية من اللهيب تنطلق من الموقد لتبلغ السقف. كان الطهاة يعملون على الشواة وعلى قدور من المعجنات الفائرة، كانوا يستجيبون لطلبات تصك آذانهم من فم صارخ لطاه عصبى المزاج يبث الرعب فى النفوس ويتملكه الذعر مخافة أن يقدموا شريحة لحم لم تستو بعد إلى ناقدة جريدة نيويورك تايمز الناقدة التى قيمت أداء بابو بثلاثة نجوم والتى قد تعرج عليهم دون سابق إنذار حتى تعيد النظر فى حكمها فتغرق المكان بطهاته. أو أن يطرأ ما هو أسوأ: أن يصل باتالى نفسه، الذى كان قد سلم المطبخ إلى الطهاة قبل أن ينضم إليهم بوفود، وسط تقديم عشاء مشحوناً ليلقى سبباً للشكوى. وقع هذا بليلة مفعمة بالحركة عندما اعترضهم باتالى وهم فى طريقهم إلى حجرة الطعام ليجد قطعة طرية غير مستوية من لحم الخنزير وأرنباً مطهواً زيادة عن اللازم كان بوفورد قد جهزه مما أدى إلى أن فصله باتالى من موقعه عند المشواة بعد أن فاز به بصعوبة. اضطر بوفورد كى يترقى إلى «عامل المشواة» إلى أن يبدأ كمساعد لمعد الطعام، فكان يحضر إلى المكان مبكراً حتى يقطع الكرفس ويكعب الجزر ويفسخ البط وغيره مما يحتاجه الطهاة من أجل وجبات المساء. وصف نفسه فى كتابه بأنه شخص ينتقص من قدر نفسه، يتميز بعين تلاحظ أدق الأشياء ويمهر سريعاً فى تعلم التقنيات الأساسية. ما لبث أن عاد إلى المشواة المتقدة بمجرد أن غادر باتالى ثم عمل مع قدور خطرة غصت بالمعجنات، انصرمت سنة اتقن خلالها أعمال المطبخ بالكامل ثم تهيأ لمتابعة تعليمه فى توسكانى على خطى باتالى.

كانت ساعات بوفورد الطويلة فى بابو - امتدت فى الغالب من الصباح الباكر حتى منتصف الليل يقطعهما راحة عند منتصف الظهيرة - بالنسبة له كالإكسير المقوى. فى اليوم الأول له... جال بنظره فى أركان المطبخ. كان طهاة المعجنات يقفون بجانبى واثنان منهم يقطعان الأناناس. تهض أمامى حائط من المواقد تعلوه أوعية ضخمة تغلى فوقها السوائل. قام خلفى رجلان يعدان المعجنات. رقد على الأرض خلاط ضخم يضرع فى أصوات متواترة كمية كبيرة من العجين. آنت الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة صباحاً... أسرتنى روائح المطبخ. عندما فرغت من إعداد الكثير من الأشياء عند منتصف الصباح، سرعان ما تم طبخها بالتتابع، ففاحت الروائح، الرائحة بعد الأخرى، فى موجات شأنها شأن ألحان الموسيقى. هبت رائحة اللحم وطغت على المطبخ الرائحة الغنية اللزجة للحمل البارد. ثم تضوعت خلال دقائق رائحة الشوكولاته وهى تذوب فى وعاء معدنى. وفى نهاية لا سبيل إلى توقعها نفذت إلى أنفى رائحة كريهة تشبه رائحة الكرش (كان انفصالاً عجيباً: أن ينعم أنفك برائحة الشوكولاته يليها فى لحظة طبيخ أحشاء بقرة). ثم انتشرت رائحة سمك ناضج - كان أخطبوطاً فى حوض ساخن - تلحق بها رائحة أناناس، وهكذا أقبلت الرائحة بعد الأخرى - ثمرات العنبية ومرق الدجاج والكيمياء المريحة للحم العجل والخنزير واللبن فيما يعد أحدهم صلصة «البولونيز راجو».

قد يلاحظ القراء فى تلك الفقرة المقلقة بشوكلر نزعة بوفورد إلى الثرثرة. كانت إلهاء للقارئ سيتزايد بتطور القصة.

... سرعان ما أصبحت عضواً فى فريق الطهاة، محبوساً داخل هذه الحجرة الخلفية، وسكاكين الطهاة تصطدم بألواح التقطيع بنفس الطريقة الإيقاعية المتأرجحة، كل فعل سكينى، عملنا بلا نوافذ ولا ضوء طبيعى، بلا اتصال بالعالم الخارجى، ولا حتى فكرة لدينا عن طبيعة الجو: لا شئ سوى هاتف واحد رقمه ليس مدوناً بالدليل ومستعص على البلوغ - يا لها من راحة عظيمة أن يحاط المرء بهذه الارتباطات القوية بالوجبات المترعة بالبهجة.

هل بوفورد يصف هنا النشوة البدائية وقد انعزلت، كما فى الأغانى الغرامية، عن العالم بما لا يدع وسيلة للوصول إليها: من يبالى لو أن الجو بارد فى الخارج؟ وبالنسبة للهاتف، دعه يرن. لم أقرأ مثل تصوير



بوفورد المثير للطعام منذ أن طالعت السرد النضير لعشاء م.ف.ك فيشر مع حبيبها الجديد بمدينة ديجون حيث استدعت كل صنف مختلف من الطعام بنفس الكثافة الشهوانية شأنه في ذلك شأن تبادل الغرام الذى استمر فى نفس الوقت بعقلها وإن لم تنوه به.

لا شك أن بوفورد المولع بالأدب واع لهذا الحس التزامن. فهو يتأمل... إغراء السيدة وترز لتوم جونز... حيث تتلاشى الخطوط بين «الرغبات والشهية» وتمتزج تنهدات السيدة وترز الناعمة بالتهام توم الموشى بالحيوية لشريحة كبيرة من لحم البقر المشوى. طالما ارتبط الطعام بالشهوانية وأنا أظن أن الطهى بحب لهو انقلاب لمبدأ مخالف: الطهى من أجل أن تُحَب. فالمقدمة المنطقية للوجبة الرومانسية هى أن بإثارة شهوة ما وإرضائها سوف تُثار شهوة أخرى إثارة مشابهة... فقد أخبرنى ماريو ذات مرة أن المعجنات الفرنسية المطهية بالزبد توضح كيفية امتزاج هذه الأشياء: «تنتفخ كما المرأة المثارة». وقال فى إحدى المناسبات إن نبات المردقوش يفوح منه عبق زيتى كالذى يفوح من جسد المرأة: «إنه أكثر الأعشاب إثارة». تفوقت «ليديا باستيانيش»، أم شريك ماريو وطاهية معروفة تمتلك مطعمها الخاص، فى وضوحها. «ما الذى تضعه أيضاً داخل جسد إنسان؟» سألت سؤالاً بلاغياً عندما التقيت بها على الغداء فى يوم ما. «هل تفهم ما أقوله؟».

بحلول مارس ٢٠٠٣ كان بوفورد قد استعد. كان يعد المعجنات لفترة ببابو وأراد أن يلمس بنفسه كيف تعلم ماريو أساليبه فى إيطاليا:

... أنا لا أرغب فى الانتقاص من أهمية ما أمضيته من وقت بمحطة المعجنات فى بابو - فسوف أذكره طيلة حياتى - حسبى ما أعلمه الآن عن المعجنات الرفيعة والمحار إلا أنى ابتعدت كثيراً عن هدفى الحقيقى.

إن الإشارة إلى المعجنات الرفيعة والمحار لا تستحضر خبرة عميقة لأن ما تعلمه من باتالى ببابو لم يكن بأزيد مما سيلاحظه على الفور أى شخص أعد هذه الوجبة البسيطة: لا تنبع النكهة من محار البطلينوس الذى يتجفف وهو ينفتح داخل مقلاة ساخنة، إنما من سائل البطلينوس الذى أرسل نكهة زيت الزيتون المعبأ برائحتى الثوم والفلفل الحار والذى رميت به المعكرونة إلى أن تُغطى جيداً ثم يُرش عليها بخفة البقدونس المسطح. يضيف باتالى مقداراً طفيفاً من النبيذ الأبيض ولحم الخنزير المقدد والزبدة ليصنع توليفة غنية تضيف ثقلاً يتناسب مع صلصة البولونيز راجو الزيتية الرائعة التى يجهزها باتالى إلا أنها لا تناسب صلصة البطلينوس التى ينبغى أن تكون نسمة بحرية معدة للأكل. يستعمل أيضاً حيوان الكوكل من نيوزيلاند بدلاً من محار البطلينوس قوى النكهة القادم من ماتيلا.

تدرب بوفورد بربيع عام ٢٠٠٣ عند «بيتا فالديسيرى» فى بوريتا، بلدة جبلية بالقرب من مدينة فلورنس على الطريق من بولونيا. تعلم باتالى من بيتا ترقيق المعجنات عندما كان يتدرب بمطعمها «لا فولتا» عام ١٩٨٩ حيث أعاد طهى قائمة طعامه فى «بو» مطعم صغير بمنطقة قرية جرينتش شجع نجاحه باتالى على افتتاح مطعم بابو الأكبر. عرضت بيتا، الغاضبة من ازدهار عمل باتالى، أن تُعلم بوفورد كيفية صنع التورتيلينى شريطة أن يعدها ألا يشارك باتالى تاكر الجميل المعلومات. وافق بوفورد وبدأت دروس استغرقت شهوراً. والتورتيلينى فطائر صغيرة من العجين الطازج تُحشى عادة بخليط من لحم الخنزير والدجاج ولحم الخنزير المقدد والمورتاديلا - سجق متوسط التتبيل ملىء بلحم الخنزير ثم يحاط بالبيض ويُلطف الطعم بإضافة جبن البارميزان ويُحلى بالقليل من جوزة الطيب - مكون أساسى يضاف غالباً إلى مرق الدجاج بالعديد من القوائم الإيطالية-الأمريكية. ويسهل صنع فطائر التورتيلينى يدوياً إلا أنها تستغرق وقتاً طويلاً، لذا تصنع الآلات أغلبية التورتيلينى المتوافر بالأسواق. كان حشو بيتا بمثابة اكتشاف عظيم لبوفورد: فاحت الرائحة نفاذة حادة. ماذا كانت؟ لحوم البولونيز؟ امتزاج النيئ بالمقدد؟ أقحمتُ رأسى فى سلطانية فاستدعى عقلى: ما يعتلى البيتزا من مكونات وشراب البيض وحفلة شواء فى الرابع من يوليو. كانت مزيجاً من كل عطلاتى... كانت طعماً كنت أعلم أنى لن أصادفه بأى مكان فى العالم. توصلت فى النهاية إلى أنه عطر مدينى يرجع إلى القرون الوسطى. وددت لو اعتقدت أن هذه الرائحة كانت شذا مطبخ فى بولونيا تعلم أن يصنعه فرد من أفراد عائلة بيتا...

تبدو كلمات بوفرد هنا وكأنها صادرة عن الشخصية الأوبرالية «دون جيوفانى» وهو ينهمك فى سعيه الدؤوب وليست عن مراسل دقيق يصور عملية حشو معتادة للمعجنات.

يكتب بوفورد، وما يزال تحت تأثير مزاج الأوبرا، أن بيتا رفضت الإفصاح عن سر التورتيلينى النهائى- التجميع الأخير للمعجنات والحشو - إلى أن أيقنت أن بوفورد أوفى بوعده بعدم إطلاع باتالى بما علمته إياه حتى الآن: ألا وهو أن يجعل العجين أرفع ما يمكن. وكى يثبت بوفود أنه لا يحنث بوعده اضطر إلى العودة إلى نيويورك ثم الرجوع مرة ثانية إلى بوريتا، رحلته الثالثة. لو لم يتناه إليها خلال رحلته أن باتالى أضاف التورتيلينى إلى قائمة مطعمه بابو، ستُطلع بوفورد على بقية السر. اقتنعت أخيراً بأنه رجل أهل للثقة فكشفت له عند عودته إلى بوريتا كيف يصنع فطائر مربعة صغيرة تكاد نحافتها تماثل نحافة الهواء ثم يضعها على إصبعه ثم... يملأ المربع الصغير بأكبر كمية ممكنة من الحشو ويطوى إحدى زواياه مع الزاوية المقابلة ليشكل مثلثاً صغيراً إنما منتفخ، بعدها تقلب رأسَى المثلث ثم (وهى الخطوة الحاسمة) تجذب الزاويتين الباقيتين إلى الأمام وتضغط على الفطيرة كلها لتصنع دائرة. عندما تقلب الفطيرة ستساورك الدهشة لمرأى ما أبدعته: إنها سُرة. (ماذا بوسعى أن أقول؟ إنها شهوة جامحة).

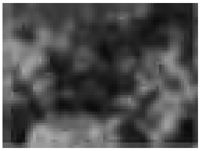
قدَم بوفورد نفسه حتى الآن - بدقة على ما أفترض - باعتباره شخصاً غريب الأطوار على نحو معتدل إلا أن ما نزل عليه من اكتشاف عظيم بمطعم بيتا قد يحمل المرء على أن يتساءل ما إذا كانت كلمة «معتدل» هى الصفة الصحيحة لوصف رحلات بوفورد بما افتقرت إليه من حس عملى. فبعد أن تعرَف على لغز التورتيلينى، أبلغ بوفورد زوجته الصابرة فى نيويورك أن عليهما العودة إلى إيطاليا. إن «التورتيلينى» أخبرها، مجرد صنف واحد وأنا صرت مقتنعاً أن ثمة أسراراً بالمطبخ أحتاج إلى تعلمها - موقفاً ما أو لمسة ما، إنه الشىء الذى طالما قال لى ماريو إننى لن أتعلمه غير «هناك» - لذا يتعين علينا الرجوع.

أصر على العودة حتى يكون فى خدمة أستاذ توسكانى آخر، داريو سيكينى، الذى يقال عنه إنه أبرع جزار فى إيطاليا.

إن القراء المهتمين بمعرفة مصدر اللحم البقرى التوسكانى (أفضل لحم بقرى توسكانى يأتى الآن من مزرعة صغيرة بأسبانيا) وأسمائه (تتصف الأسماء التوسكانية للجهاز العضلى لحيوانات المزارع بتفردها) وتقطيع ثم إعادة ضم أجزاء الحيوان لصنع سجق السوق التوسكانى سيخامرهم انبهار بالغ، كالذى أصابنى، لما تعلمه بوفورد من داريو.

سيلحظ القراء أيضاً أن هذا الهوس بأسرار الطهى التوسكانى بات مرضياً. إلا إذا أراد بوفورد أن يفتتح محلاً للجزارة فى توسكانى لأن لا مكان آخر على وجه الأرض يمكن فيه تطبيق دروس داريو تطبيقاً مربحاً، فما سيتعلمه من داريو يكتسب طابعاً أكاديمياً ليس إلا. وقد ألقت بداية هذا الولع فى نفس بوفورد ضيقاً إلا أنه لم يستطع تمالك نفسه.

أقحمتُ رأسى فى سلطانية فاستدعى عقلى: ما يعتلى البيتزا من مكونات وشراب البيض وحفلة شواء فى الرابع من يوليو. كانت طعاماً كنت أعلم أنى لن أصادفه بأى مكان فى العالم



قال باتالي... إني لو رغبتُ في إتقان الطهي الإيطالي، يجب أن أتعلم اللغة وأن أشتغل في إيطاليا؛ فتفكرتُ: بوسعي عمل ذلك أيضاً... ثم اقحمتُ في رأسي أني ينبغي أن أُدخل تعديلات بسيطة على تعليم ماريو للطهي... رمتني زوجتي - وقد عانت طويلاً - في لهجة هادئة بما يوصف به عادة المهووسون (الولع الشديد والافتقار إلى حسن تقدير الأمور وكذا العجز عن إدراك الحدود) - غير أن المسألة لم تتضح لعينيّ حتى عندما استيقظتُ في نيويورك وكنتُ على علم أني يجب أن أعاود، إلى داريو. «هل أنا مرغم على الرجوع؟ بالقطع لا... لكن ماريو ائتمنني على قضاء المهمة.... كيف لي أن أمتنع؟».

عاود في آخر الأمر إلى نيويورك وأنهى إلى باتالي ذات ليلة على العشاء ما تعلمه من داريو عن طرق القطع المختلفة؛ رحت أثرثر عن «الجريللو»، أخمن ما يمكن صنعه باستخدام «السوتوفيسا»، أكاشفه بمعجزات يمكن القيام بها بقائمة الذبيحة الأمامية... «أرجوك»، قال ماريو، «أنا ليست لدىّ أية فكرة عما تتكلم عنه».

كتب بوفورد ما بين رحلاته إلى ماريو «كنتُ بالبيت وأردت الحصول على خنزير»، لذا طلب خنزيراً من السوق الواقع في جنوب مانهاتن وعلّقه بمقدمة دراجته البخارية. حمل وزوجته تجلس في الخلفية ذبيحة تزن ٢٢٥ رطلا إلى بيته الكائن على بعد عدة مبان. كان الخنزير البالغ وزنه ٢٢٥ رطلا المنقول فوق دراجة بخارية عبر مانهاتن المزدحمة في وضح النهار مشهداً ندر أن رآه الناظرون، عله لم يُر من قبل ولم يُر بعدها، إلا أن بوفورد بدا غافلاً عن المنظر. أمسى الآن يفكر بجدية في افتتاح محلاً للجزارة في مانهاتن على غرار محلات توسكاني، كافح مع الذبيحة حتى أدخلها مصعد مبناه ثم حشرها بالمطبخ. انفق أسبوعاً يقطعها العضلة بعد الأخرى؛ ثم عدل عن فكرة محل الجزارة، وكذلك رفض عرض باتالي أن يدبر له عملاً بأحد المطاعم. عله غدا طباخاً إلا أنه لا يزال كاتباً. انتوى بدلاً من العمل بالطهي أن «يعبر جبال الألب وينتظر ما سيكشف عنه المستقبل. لا بد أن القصد فرنسا» حيث هاجر طهي إيطاليا الفظ في عصر «كاثرين دو ميديتشي» ليستحيل طهياً راقياً.

لحسن حظ بوفورد وصلت جوليا تشايلد إلى هناك أولاً. فهي لم تكتف بتعلم الطهي الفرنسي إنما أخضعته للمقاييس العقلية وقدمته إلى الولايات المتحدة محدثة بذلك ثورة في الذوق الأمريكي سرعان ما ستنتشر إلى كل أرجاء العالم المزدهر. لن يلقى بوفورد حجة أفضل من جوليا تشايلد لترشده إلى الطهي الفرنسي كما فعل باتالي في الطهي التوسكاني. كانت جوليا قد كتبت في السنوات الأخيرة من عمرها المديد مذكرات ممتازة تحكي فيها ما تولاها من صحوة في الطهي بفرنسا ثم نُشرت بعد وفاتها.

التقت جوليا تشايلد بزوجها بول خلال الحرب حين كانا يعملان بمكتب الخدمات الاستراتيجية في آسيا. وفي نوفمبر من عام ١٩٤٨ كانت جوليا تشايلد (في السادسة والثلاثين) وزوجها بول (كان يكبرها بعشر سنوات) قد ترجلا من المركب بميناء لوهافر وانطلقا في سيارتهما الأمريكية عبر ريف دمرته الحرب. كانت وجهتهما باريس حيث توظف بول بوكالة إعلام الولايات المتحدة. صارا إلى مدينة روان وقت الغداء فراجع بول خريطته وذهب مع جوليا إلى مطعم يدعى «لا كورون» يقع بمنزل مصنوع من الخشب يعود إلى عام ١٣٤٥. تتذكر جوليا تشايلد بمعاونة خطابات كتبتها وقتذاك واحتفظ بها زوجها، في كتاب حياتي في فرنسا صحوتها في الطهي يومها، تتذكرها بنفس الدقة والابتهاج والثقة المعتدلة التي ستقود بها ثورة في المطبخ الأمريكي بعدها بعشرين سنة.

شهد القرن الذي استغرقه عمرها العديد من الثورات أكثريتها لا قيمة لها. أما ثورة جوليا فقد كانت هائلة. كانت ثورة حقيقية لأنها أطاحت بالمؤسسات القائمة وبثت وعياً جديداً ومفردات حديثة، والآن يهيمن أنصارها على عالم الطهي حيث اندلعت ثورتهم. عل بعض التابعين عانوا من بعض التدليل المفرط لحواسهم إلا أن ملايين غيرهم طبخوا وأكلوا أفضل بكثير مما كانوا لو أن جوليا لزمت مدينة باسادينا وتزوجت المصرفي الذي آثره أبوها الماكارثي على الألمعي الديمقراطي، أحد الألقاب المفضلة لدى جوليا، بول تشايلد المحب للجمال. ساد الدفء في الداخل (بمطعم «لا كورون»)، اتسمت حجرة الطعام بالراحة والتقليدية بلونيها البني والأبيض. ما كانت بالمتواضعة ولا بالفاخرة. قامت في النهاية البعيدة مدفأة مهولة ذات قضيب دوار يطهى حوله شيء تنفذ منه روائح مبهجة. حيانا المترودوتيل، رجل نحيف في خريف العمر ذو شعر أسود تعلو ملامح وجهه سيماء الجدية. بادله بول الحديث فجرت ابتسامة على ثغر المترودوتيل ورد رداً حميماً وكأنهما صديقان من زمن. ثم أرشدنا إلى مائدة جميلة ليست ببعيد عن المدفأة. كان كل الزبائن فرنسيين وقد استشعرت أنهم يعاملون بنفس ما استقبلنا به النادل من كياسة... بعد أن اتخذنا مجلسنا، نمى إلىّ صوت رجلين من رجال الأعمال يرتديان بذلتين رماديتين ويجلسان إلى المائدة المجاورة. كانا يسألان النادل، رجلاً مهيباً يفوق الأول سناً. كان النادل يومئ بقائمة طعام ويجيب على أسئلتهما.

شهد القرن الذي استغرقه عمرها العديد من الثورات أكثريتها لا قيمة لها. أما ثورة جوليا فقد كانت هائلة لأنها أطاحت بالمؤسسات القائمة والآن يهيمن أنصارها على عالم الطهي حيث اندلعت ثورتهم

«عم يتحدثان؟» قلتُ همساً لبول

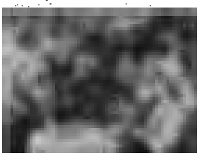
«يخبرهما النادل عما طلباه من دجاج»، همس رداً عليّ. «كيف تربى وكيف سيطهى وما هي الأصناف الجانبية التي ستلذ لهما معه وأي أنواع النبيذ ستوافق وجبتهما». «نبيذ؟» قلت. «على الغداء؟». لم يسبق لي أن احتسيت نبيذاً بخلاف برجاندي كاليفورنيا بدولار وتسعة عشر سنتاً وبالقطع لم أحتس أياً منه وسط النهار.

شرح لي بول أن الطعام الجيد في فرنسا يعتبر مزيجاً من الرياضة القومية والفن الرفيع، ويقدم النبيذ دوماً على الغداء والعشاء. «العمر في الاعتدال»، أطلعها. ثم ما هي إلا وقد امتلأت حجرة الطعام بروائح تداخلت على نحو مدهش، روائح تعرفت عليها وإن لم أستطع تسميتها. كانت الرائحة الأولى أشبه بالبصل - «إنه القفلوط»، استنشق بول، «محمر في زبد طازجة». («ما هو القفلوط؟» سألت بلسان مرتبك. «ستريْن»، أجابني.) ثم حلت علينا رائحة دافئة كما النبيذ، علها كانت صلصة شهية تُجفف على الموقد. تلتها نفحة من شيء نفاذ: يخلط الطاهي السلطة بسلطانية كبيرة من الخزف ومعها الليمون وخل النبيذ وزيت الزيتون والقليل من الملح والفلفل.

قرقرت معدتي جوعا

لم أتمالك أن ألحظ أن بهجة هادئة غلفت أوجه النُدل وكأن مهمتهم الوحيدة في الحياة هي أن يجعلوا زبائنهم ينعمون بالراحة وحسن الخدمة. اتصل أحدهم في هدوء بحذاء مرفقي، رمق بول قائمة الطعام ثم سأله عدة أسئلة بلسان فرنسي طلق. لاح النادل مستمتعاً بما يتجاذبه من حديث مع زوجي. ياه، كم كنتُ متلهفة لأكون طرفاً في هذا الحوار! بدلاً من الكلام، جرت ابتسامة على فمي وأومأتُ برأسي بلا فهم وإن حاولتُ أن أستوعب كل ما يدور حولي.

بدأنا الغداء بست محار يستقر فوق نصف صدفة. كنتُ معتادة على المحار البائخ الآتي من



واشنطون وماسيتشوسيتس والذى لم أستسغه قط إلا أن هذا الطبق البرتغالى تمتع بنكهة مالحة مثيرة وإحساس ناعم ألقى فى نفسى الدهشة لجدته. قُدم المحار مع حلقات من البا دو سيجال، وهو خبز باهت اللون مصنوع من دقيق الجاودار بُسطت عليه زبدة خالية من الملح. شرح لى بول أن الفرنسيين لديهم، كما هو الحال مع النبيذ، «مناطق» للزبدة، أماكن خاصة تنتج كل منها أنواعاً مختلفة الطعوم من الزبدة... كانت مدينة روان تشتهر بأطباق البط غير أن بول قرر بعد مشاورات مع النادل أن يطلب سمك موسى بالزبدة. جاء الطبق كاملاً: سمكة موسى ضخمة مسطحة اصطيدت من ميناء دوفر. تلونت باللون البنى لما كساها من صلصة الزبدة المتناثر فوقها بقدونس مفروم. تحرص النادل وهو يضع الطبق أمامنا ثم تراجع إلى الخلف قائلاً: «بون ابيتى!» أغلقتُ عينىَ واستنشقتُ العطر المتصاعد. ثم رفعت إلى فمى ملء شوكة من السمك وقضمتُ لأمضغ بعدها على مهل. كان لحم السمكة رقيقاً يتحلى بطعم خفيف، إنما واضح، للمحيط ويمتزج امتزاجاً رائعاً بالزبدة البنية... كان طبقاً ارتقى فى لذته إلى الكمال.

درجنا فى بأساديا على أن نشوى سمك الماكريل على العشاء كل يوم جمعة ونتناول كرات من أسماك القد بصلصة البيض وسمك السلمون «المغلى» (المسلوق) فى الرابع من يوليو ونحمر السمك المرقط فى المقلاة من حين لآخر حين نخيم بالجبال. إلا أنى اختبرت فى «لا كورون» سمكاً، عشاء، أرقى من أى شىء تذوقته فى حياتى.

عندما أتيا على زجاجة من نبيذ «بوليى فوميه» والسلاطة الخضراء والقهوة المقطرة وتهيئا للمغادرة، قالت جوليا للنادل «مستعينة بشجاعة مفاجئة ولهجة بدت رديئة حتى لأذنى»: «مارسى منصور».

أومأ النادل وكأنه لم تترام إليه الكلمات الركيكة وولى ظهره ليحيى بعض الزبائن الجدد. خرجت وبول من الباب فكللتنا شمس مشرقة وأحاط بنا هواء منعش. كان أول غداء لنا بفرنسا كاملاً كمالاً لا حد له. كانت تلك أكثر الوجبات إثارة فى حياتى.

«سمكة الموسى بالزبدة التى أصبت منها فى «لا كورون» فى يومى الأول بفرنسا فى نوفمبر ١٩٤٨»، كتبت جوليا بعدها بأربعة وخمسين عاماً «كانت تجربة بدلت حياتى... كانت اكتشافاً مذهلاً».

عندما استقر بها المقام مع بول فى باريس، أخذت جوليا دروساً فى اللغة الفرنسية بمدرسة بيرليتز ودروساً فى الطهى بمعهد «لو كوردو بلو». اشترى بول لها بمناسبة عيد ميلادها السابع والثلاثين نسخة من كتاب لاروس جاسترونوميك «موسوعة فن الطهى». ما لبثت أن تعلمت وبحلول عام ١٩٥١ طُلب منها أن تنضم إلى «دائرة المتذوقين» نادٍ حصرى للطعام مخصص للنساء. التقت فى شهر لاحق من نفس تلك السنة بسايمون بيك، المشهورة باسم سيمكا، عضوة من عضوات النادى ستشترك معها فى كتابة كتاب عظيم سيختمان المجلد الأول منه بعدها بسبع سنوات. رافقتهما متذوقة ثالثة وهى لويزيت بيرتول وأسسن مدرسة لتعليم الطهى وذلك بغرض تعريف النسوة الأمريكيات بالمطبخ الفرنسى الكلاسيكى. وقد قدم تلاميذهن نموذجاً أساسياً لمجموع القراء الذين وجهن إليهم كتابهن المعتزم. جهزت جوليا الدروس بدقة ما بعدها دقة بأن استشارت كتب الطهى الفرنسية الكبرى: إسكوفيه ولاروس وكورنونسكى وبيلابار وسانت-أنج، فاكتشفت أن هذه المواجز الوافية تتعارض فى كل شىء تقريباً. كانت سيمكا وجوليا تختبران، كل فى مطبخها الخاص، النسخ المختلفة للأطباق الكلاسيكية ثم يخرجان نسختهما المميزة استناداً إلى النتائج.

بعدها تعدها جوليا وتترجمها للقراء الأمريكيين: طاب لى أن أرد كل طبق إلى مكوناته الأصلية؛ ومع بذل القليل من الجهد، ظننت أن هذا الكتاب بوسعه أن يحقق أيضاً نفس الشىء إنما على نطاق أشمل بكثير. لقد تعلمت الطهى فى سن متأخرة وعلمتْ من تجربتى المباشرة الإحباط الناجم عن محاولة التعلم من الوصفات المكتوبة بأسلوب ردىء.

هكذا أخضعت المؤلفات الطهى الفرنسى للمقاييس العقلية، ليس للقراء الأمريكيين وحسب إنما للفرنسيين أنفسهم. فقد افترضن احتمالاً بعيداً أنهم قد يتقبلون نتائج التعاون بين الطهى الفرنسى والطهى الأمريكى.

لم يكن متأكدات من أنهن سيجدن ناشراً أمريكياً لنشر مشروعهم الضخم بيد أنهن اجتهدن بكل نشاط وهن على قناعة أن مشروعهن معقول وسيشق سبيله بنفسه. انتهين فى اخر الأمر إلى دار نشر «هوتون ميفلين» ببوسطن. تبين محرر كتب الطهى بها من فوره أهمية إنجازهن إلا أن إدارة الدار أجمعت على أن ربة المنزل الأمريكية غير مستعدة بعد لتأليف كتاب جاد عن الطهى الفرنسى،

فدحضوا بذلك ادعاء الناقد الأمريكى «مينكين» القائل بأن أحداً لم يخسر قط نكلة عندما يبخس تقدير ذكاء الجمهور الأمريكى، إذ خسرت هوتون ثروة. تقدمت المحررة البصيرة جوديث جونز بدار النشر «كنوف»، بمعاونة مؤسس الشركة الكارد وحررا معاً المخطوطة تحريرياً يشع بالذكاء. توصلتْ كذلك إلى العنوان وظلت محررة جوليا حتى النهاية. سوف يصبح كتاب إتقان فن الطهى الفرنسى واحداً من أعظم إنجازات القرن العشرين والأعظم على الإطلاق بين كتب الطهى.

بينما كانت ثورة جوليا تنضج، ساهم الآخرون فى توسيعها وإثرائها: من خلال تشديد «أليس وترز» على المكونات الموسمية الأمريكية والمنتجات الحرفية ومن خلال دمج مصادر متعددة لمطابخ أخرى غريبة غالباً وطعومها وأساليبها الأصلية التى لا يعرفها الطهاة الأمريكيون من جيل جوليا. إلا أن ما نشرته جوليا بالأساس تجاوز نزعة عالمية ناشطة، فقد أرست معياراً للامتياز لأى مطبخ أمريكى فى المستقبل: معياراً يتجلى على سبيل المثال فى الخلاصة الجديدة المتذوق التى نشرتها هوتون ميفلين تكفيراً عن هفواتها السابقة، كما يتجلى حديثاً فى كتاب عشاء الأحد فى لاكس تأليف سوزان جوين التى احترمت بكل ذكاء معيار الامتياز الذى وضعته جوليا منذ نصف قرن وجسدت الحيوية والأصالة والاعتناق العريض لثورتها المتواصلة.

كانت جوليا تبلغ من العمر اثنتين وتسعين سنة وعلى وشك الموت عندما ألفت هذا الكتاب المبهر بمعاونة ابن أخيها. ولأن بول احتفظ بمذكراتها ومراسلاتها، استطاعت مع شريكها أن يرويا قصة متناغمة كل التناغم. لم أجد سوى مرة واحدة فقط تضارباً واضحاً. ففى فبراير ١٩٤٩، اتجهت وبول جنوباً إلى مدينة كان وتوقفا ليتناولا غداء شهياً فى الطريق، فلم يتمكنا سوى أن يتناولا عشاء بسيطاً بمدينة فيين حيث امضيا الليلة. فى عام ١٩٤٩ كان فيرناند بوينت - علّه كان أعظم الطهاة بفرنسا وقتذاك - لا يزال حياً يرزق ويطهو فى «لا بيراميد»، مطعم ذائع الصيت فى فيين حيث تدرب بول بوكيوس والأخـــوان ترويسجروس. من غير المحتمل ألا يكون بول قد رتب لتناول الغداء والاستمتاع هو وجوليا بعشاء حقيقى هنالك، فذلك أشبه بزيارة مدينة أجرا وتجاهل تاج محل. لعله أضمر بعض الأسباب منعته من الزيارة. لكن ما هى؟ ■

شـــــرح لى بـــــول
أن الطعـــــــام الجيـــــــد
فـــى فرنســــا يعتبــــر مزيجـــــا
مــن الرياضــــة القوميـــــة
والفـــن الرفيـــع

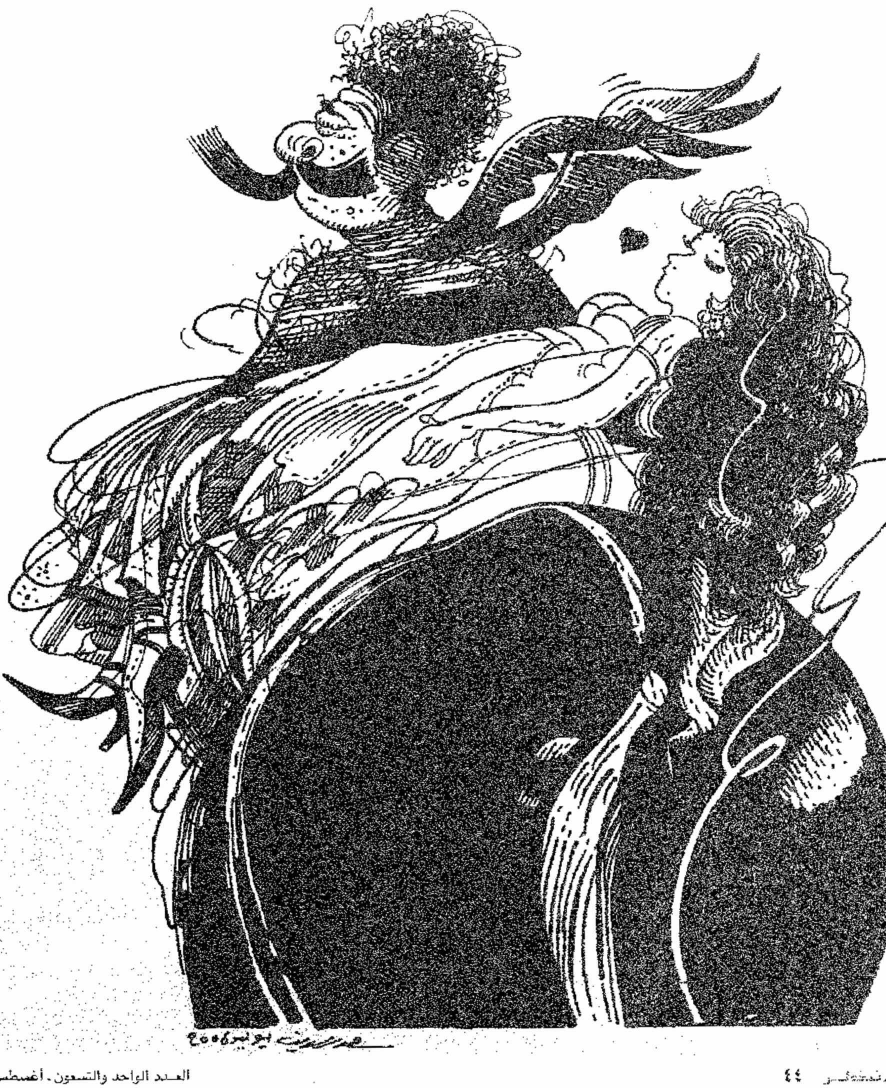



www.matcarpet.com

■■ وصفت يومًا في هذه الصفحات اجتماعًا للجنة النسائية لنقابة المحامين في سان فرانسيسكو عام ١٩٩٢، وقد بدأت السيدة التي ترأس **الاجتماع** بأن دعت إلى **الوقوف** كل من كانت أول امرأة تتولى رئاسة تحرير صحيفة مدرستها القانونية، أو أول امرأة تعين شريكًا أكبر في شركتها، أو تصبح عميدة مدرسة قانونية، أو تصبح قاضية منصة، وما إلى ذلك.. وأثناء قراءتها للقائمة وقفت مئات ومئات من السيدات، وهذا المشهد هو أحد الأمور التي تزعج هارفي مانسفيلد، وهو يدعي أن «حركة رجالية ستكون أكثر انقسامًا فيما بينها، إذ ينظر كل فرد إلى نفسه، ولا يبالي كثيرًا بالقضية العامة لجنسه» وهو يثبت فقطنته بوضع كتاب بأسره يروج فيه «للقضية العامة لجنسه». ويعترض مانسفيلد على ادعاءات اضطهاد المرأة بإصدار مرثيته بشأن اضطهاد الرجل، بل إن الناس يحاولون منع استخدام كلمة «رجولي»، وهو شيء يكفي لدفع الرجل إلى الصراخ.

ومانسفيلد - أستاذ كرسي ويليام ر. كينان للحكم في هارفارد - هو مترجم ماكيافيللي وتوكفيل، وهو أب روحي ستراوسي في دوائر المحافظين الجدد، ومرشد ويليم كريستول في هارفارد، وقد منحه الرئيس بوش الوسام الوطني للعلوم الإنسانية في عام ٢٠٠٤، وكان العضو الوحيد في كلية هارفارد الذي صوت ضد إنشاء برنامج لدراسات المرأة، وأصبح واحداً من أعنف المدافعين عن لاري سومرز رئيس هارفارد السابق الذي ألمح إلى أن المرأة منخفضة التمثيل في العلوم والهندسة في الأكاديمية بسبب نقصها الفكري، ويمكن اعتبار كتاب مانسفيلد الجديد صقلاً متبحراً لملاحظة سومرز.

رجـال.. أم



فئـــــــران؟!!!!!!!

جـــــــاري ويــــلـــــز

المـعـــيـــار المـــزدوج

ويتسم الكتاب بابتعاد غريب عن العالم الواقعي، فمانسفيلد، ككثير من الأساتذة، لا يرى شيئاً يدور حوله غير النظريات، وهو يعتقد أن المعيار المزدوج في الجنس يختفي، ويفسر صمويل جونسون منطق المعيار الجنسي المزدوج بملاحظة أنه إذا لم يستطع زوج ما الثقة في إخلاص زوجته فإنه لا يستطيع أن يعرف أن طفلها هو ابنه: «فالرجل لا يستطيع أن يفرض ولداً غير شرعي على زوجته». ومهما كان مدى صحة هذا الادعاء في أيامه، فقد أصبح أقل أهمية الآن.

١ - ففي مجتمع هرمي كمجتمع جونسون كانت الوراثة تشمل الألقاب (بما فيها الألقاب النبيلة)، وتستتبع حقوق ملكية؛ وهي أمور أقل أهمية في مجتمع ديمقراطي فـ «البنوة غير الشرعية» إن حدثت الآن لا تسبب ما كانت تسببه من خزي حين كان على البلدان أن تتحقق من «شرعية» الحكام والورثة والمنزلة.

٢ - كذلك لم تعد البنوة غير الشرعية اليوم مثار خوف كبير بعد توفر وسائل محسنة لمنع الحمل والإجهاض المشروع، وخاصة بالنسبة للطبقة الوسطى التي تؤثر فيها النسوية.

٣ - كما أن صغر حجم الأسر قلل من مشكلة البنوة غير الشرعية، لأن حياة الحضر، والحاجة إلى تعليم طويل الأمد، قد خفضت عدد الأبناء المطلوبين (شرعيين أو غير شرعيين). ولم تعد هناك حاجة لكثير من الأطفال لفلاحة مزرعة الأسرة. وقد لا يكون هذا صحيحاً بالنسبة للفقراء، لكن مانسفيلد ذاته يقول إن النسوية لا تؤثر إلا على الطبقة الوسطى.

٤ - ويعثر مانسفيلد جزئياً على سبب لعدم احتجاز المرأة فقط لأغراض الولادة والتربية، ويقول إن النسوية ربما كانت ببساطة تعبيراً عن الملل: «وبالنسبة لنا قد يكون الدفاع عن مساواة المرأة مجرد تزيين وإخفاء لحقيقة هي أن التقدم الحديث لم يترك للمرأة كثيراً تفعله في المنزل». ومرة أخرى تبين هذه الجملة مدى ضآلة صلته بالعالم الواقعي، حيث التحديات كثيرة «فيما تفعله المرأة في المنزل»، لكن من الصحيح أن المرأة التي يقل عدد أطفالها وترسلهم إلى المدرسة لم تعد تنفق جانباً كبيراً من حياتها في «الأمومة لطيلة الوقت». كما أن زيادة تكاليف المدرسة لكل أطفال الطبقة الوسطى، تزيد الحاجة إلى الدخل الإضافي، والإشباع الإضافي، الذي يؤثره العمل خارج المنزل، ويوسع المرأة أن تطلب المساواة التي كانت مغلقة أمامها بسبب المعيار المزدوج، وبمقتضاه كان الرجال يخشون أن حياة «في العالم» ستجعلهم أقل تأكداً من أن أولاد زوجاتهم هم أبناؤهم.

٥ - كذلك يكمن دائماً خلف تفسير جونسون للمعيار المزدوج قلق الذكور الذي وجد تعبيراً عنه في القلق الكلاسيكي وفي العصور الوسطى عن المرأة «التي لا تشبع» ويقرر مارك توين بوضوحه المعتاد الأساس البيولوجي لذلك فيقول إن للمرأة في أي سن «قدرة الشمعدان»، أما الرجل «فشمعته تزداد وهناً وضعفاً بفعل السن مع مرور السنوات، حتى لا تعود في النهاية قادرة على الوقوف، فتطرح في أسى لتستريح على أمل في بعث مبارك لا يأتي أبداً». وتعد الفياجرا - محاولة علاج هذا الوضع - شاهداً على صحة تعليق توين، وإلا لما حقق الدواء ما حققه من نجاح تجاري، ولسنا بحاجة إلى أي تمويه لبيان هذا الوضع.

هل النسويات تعيسات؟

ينغمس مانسفيلد في ماركية «رجولية» عن النسوية - أن المرأة قد حصلت على ما تريد، وأنها تعاني من ذلك، فهو في النهاية لم يجعلها أكثر سعادة، وإنما ببساطة حرمها مما كانت تتمتع به من قبل - الرجل الرجولي. فاليوم يبدو من المسلم به عموماً أن الحياد الجنساني هو الطريقة الوحيدة المشروعة للعيش - ومع ذلك فإننا لا نعيش على هذا النحو ويعني هذا أن لكل امرأة - أو من حقها - شكوى من رجلها ومن الرجال عموماً، وقد تدفعها حقيقة أن رجلها ربما لم يكن أسوأ من أي رجل آخر إلى الإذعان لمصيرها، أو لا يدفعها إلى ذلك، وفي أي الحالين فإنها لا يمكن أن تكون سعيدة في المجتمع الذي يفترض أنه حقق تحرر المرأة.

حسناً.. ما من تحسين في المجتمع سيجلب الهناء الكامل في عالم غير كامل، لكنني لا أكاد أعرف امرأة قد تود أن تعود ثانية إلى ظروف المرأة قبل أن تكسب حقوقها الأخيرة.

ولا يقدم مانسفيلد دليلاً على تأكيده أن المرأة «لا يمكن أن تكون سيدة في هذا المجتمع». وهناك مقياس تقريبي للسعادة - غير كامل بدوره لكنه أرسخ مما يزعمه مانسفيلد (وهو يعتبر «يزعم» كلمتي المفضلة)، فقد استقصى البروفيسور إدوارد لومان من جامعة شيكاغو - مع فريق من الدارسين الموقرين الآخرين - ٢٧٥٠٠ حالة من تسعة وعشرين بلداً عن رضاهم عن علاقتهم الجنسية من سن الأربعين إلى سن الثمانين. ووجدوا فجوة بين «نظم تساوي الجنسين» و«النظم التي تدور حول الرجل». وكانت «السعادة في الأولى أكثر منها في الثمانين. وليس بين النساء فحسب. ويقول جون ديلاماتر رئيس تحرير «الصحيفة الدولية لأبحاث الجنس»، الذي لم يكن عضواً في الفريق الذي أجرى هذا الاستقصاء، إن عوامل أخرى إلى جانب المساواة بين الجنسين - يمكن أن تفسر هذه النتائج - وعلى سبيل المثال الفارق بين البلدان المتقدمة والنامية، حيث يتوفر في الأولى تعليم وصحة ومعلومات عن الجنس أفضل.. إلخ. لكن اليابان التي كان معدل الرضا فيها هو أدنى بلد متقدم.

ويبدو أن متغير المساواة بين الجنسين هو الأفضل. وإن كان مانسفيلد يزعم أن النسوية تجعل المرأة أقل جاذبية جنسياً: «فهن قد يمارسن الجنس بحكم الواجب، ربما لصالح الحركة كلها، لكنهن كنساء لا يبدون شديدات الشهوانية». ويتعارض هذا مع الحس المشترك فضلاً عن استقصاء لومان، فالاحترام المتبادل هو أساس الاتصال الإنساني المجزي. وعلى حد قول الاستقصاء فإن «المثل الأعلى لعلاقات الرفقة يميل إلى التقييم إيجابي للقدرات والمصالح والأداء الجنسي بين شركاء الجنس الحميمين. وبعبارة أخرى فإن الجنس في علاقات الرفقة لا يخدم أغراضاً إنجابية فحسب، بل يعبر كذلك عن نوعية العلاقة». وزيادة إشباع المرأة يزيد إشباع الرجل.

الـــفـــروســـيـــة

يدعي مانسفيلد أن الرجولة تحترم المرأة، لكنه عنده احترام «من أعلى. حماية فروسية للضعيف «ففي أغلب الأحيان يخفي الجنتلمان تفوقه بسخرية فروسية، ويتظاهر بالإذعان لمن هم أدنى منه». وهذه الإيماءة الساخرة تعطي المرأة نوعاً من المساواة - «نوع المساواة الذي قد يتحقق للرجل حين يكون أرقى في بيته إذا كان أدنى في عمله». لكن الرجل الرجولي - الجنتلمان - ترك مكانه الآن «للذكر الحساس» الذي أصبحت تفرعه النسويات». «وفي مقابل أن يكون الرجل رجولياً فإن الدفاع عن الرجولة يتطلب أن ينظر الرجل للمرأة في عينيها ويقول لها إنها أدنى في بعض الجوانب الهامة، ولا يستطيع الرجل أن يفعل ذلك اليوم». ويحن مانسفيلد إلى يمينيات اسبينوزا، الذي يعادل بين القوة والحق، ويقول للمرأة إنها لأنها تفتقر إلى الأولى فليس لها حق في الثاني. ويعلق مانسفيلد قائلاً «فهذا رجل مستعد للنظر إلى المرأة في عينيها، ويخبرها بما تستحق».

وهذه الواقعة هي أساس رومانسية مانسفيلد؛ فما أن تعترف المرأة بدونيتها حتى يهرع «الجنتلمان» إلى الدفاع عنها، وبطل كتابه هو أدموند بيرك الذي يقول إن السيوف كان

لم تعد البنوة غير الشرعية اليوم مثار خوف كبير بعد توفر وسائل محسنة لمنع الحمل والإجهاض المشروع، وخاصة بالنسبة للطبقة الوسطى التي تؤثر فيها النسوية

Manliness

(رجــولة)

Harvey C. Mansfield

Yale Univerity Press, 289PP., $ 27.50

بترتيب مع

The New York Review of Books

ترجمة: محمد مستجير مصطفى

يجب أن تشب من أغمادها حين سجنت ماري أنطوانيت.

ويدافع مانسفيلد عن موقفه بالبحث في الأدب والفلسفة، وكلاهما يدرس خلال عدسة تركز على «الرجولة»، وتتبدى الطبيعة الزائفة لرجولة مانسفيلد بالطبيعة الصبيانية للنصوص الأدبية التي يتحول إليها لإيضاحها، إذ تقدم إلينا نظرات من الدرجة الثانية من أدب من الدرجة الثانية، من «العجوز والبحر» و«كنوز الملك سليمان» و«كتاب الأدغال» و«الدكتور جيكل والمستر هايد» و«الزوج المثالي» و«رجل بالكامل». ومن الغريب أنه يتهم أنصار النزعة النسوية لأنهن «يفضلن مؤلفات مغمورات عن أسماء عظيمة مثل جين أوستن واريث وارتون». ولابد أنه لا يعرف أي نسويات.

لكنه على أي حال ليس الرجل الذي يحق له أن يقول للآخرين إنهم يقرأون كتابات من الدرجة الثانية. ففي المرات القليلة التي يرجع فيه إلى أدب عظيم فإن ما يقوله تشوهه أفكاره المسبقة، فنحن نعرف قلق آخيل على بريسيس، لكن حب آخيل لباتروكلوس هو الذي يعود به إلى القتال «الرجولي» والموت. وبالنسبة لرجل يهتم هذا الاهتمام بالأفكار الكلاسيكية فإن مانسفيلد يصمت صمتاً غريباً عن موضوع الجنسية المثلية، لقد كان أكثر المحاربين القدامى رجولة هم الاسبرطيون، الذين كانوا يقاتلون وإلى جانبهم عشاقهم الذكور، فهل هم مثله الأعلى للرجولة؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا يصمت عنه؟ وإذا لم يكونوا فينبغي أن يخبرنا لماذا لا يتزوجون، وهو يتحدث عن أفلاطون وعن المفاتن الشهوية للفلسفة، لكنه لا يشير أبداً إلى مفهوم أفلاطون عن المثلية الجنسية كخطوة في السلم المؤدي للمثل الأعلى.

وحين يستشهد بأرسطوفان فلكي يقول إن «إيكل سيازوساي» حيث يجبر الرجال على مغازلة نساء مسنات قبيحات - «ربما يعطينا لمحة عن الفعل الإيجابي المقبل». والواقع أن معرفة مانسفيلد بالأدب الكلاسيكي موضع شك، فهو يعتقد أن الكلمة اليونانية للرجولة هي «ثايموس» - التي تعني بدقة أكبر «الحيوية» بمختلف درجاتها - ويريد مانسفيلد للكلمة أن تعني أساساً «العدوانية»، وهي ما تعطيها بشكل أفضل كلمة «هيريس»، والمصطلح الذي يستخدمه أرسطو للرجولة هو «أندريا» - وهو اسم مكون من كلمة رجل «انيرخ». ولن يخدم هذا مانسفيلد، لأنه يريد من الرجولة أن تكون غير عاقلة وأنديريا تعني الوسطية المعقولة تماماً فيما بين الجبن (فوبوى) والتهور (ثارهى). ويقول أرسطو إن «الثايموس» غير عاقلة، ومن ثم فليست فضيلة للرجل، فالوحش لديه «ثايموس» - وليست لديه رجولة، لكن الجانب غير العاقل للثايموس هو ما يعجب به مانسفيلد.

التحكم العقلاني

لماذا يقف مانسفيلد ضد العقل؟! إنه يعتقد أن التحكم العقلاني قد أوهن الرجولة في حضارتنا، التي حولت رجالنا إلى فئران «فما من رجل في عصرنا يجرؤ على أن يسخر من النسويات، كما كان الرجال يفعلون مع داعيات حق الاقتراع منذ قرن مضى». لقد «انقلب الأب السائد واستسلم بإذعان» وأخلى الإعجاب بالرجل الحقيقي مكانه للتعاطف مع «الذكر الحساس»، لقد خسرنا البطل: «وحين نعجب به (بالبطل) فإننا نعجب بأنفسنا، لأن لدينا شخصاً أو شيئاً نتطلع إليه». وقد حدثت النسوية في المجتمع خلال تجميعه من الأشياء السيئة - العلم والتكنولوجيا والحرفية وحكم الجدارة والنزعة التجارية والحداثة والديمقراطية - كلها تؤدي معاً إلى التحكم العقلاني في الحياة.

١ - فالعلم يتعامل مع متوسط لا وجه له وليس بطولياً ولا استثنائياً «والدراسات العلمية التي تبحث عن المتوسط تفضل الأفضل»، وفي هذا «يكتسب العلم سمعة خدمة الإنسانية بمعارضة الحس المشترك» والعلوم الاجتماعية هي الأسوأ من بين كل العلوم، فالعلم الاجتماعي قد ابتدع فكرة القوالب ذاتها لكي يفند التحيز المشترك، وهو لا يريد فحسب أن ينكر على التحيز وضع الحس المشترك، بل أن يبقيه بعيداً عن الحوار السياسي، الذي سيدور من ثم بين افتراضات علمية فحسب، والعلوم الاجتماعية لا تصغي - كقاعدة - للتحيز، وبمصطلحات مثل القوالب تحكم مسبقاً على حقيقة الرأي غير العلمي، إنها متحيزة ضد التحيز ويجلب العلم التحكم العقلاني بإلغائه للمصادفة والمخاطر وكل ما تتطلبه الرجولة: ففي حالة الطبيعة من حق كل رجل أن يكون معتدياً رجولياً ضد كل شخص آخر، أما في المجتمع المدني (أو الكومنولث كما يدعوه هوبز) فعليه - بعد أن نحى هذا الحق - واجب أن ينسى رجولته ويصبح اجتماعياً أو حساساً أو عقلانياً أو بلا رجولة، وهكذا يتحمل هوبز اللوم لأنه «خلق الذكر الحساس». ولا يفلت داروين من اللوم بدوره، فالانتقاء الطبيعي يتبع مبدأ تكيف نسوي وليس تحدياً رجولياً. «ورغم أن الناس يبقون بمهاجمة عدو فإن الأنواع تبقى «بالتكيف».. فالأكفأ هو الأكثر مرونة». وحتى ماكيافيللي يوجد في تكوينه علم أكثر مما يجب «فمع ماكيافيللي ولدت فكرة «الأمن» الحديث، وهو النقيض الكامل للرجولة».

٢ - التكنولوجيا: يستخدم العلم التكنولوجيا لضمان رفعة شأنه في حياتنا «ولم يعد على العلم أن يتعايش مع الصرخة، مما يسمح بصلة العلم المحدودة بالحياة البشرية، وإنما هو يستطيع الآن بالتكنولوجيا أن يتغلب على الصدفة، وأن يحقق تحكماً حقيقياً، وصلة كاملة بالحياة البشرية».



٣ - الحرفية: والحرفية تؤهل الناس بالقواعد لا بالمبادرة الرجولية وهذا هو السبب - كما يقول مانسفيلد - في أن ضابطة الشرطة في فيلم «فارجو» تصيب الناس في وظائفهم، فإذا عمت الحرفية كل الحرف والمهن نستطيع أن نقول إنها جعلت من الممكن تجاوز الرجولة بمعنى تركها إلى الخلف.. ولكن هنا أيضاً هل يمكن أن نستبدل بالرجولة شهادة دكتوراة في التحكم في الحشود؟ وهل يمكن إضفاء طابع حرفي على الرجولة؟

٤ - حكم الجدارة: وحكم الجدارة من جوانب الحرفية الأخرى، أوراق اعتماد المحترف، «فأصحاب الجدارة لا رجوليون بقدر ما يعتقدون أن من الضروري الاعتراف بفضلها وتعزيزها من خلال نظام تعليمي يؤدي لهم وظيفة فرض الذات الرجولية بإعطائهم تكريمات ليس من حقهم المطالبة بها أو القتال من أجلها».

٥ - النزعة التجارية: «فالتجارة غير رجولية لأنها مادية تميل إلى أن تسعى إلى الربح لا إلى النصر، وإلى المقايضات لا إلى العدالة. وترفض الحياة التجارية التضحية وتقوم على حساب الأرباح».

٦ - الحداثة: ترشدنا النزعة التجارية بما توفره كمزايا للحداثة. و«الحداثة في تكريسها للمصلحة الذاتية لا تعبأ كثيراً بالرجولة بتعطشها إلى المخاطر» «غير أن مؤسسة الحداثة بأسرها يمكن أن تفهم على أنها مشروع لإبقاء الرجولة دون استخدام».

٧ - الديمقراطية: يدعي مانسفيلد أن «الديمقراطية» بدورها يمكن أن تفهم كشيء معاد للرجولة، لأن «الديمقراطية معادية للرجولة بقدر ما تتعاون مع التقدم الحديث في التحكم العقلاني». «وقد كان هدف الليبرالية الحديثة هو الدولة العقلانية».

٨ - ويطرح التحكم العقلاني ذاته كانتصار للديمقراطية: «فالتحكم العقلاني يخشى من عرض نفسه مما يجبره على تولي المسئولية عن حكمه، ومن ثم فإنه يدعي أنه إنما يمثل من يتحكم فيهم». «والتحكم العقلاني يفضل الروتين ولا يحب أن يستثار، والتحكم العقلاني هو النقيض التام للثايموس، وبالتالي فإنه الشرير الرئيسي في الكتاب».

النزعة النسوية

ما صلة كل هذا الاستنكار للعالم الحديث، بالنزعة النسوية، إن مانسفيلد يعتبر النسوية شيئاً جديداً، لكنه يفضح

الأهمية المتزايدة - عبر القرون - للتحكم العقلانى، ويعود به إلى ماكيافيللى.

ومن يلقى عليه اللوم عن التحكم العقلانى لم يكونوا نساء أو من دعاة ثقافة المرأة. وما يعتقد أنه يفسره هو حضارة الإخصاء التى جعلت الرجال يستسلمون للنسوية، وقد استغرق التحكم العقلانى وقتاً طويلاً لكى يؤدى إلى هذا الإخصاء. ولكن حين وصلت النسويات فى النهاية إلى السلطة لم يجدن رجالاً راغبين فى الوقوف أمامهن، وحدث استسلام عاجل: فلم يكن بوسع الرجال أن يفلتوا منه، فقد تم التحكم العقلانى فى رجولتهم بحيث تبخرت.

ويزعم مانسفيلد أن من السخريات أن الرجولة التى تخلى عنها الرجال قد هاجرت إلى المرأة، وكان إلهامها الشخصى الوحيد الذى لا يمكن حتى لمانسفيلد أن يقبله فالثايموس، باعتباره لا عقلانياً فى حاجة إلى أن يراقب، وينبغى أن تأتى هذه المراقبة من خارجها؛ لأن الثيموس لا ينظم نفسه بذاته مثل «أنديريا» أرسطو. وكان نيتشه وحده - فى رأى مانسفيلد - هو الذى ترك الثيموس يثور كلية بلا كابح؛ ورغم هذا فإنه الرجل الذى اختارته المرأة قائداً لها، وكان بوسعها أن تجرى ما يعتبره مانسفيلد خياراً أحكم، كان بوسعها أن تسترشد بكتاب جون ستيوارت ميل «إخضاع المرأة».

ولكن ماذا فعلت النسويات؟ لقد رفضن هذا الذكر العاقل الحساس - الذى يتضح فى النهاية أنه إمعة - وأولعن بفريدريك نيتشه الرجولى المجنون. كان نيتشه يرتدى زى النساء مثل سيمون دى بوفوار لكنه يظل نيتشه.

كم من مئات النساء اللاتى رأيتهن يقفن فى اجتماع نقابة المحامين الأمريكية كانت تحمل فى حقيبتها كتاب «هكذا تكلم زرادشت»؟ وحين يقول مانسفيلد إن مساواة المرأة قد حلت للمرة الأولى محل نظام الأبوة فى عالمنا، فإنه لا ينظر إلى النساء الحقيقيات اللاتى أنجزن ذلك، وإنما إلى بضع منظرات ليس لهن تأثير كبير، إن كان لهن تأثير أصلاً، على النساء اللاتى تزوجناهن وعلى قريباتنا. وهو يعترف فى وقت ما بأن «النسوية الراديكالية التى ناقشتها ليست ما تؤمن به معظم النساء أو تمارسنه، لكنها النسوية الوحيدة الموجودة» (التأكيد لنا). لكنها ليست كذلك، إنها النسوية الوحيدة الموجودة إذا اخترت أن تكون الوحيدة التى تراها، ومانسفيلد أقرب إلى أن يزعج نفسه برؤى عن النيتشويين المجانين من أن ينظر إلى أن مثل العدالة والمساواة تبررها فى مجتمعنا كله نساء يعشن حياة أكثر ثراء، وبذا يثرين حياة الرجال.

والسخرية الحقيقية فى هذا الكتاب هى أن مانسفيلد يعتقد أنه لا شىء يهم سوى الأفكار، ومع ذلك يكره كل الأفكار المرتبطة بالمجتمع الحديث. فأين رأينا من قبل هذا الاستنكار للعلم والليبرالية والحداثة؟ يصف ريتشارد هوستارتر هذا الأمر نفسه حين يناقش عداء مذعورى العشرينيات للفكر: ويستطيع الآن أن يلمح بينهم ظهور أسلوب دينى تشكله رغبة فى رفض كل ما هو حديث - النقد الرفيع والتطورية والتحصيل الاجتماعى والنقد العقلانى من أى نوع. وفى هذا الاتحاد بين رد الفعل الاجتماعى واللاهوتى أرسى أساس العقلية مائة فى المائة (التأكيد لنا).

ومانسفيلد يقف ضد كل ما هو حديث، وهو يمثل كاريكاتير للمحافظ الذى يعتقد أنه لا شىء ينبغى أن يتغير حين يقول إن النظام الأبوى قد ساد فى كل وقت وكل مكان، ومن هنا يجب عدم التخلى عنه - فالنسويات فى نهاية الأمر «لا يفسرن لماذا سيطر النظام الأبوى فى كل مكان حتى الآن»، إنه نموذج المفكر المعادى للفكر والمذعور «الرجولى».

وهو يثبت هذه النقطة الأخيرة فى نهاية الكتاب تماماً، وقد أثنى النقاد المحافظون على مانسفيلد لشجاعته فى مواجهة المرأة الغاضبة. وتصفه كريستينا هوف سومرز الباحثة القيمة فى معهد إدارة الأعمال الأمريكى على هذا النحو: «وفى هذا العالم يخطو البروفيسور مانسفيلد، منتشياً حتى الثمالة، ومسلحاً تسليحاً قاتلاً بكل القوالب التى كان يعتقد أنها محظورة فى المجتمع حسن التفكير»، لكنه بعد أن يلطم صدره مئات الصفحات عن الرجولة، صائحاً «أنحن رجال أم فئران»، ينزلق بهدوء إلى مرتبة الفئران؛ وهو يعترف بأنه ما من طريق لقلب حركة المساواة فى الحقوق، ويقول إن علينا أن نخلى المجال العام للمرأة ونحاول أن نبقى على قدر من السيطرة على الحياة الخاصة، وفى حين أننا نعرف أن المرأة ليست مساوية فسيكون علينا أن نتظاهر أنها متساوية فى المجال العام، لأن «الرجل بطبيعته أحادى التفكير، ومن ثم يتسم بروح عامة أكبر من المرأة، ولكن دعونا لا نقول ذلك فى القانون». فحين نصل إلى نقطة اتخاذ موقفه النهائى فسنجد أنه موقف نفاق، عدم تأكيد الذات.. أهذه رجولة؟ ※

الشق الأفضل!

نادر فرجانى

※※ الزعم الأساسى هنا هو أن إقصاء النساء عن مجالات الفعل البشرى، خاصة فى ميادين الإبداع، يعطل النشاط البشرى لدى النصف الأفضل، إمكاناً على الأقل فى بعض مجالات النشاط البشرى، إن أتيحت له الفرص المتساوية، من البشرية، ومن ثم فى المجتمع بأسره. وبناء عليه تهدر المجتمعات التى تهمش النساء فرص التنمية الإنسانية فيها. ويستند هذا الزعم إلى الحجج التالية:

أولاً: لا يثور خلاف فى أن حرمان النساء من القدرات البشرية، ومن القدرة على الإبداع والإنتاج بوجه خاص، يحرم المجتمع، كمياً، من إبداع ما يقارب نصف الناس فيه.

ولكن يتفاوت معمار المخ البشرى حسب الجنس/ النوع[1] بما ينشئ علاقة محددة بين البيولوجيا وهوية النوع (الاجتماعى).

ثانياً: من حيث النوع، يستقر فى الأدبيات العلمية الأحدث أن للنساء قدرات مميزة عقلية (راجع قائمة المراجع الخاصة بالقدرات العقلية للنساء) تعود أولاً، لقوة الترابط بين فصى المخ، مما يؤدى إلى إمكان أعلى للنشاط المتزامن فى فصى المخ عند النساء (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٥٠- ٥١) و(جيبيكى وآخرون، بالإنجليزية، ١٩٩٣). ومن ثم القدرة الأفضل على توظيف المنطق والحدس، كليهما، فى اتخاذ القرار والإبداع كليهما. ويتفرع عن هذا الفرق تفاوت ملحوظ فى شدة نسبية فى حواس اللمس والتذوق والشم والسمع لدى النساء.

يسمى حزام الأنسجة الذى يربط نصفى المخ الأيسر والأيمن، الكتلة الوسيطة massa intermedia، وتدل الدراسات على أن هذه الكتلة أكبر، فى المتوسط وبفارق معنوى، عند النساء عن الرجال. فعلى الرغم من أن كتلة مخ الرجل تزيد عن كتلة مخ المرأة، فإن الكتلة الوسيطة تزيد عند النساء، فى المتوسط، بأكثر من النصف (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٤٩) و(ويتلسون، بالإنجليزية، ١٩٩١).

وليس غريباً والأمر كذلك، أن استقر أن للنساء قدرات وجدانية متميزة، تستمد أساساً من هذه القدرات العقلية المميزة لهن، وتزداد أهميتها على خلفية بروز مفهوم تعدد الذكاوات و«الذكاء الوجدانى»[2] emotional intelligence عوضاً عن المعانى التقليدية للذكاء[3].

وتدل الدراسات على وجود فروق مهمة بين الجنسين فى عديد من مناطق المخ. حيث يمتلك الرجال، فى المتوسط، قدرة أفضل فى مناطق المخ، البدائية التكوين، المتصلة بالحركة بينما تمتلك النساء، فى المتوسط، قدرات أفضل فى مناطق المخ، الأحدث تطوراً، والمتصلة بالبنى الرمزية، مع مجال واسع من التداخل، بحيث يزيد التباين داخل كل جنس عنه بين الجنسين (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٥٢-٥٣، ١٣١) و(جون بالإنجليزية، ١٩٩٥). وعلى وجه الخصوص، تمتلك النساء، فى المتوسط، قدرات لغوية أفضل، مما يمكن أن يسهم، بالإضافة إلى التوازن الأفضل بين فصى

الشِّــق الأفضل!

المخ، في تفسير قدرتهن الأكبر على الحدس.

ويتمثل الجنسان الفضاء space ثلاثي الأبعاد بشكل مختلف، فيعتمد مخ المرأة أكثر على القص (الحكي) والعلامات المرئية بينما يفضل مخ الرجل تركيب المتجهات vectors التي تعلم المسافات والتوجه بين نقطة في الفراغ وأخرى (نادو، ١٩٩٦، بالإنجليزية، ٥٦) و(بيفر، بالإنجليزية، ١٩٩٦)

وهكذا فإن هناك جانبا من الذكاء الإنساني، ما يسمى الذكاء المكاني spatial intelligence يتفوق فيه الرجال في المتوسط على النساء، مما يدعو إلى نظرة متوازنة تقوم على أن خير البشرية يستدعي تكامل القدرات البشرية للنساء والرجال كليهما، مع احترام الفروق بينهما، وتوظيفها بكفاءة في بناء التنمية الإنسانية.

وتعود القدرة المخية الأفضل للنساء، ثانيا، إلى قدرة عقل المرأة، كما في الحواسيب الإلكترونية المتقدمة، على «تعدد المهام multi-tasking»[٤] الذي يبدو للرجال -نتيجة لافتقاد نسبي للقدرة ذاتها- على أنه ضعف في القدرة على التركيز أو تشوش، بينما هو في الواقع قدرة أعلى على إدارة المواقف المعقدة.

وليس غريبا، والأمر كذلك، مثلا ألا يقل إنجاز البنات في التحصيل التعليمي، خاصة في اكتساب المهارات، عندما تتاح لهن الفرص متكافئة، عن أقرانهن من الصبية، بل يتفوقن عليهم في أحيان، حتى أضحت البنات نخبة المتعلمين في كثرة من البلدان العربية، كما سيظهر من الفصل الثاني.

المخ البشري إذًا ليس صفحة بيضاء تسطر عليها البنى الثقافية خاتمها. إذ يعيد كل من الرجل والمرأة تركيب هذه البنى بشكل مختلف نتيجة لفروق في معمار المخ وما يترتب عليها من فروق في الجهاز الحسي (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦، ٩٦). بعبارة أخرى، يترتب على الصلة بين البيولوجيا وهوية النوع أن المجتمع الذي تسوده المساواة بين الجنسين لا يمكن أن يكون محايدا بين النوعين (نادو، بالإنجليزية، ١٩٩٦).

ثالثا: للنساء، على خلاف الوهم الشائع بضعف النساء، في المنظور العضلي القاصر[٥]، قدرات جسدية أفضل من الرجال.

فمن الثابت علميا الآن أن النساء أكمل من الرجال وأقوى، فسيولوجيا[٦]، بما يسمح لهن بداية بامتلاك القدرة على أعقد العمليات الحيوية في الجنس البشري، أي الحمل والإنجاب.

يسمح هذا التميز الجسدي للنساء بالعيش حياة أطول في المتوسط، حين تتاح لهن فرص متساوية في الغذاء والرعاية الصحية طبعا[٧].

كل هذه الخصال ترتب للنساء، عند إطلاق طاقاتهن التي تحبسها عادة المجتمعات المتخلفة، ميزات مهمة في مجالات الإبداع ومختلف شئون الحياة.

رابعا: حيث التنوع أساس جوهري لحفز الإبداع من خلال التلاقح cross fertilisation، فإن غياب النساء من حلبة الفعل البشري عامة، والإبداع خاصة، يؤدي لفقر إبداع الرجال أنفسهم، أي، في النهاية، فقر إبداع المجتمع بكامله.

ومن ثم، فإن حرمان المجتمع من إبداع النساء، يحرم المجتمع، من إبداع نصفه الأفضل إمكانا، على الأقل في بعض جوانب النشاط البشري. وبهذا تتعدى خسارة المجتمع ككل من إضعاف قدرات النساء الإبداعية، مجرد نصف كم الإبداع المنتظر من أفراده. ولكنها تعني في حقيقة الأمر الحرمان من القسم الأرقى، إمكاناً، من الإبداع البشري بكامله.

خلاصة القول أن النساء لسن ناقصات، لا عقلا ولا جسدا. هن بالتأكيد مختلفات عن الرجال. ومن نواح كثيرة أشرنا إليها، إلى الأفضل!

وتفضي الصياغة الإيجابية للمقولات السابقة إلى أن نهوض المرأة شرط لحفز الإبداع والتنمية الإنسانية في المجتمعات البشرية عامة، وفي البلدان العربية خاصة حيث يستشري تهميش النساء.



لكن اكتسب تفاوت الأدوار الإنجابية الرجال، لا شك، ميزة غير عادلة على النساء في المجال العام. وسمحت هذه الميزة للرجال بتشكيل الرؤى الثقافية التي أضفت الشرعية على الهيمنة الذكورية. ■

هوامش:

(١) يعبر «الجنس» عن الفروق البيولوجية-الفسيولوجية في الجسد. و«النوع» عن السلوك المكتسب، وموقعه العقل mind.

(٢) لا يعني الذكاء الوجداني، الحساسية العاطفية. وتتفاعل في تكوين الذكاء الوجداني قدرات متعددة، بعضها نفساني والآخر اجتماعي، تشمل ضبط النفس، والتحكم في المزاج، والحماس، والمثابرة، وحفز الدافعية الذاتية، وإرجاء الإشباع، ومنع الإحباط من تعطيل القدرة على التفكير، وإعلاء الأمل، والتعاطف مع الآخرين. ويتمير أنصار الذكاء الوجداني إلى أن الذكاء التقليدي، مقاساً بنسبة الذكاء، ليس قميناً بتحقيق النجاح في الحياة، حيث يحقق بعض محدودي الذكاء، بالمقياس التقليدي، نجاحات باهرة بينما يفشل بعض من مرتفعي نسبة الذكاء ذريعاً.

(٣) بمعنى التفوق الرياضي والمنطقي واللغوي IQ. وقد عرّف «هوارد جاردنر» (١٩٨٣) سبعة صنوف أساسية من الذكاء: اللغوي، والموسيقي، والمنطقي-الرياضي، والمكاني، والجسدي- الحركي، والنفساني (التبصر- المعرفة الوراثية) intrapersonal والاجتماعي (العلاقات ما بين الأشخاص) interpersonal. وفي معين الذكاء لشخص محدد تمتزج هذه الصنوف الأساسية كلها بنسب متفاوتة، في مزيج فريد خاص بها (به).

(٤) من الرجال، من لم تدهشه مثلا قدرة النساء على متابعة حديثين في موقعين مختلفين في وقت واحد، أو- وهو مثل تقليدي في الأدبيات عن الموضوع- على الرد على مكالمة هاتفية أثناء إعداد الطعام وإرضاع طفل في آن؟

(٥) الذي يكتسب مصداقية فقط في منظور العصر الحجري للبشرية، أما في عصر المعرفة فحري أن تصبح القدرات المخية هي معيار التفضيل النسبي بين أفراد الجنس البشري.

(٦) يتبدى هذا حتى في اختيار رمز مورثات الجنس، وهي بالإنجليزية X و Y، وليس الرمز الثاني، الخاص بالذكور، إلا الأول منقوص ضلعاً، عما يجافي الخرافة الشائعة بإتيان المرأة من «ضلع ناقص». والحق، فسيولوجيا، أن الرجل، جسديا، هو تكوين منقوص، بالمقارنة بالمرأة، نتيجة لغياب القدرة على الحمل والإنجاب، وهي القدرة الجسدية الأعقد في الجنس البشري. إذ تستطيع المرأة أن تحمل وتغذي الجنين الذي ينمو معتمدا على جسمها وما يوفره له من مكونات النمو مثل الكالسيوم للعظام والفيتامينات وغيرها. وأثناء الحمل يكون قلب الأم مطالبا بضخ الدم في جسدها وجسد الجنين سويا، ولذلك فإن قلب المرأة يعد أقوى من قلب الرجل أثناء فترة الخصوبة، مما يجعلها أقل عرضة للإصابة بأمراض القلب والشريان التاجي، ويعزى ذلك إلى وجود هورمون «الاستروجين» في دم المرأة خلال فترة الخصوبة.

ويتيح التركيب «الكروموسومي» أيضا مزايا للنساء، حيث تتمتع النساء بزوج من «كروموسوم» X، الذي يلعب دورا مهما في دعم جهاز المناعة، حيث يمكّن من إصلاح العيوب الوراثية التي قد تلحق بأحدهما وهو ما لا يسمح به التركيب المقابل في حالة الذكور الذين لديهم واحد من كل من الكروموسومين: X و Y. والنتيجة هي قدرة مناعية أفضل للإناث.

وتتوافر دلائل أخرى على التفوق الفسيولوجي للإناث. فبينما تتخلق النطفة ذكرا بمعدل ١١٥ لكل ١٠٠ أنثى، تتعرض الأجنة الذكور للإجهاض بمعدلات أعلى من الإناث. وتكشفت علاقة طردية بين هرمون الذكورة «تيستستيرون» وارتفاع معدلات «الكوليسترول» السيئ وأخرى عكسية مع «الكوليسترول» الجيد، بينما يبدي هرمون الأنوثة «إستروجين» ارتباطات عكسية، ويخفف بالإضافة من تأثير الخلايا المؤكسدة free radicals.

(٧) بينما يتوافر من الدراسات السكانية دليل على أن الممارسة الفعلية حين تحرم البنات والنساء من الرعاية الصحية والاجتماعية التي تسبغ على الصبية والرجال في المجتمعات «الذكورية»، تؤدي إلى مستوى أدنى من الصحة، وأعلى من الوفاة، بين البنات والنساء (مثلا، سن، ١٩٩٩). ولعل أشد أشكال هذه التفرقة ضراوة هو وأد البنات عند عرب الجاهلية، الذي حرّمه الإسلام قطعا، ونظيره المعاصر هو ممارسة إجهاض الأجنة الإناث في بعض المجتمعات المتخلفة والذي يستغل، للعجب، أحد منجزات العلم الحديث بإمكان التعرف على نوع الجنين قبل الميلاد.

أنّ المستبدّين والطغاة في ألف ليلة وليلة، رجالاً ونساءً، كانوا يجدون لذّة في تعذيب الناس وقهرهم، وكان يحسّون بالرضى يملأ نفوسهم، وهم يشاهدون الناس البسطاء يفرّون مذعورين أمامهم

نساء القصر في ألف ليلة وليلة

محمد عبد الرحمن يونس

[١]

* ليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة مستبدات طاغيات فحسب، بل يوجد فيهنّ الزواني اللواتي يخنّ أزواجهنّ كلما سنحت لهنّ الفرصة بذلك، فهنّ يخطّطن لهذه الخيانة ويحتلن على أزواجهنّ ليذهبن إلى عشاقهنّ، وبخاصة إذا كانت هاته النسوة مُتَخيَّلات، وغير معروفات في الواقع التاريخي، مع العلم أنّ هؤلاء الأزواج، كما يصوّرهم الرواة، أوفياء لهنّ، ومؤمنون تقاة في بعض الأحيان. ففي حكاية «الحشّاش مع زوجة أحد الأكابر» يصوّر الراوي زوجة أحد الرجال المهمّين في حقل السلطة، بصورة المرأة الزانية التي تنتقم من زوجها شرّ انتقام، لأنّها ضبطته يزني بإحدى جواريها، إذ أقسمت يميناً بأنّها ستنتقم منه، وتزني مع أقذر الناس وأحطّهم منزلة. تقول المرأة: «اتّفق أنّني كنت أنا وإيّاه قاعدين في الجنينة داخل البيت، وإذا هو قد قام من جانبي وغاب عنّي ساعة طويلة، فاستبطأته. فقلت في نفسي لعلّه يكون في بيت الخلاء، فنهضت إلى بيت الخلاء. فلم أجده، فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألتها عنه فأرتني إيّاه وهو راقد مع جارية من جواري المطبخ، فعند ذلك حلفت يميناً مغلظة أنّني لا بدّ أن أزني مع أوسخ الناس وأقذرهم». عندها تخرج المرأة بصحبة خدمها وحرّاسها ليجوسوا خلال الشوارع والأزقّة باحثين عن طلب المرأة وما إن يشاهدها الناس حتّى يفرّوا مذعورين من بطشها. يقول الحشّاش: «فوجدت الناس هاربين، فقال واحد منهم: ادخل هذا الزقاق لئلاّ يقتلوك. فقلت: ما للناس هاربين؟ فقال لي واحد من الخدم: هذا حريم لبعض الأكابر. وصار الخدم ينحّون الناس من الطريق قدّامها، ويضربون جميع الناس ولا يبالون بأحد».

ويمكن أن يتساءل متلقّي الحكاية: طالما أنّ المرأة السلطوية تخرج باحثة عن رجل وسخ لتزني به، انتقاماً من زوجها الزاني، فما ذنب هذا القطاع العريض من الناس الذي يتجوّل في الشوارع باحثاً عن لقمة عيشه، حتّى يبتعد مذعوراً عن طريق هذه المرأة المستبدّة، وحتّى يُهان ويُضرب، من دون أن يرتكب أيّ ذنب؟. يبدو أنّ المستبدّين والطغاة في ألف ليلة وليلة، رجالاً ونساءً، كانوا يجدون لذّة في تعذيب الناس وقهرهم، وكان يحسّون بالرضى يملأ نفوسهم، وهم يشاهدون الناس البسطاء يفرّون مذعورين أمامهم، ويبدو أنّ هذا الفرار كان يعزّز لديهم هذا الغرور الأحمق بعظمتهم ومكانتهم السلطوية. فالاستبداد يضعف الأخلاق الحسنة أو يفسدها أو يمحوها. ومن هنا فإنّ المستبدّ الذي تضعف أخلاقه أو تفسد، لا يهمّه إن أُهين شعبه أو قُهر جرّاء أفعاله الاستبدادية. فالمرأة المستبدّة زوجة لأحد رجال السلطة المهمّين، وقد سمحت لخدمها بضرب جميع من يمشي في الشارع الذي تمشي فيه، وأمرت خدمها أن يهينوا الحشّاش، ويربطوه، ويأخذوه عنوة إلى منزلها: «وإذا بالطواشي جاء إليّ وقبض عليّ، فتهاربت الناس. وإذا بطواشي آخر أخذ حماري ومضى به. ثمّ جاء الطواشي وربطني بحبله وجرّني خلفه. وإذا لم أعرف ما الخبر، والناس من خلفنا يصيحون ويقولون: ما يحلّ من الله، هذا رجل حشّاش فقير الحال ما سبب ربطه بالحبال؟».

وقد يكون راوي الحكاية السابقة أضفى على سلوك المرأة نوعاً من الغرائبية والتخيّل، قاصداً بذلك إثبات أيديولوجيته المعادية لاستبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة، لكن كاتب هذه الدراسة يدرس فعل السلطة: لا باعتباره فعلاً سحرياً وأسطورياً، بل باعتباره فعلاً يمكن أن يتحقّق في بنية الزمان والمكان: التاريخي والواقعي. لأنّ الإشارات التاريخية الكثيرة لممارسات السلطة من اضطهاد وتعسّف وقهر لشعوبها في العصور، تثبت أنّ ما ورد في ألف ليلة وليلة من ممارسات سلطوية استبدادية يمكن أن يكون له خلفية تاريخية ذات علاقة بواقع معيش عاصره الراوي، بعلاقاته السياسية والاجتماعية، واستفاد منه في تشكيل حكايته. فـ«قصص ألف ليلة وليلة تنبع أحداثها من حاجات المجتمع وترسم وقائعها من خلال المتطلّبات التي حدّدتها الحاجات (...) وهذا يعني أنّ نشأة القصص هذه مرتبطة بنشأة الشعب العربي، وموصولة بأحداثه التي عاصرها (...) وبإنسانه الذي كان مدار هذه القصص ويطلّ تلك الحكايات والأمثال»، على حدّ تعبير الدكتور نوري حمود القيسي.

وحتّى لا تحنث المرأة السلطوية باليمين التي قطعتها على نفسها، فإنّها قادت الحشّاش مربوطاً، مجروراً إلى قصرها، وأدخلته الحمّام، وألبسته أجمل الملابس الفاخرة، وأمرت جواريها أن يرششنه بماء الورد تمهيداً لتحقيق فعل الزنى، والانتقام من زوجها: «ثمّ بعد ذلك أشارت إلى بعض الجواري أن يفرشن لنا في مكان، ففرشن في المكان الذي أمرت به. ثمّ قامت وأخذت بيدي إلى ذلك المكان المفروش ونامت ونمت معها إلى الصباح، وكنت كلما ضممتها إلى صدري أشمّ منها رائحة المسك والطيب، وما أعتقد إلاّ أنّي في الجنّة أو أنّي أحلم في المنام». فالمرأة السلطوية تزني بالحشّاش القذر تحدّياً لزوجها وانتقاماً منه، لأنّها تعي أنّ وضعها السلطوي يحميها، وأنّها قادرة على أن تمارس هذا الفعل بكلّ جرأة، لأنّها واثقة من قدرتها على إخفاء الحشّاش في مخابئ القصر، إذا ما داهمها زوجها، وهي واثقة من قدرة جواريها المقرّبات على الاحتيال، والإسراع بنجدتها إذا ما حضر زوجها بشكل مفاجئ: «فبينما أنا نائم عندها ليلة ثامن يوم وإذا بجارية دخلت وهي تجري وقالت لي: قم اطلع إلى هذه الطبقة فطلعت في تلك الطبقة».

ويبدو أنّ المرأة السلطوية، التي لا يذكر الراوي اسماً لها، اعتقدت أنّها لا تنتقم من زوجها، أو تستردّ كرامتها إذا رقدت مع الحشّاش ليلة واحدة، بل إنّها أسرفت في الانتقام منه، واستمرأت النوم مع الحشّاش، وثماني ليالٍ متواصلة كما يشير الراوي. وإذا كان زوجها السلطوي قد سلك مسلكاً فاسداً، ومارس فعل الزنى فإنّها بزّته، وتمادت في طريق الفساد، ولم تكتف بذلك فحسب، بل أذلّته بسطوة جسدها الجميل، وجعلته يقبّل الأرض بين يديها، عندما صفحت عنه، وسمحت له ثانية بامتلاك هذا الجسد. يقول الراوي: «فتقدّم (الزوج) إلى الباب وترجّل ودخل القاعة، فرآها قاعدة على السرير، فقبّل الأرض بين يديها ثمّ تقدّم وقبّل يدها فلم تكلّمه، فما برح يخضع

الكتاب: ألف ليلة وليلة
مؤلف مجهول
منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

لها حتى صالحها ونام عندها تلك الليلة».

لم يقبأ راوى الحكاية ان يجعل المرأة السلطوية والرجل زوجها، غارقين فى الفساد على قدم المساواة، وذلك بأن يرتكبا فعل الزنى، ويناما مع الشريك الزانى، ويعدد الليالى نفسها التى تم بها هذا الفعل، بل جعل المرأة تفوق الرجل فى هذا الفعل بسبع ليالٍ، لأنّ هذا الراوى محكوم بأيديولوجيا رجولية تعتقد أن المرأة أكثر فساداً وفسقاً من الرجل، وأنّها أكثر جرأة، وإقداماً على ارتكاب المعاصى من الرجل، لأنّ شهوتها الجنسيّة تفوق شهوة الرجال، وفق هذه الأيديولوجيا الرجوليّة. ولأنّ هذه الشهوة عند النساء متأججة، ولا تستطيع ضبطها، فإنّها تلجأ إلى إشباعها بطريقة شاذة مع الحيوانات الأليفة كالدب والقرد، كما فى حكايتى: «وردان الجزار»، و«داء غلبة الشهوة عند النساء»، أو بطريقة سحاقية كما فى حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان». إذ تبدو المرأة العجوز السلطويّة، شواهى ذات الدواهى ولعة بسحاق جوارى ولدها الملك، فقد كانت تقيم «عند ولدها حردوب ملك الروم لأجل الجوارى الأبكار، لأنّها كانت تحب السحاق، وإن تأخر عنها تكون فى انمحاق، وكلّ جارية أعجبتها تعلّمها الحكمة، وتسحق عليها الزعفران فيغشى عليها من فرط اللذّة مدة من الزمان، فمن طاوعتها أحسنت إليها ورغّبت ولدها فيها. ومن لا تطاوعها تتحايل على هلاكها وكانت ترغّب من تساحقها بالجواهر والتعليم».

ووفق الأيديولوجيا الرجوليّة المعادية للمرأة، تبدو المرأة، سواء أكانت سلطويّة أم غير سلطويّة، جريئة ومقدامة، وقادرة على ارتكاب المعاصى والفجور أكثر من الرجال، ومن هنا فإنّه لا عاصم يعصم هذه المرأة من ارتكاب الموبقات، إلاّ إيمانها وخوفها من الله سبحانه وتعالى، وإن انتفى هذا الإيمان، فإنّها ستفعل ما تريده على الرغم من كلّ سلطات الذكور، ومن كلّ الحواجز المحصّنة التى يحاصرونها بها، ويسجنونها داخلها. وهذا ما تشير إليه الأيديولوجيا الرجوليّة فى الحكاية الأولى من حكايات ألف ليلة وليلة: حكاية «الملك شهريار وأخيه شاه زمان».

ولقد عمد معظم رواة ألف ليلة وليلة، من خلال تصويرهم لمواقف نساء الليالى، وسلوكهنّ إلى تأكيد هذه الرؤية الأيديولوجيّة: «إنّ المرأة إذا أرادت أمراً لم يغلبها شىء». ويبدو أنّ هذه الرؤية مستمدة من الخلفيّات المرجعية التاريخيّة التى اطلع عليها الرجال، ومن ثم آمنوا بها، وكرّسوها فى مدنهم، وفى علاقاتهم الإنسانيّة مع نسائهم وأخواتهم وبناتهم ونساء عصرهم، والتى تؤكّد دونيّة المرأة، وعدم الثقة بها، وتهالكها على ارتكاب المعاصى.

إنّ حياة الفسق التى ينغمس فيها مجتمع السلطة تجعل أفراد هذا المجتمع عاجزين عن ممارسة السيطرة الضروريّة على ذواتهم التى تنجرف فى ملاحقة العلاقات الجنسيّة غير الشرعيّة وطلبها، وإذ يبحث المرء فى الزنى عن العلاقات الجنسيّة غير الزوجيّة التى هى أكثر ما تتنافى مع القانون، فإنّه يكون قد دخل ضمن علاقات جنسيّة تُعد بحد ذاتها مخزية وناشئة عن الفسق. ومن هنا، فإنّ زنى المرأة السلطويّة بالحشّاش فى حكاية «الحشّاش مع حريم أحد الأكابر» كان نتيجة علاقات الفسق والفساد التى سادت فى قصور ألف ليلة وليلة، والتى انغمس فيها كبار القوم من جهة، وهو فى بنيته العميقة يشير إلى فساد متأصّل فى طويّة هذه المرأة وسلوكها وقيمها التى تربت عليها فى مجتمع سلطوى ثرى مستبد محاط بالأبهة والخدم، لا يأبه بالمواضعات الأخلاقيّة، ولا يهمه إن غرق أعيانه فى حياة قوامها الانحلال والفساد، أو بث الرعب فى نفوس مواطنيهم، وإجبارهم على تحقيق نزواتهم من جهة ثانية. ولو كان فعل الزنى مجرد انتقام من الزوج السلطوى فحسب، لاكتفت المرأة السلطويّة بالمبيت مع الحشّاش مرّة واحدة بدلاً من ثمانى ليالٍ، ولا سيما أنّ الزوج مارس فعل الزنى مع جارية المطبخ مرة واحدة. أمّا المرأة فقد استمرأت هذا الفعل مع الحشّاش، لأنّه لم يعد أقذر رجل فى المدينة بعد أن أدخلته حمّام قصرها، وأمرت جواريها بتنظيفه وتدليكه، وتضميخه بماء الورد، وإلباسه أجمل الملابس.

> **إنّ حياة الفسق التى ينغمس فيها مجتمع السلطة تجعل أفراد هذا المجتمع عاجزين عن ممارسة السيطرة الضروريّة على ذواتهم التى تنجرف فى ملاحقة العلاقات الجنسيّة غير الشرعيّة وطلبها**



[٢]

وليست هذه المرأة، زوجة أحد الأكابر، فى حكاية «الحشّاش مع حريم أحد الأكابر»، هى المرأة السلطوية الوحيدة فى حكايات ألف ليلة وليلة، التى تمارس فعل الزنى مع الرجال القذرين، والأدنى منها طبقة اجتماعيّة، بل هناك نساء سلطويات، زوجات وبنات ملوك، أسوأ منها بكثير، ومنهن زوجة أحد الملوك الكبار التى تخون زوجها الملك يومياً على الرغم من حبه ووفائه الشديدين لها، وسلوكه العفيف مع نساء مجتمعه وجوارى قصره، كما تشير حكاية «الشاب مع الملك والأسماك الملوّنة» الداخلة ضمن حكاية «الصيّاد والعفريت». فقد تزوّجت هذه المرأة، لا يذكر الراوى اسماً لها، ابن عمّها صاحب الجزائر السود، وكانت تحبه محبّة عظيمة، بحيث إذا غاب عنها لا تأكل ولا تشرب حتّى تراه، لكنّها صارت فيما بعد تكرهه وتقع فى حب جديد. مثلها مثل معظم نساء ألف ليلة وليلة. وعندما يأتى كلّ مساء تضع بنجاً فى قدح شرابه، وترتدى أجمل ملابسها، وتخرج لملاقاة عشيقها. يقول الراوى: «وإذا بها تقول: نم ليلتك (....) والله كرهتك وكرهت صورتك ومللت نفسى من عشرتك، ثمّ قامت ولبست أفخر ثيابها وتبخّرت وتقلّدت سيفاً وفتحت باب القصر».

وذات ليلة يتظاهر الملك بالنوم أمام جاريتين من جواريه اللتين تدلكانه، ويكتشف من حديث الجاريتين خيانة زوجته له: «فسمعت التى عند رأسى تقول للتى عند رجلى يا مسعودة إنّ سيّدنا مسكين شبابه ويا خسارته مع سيدتنا الخبيثة الخاطئة. قالت الأخرى: (....) ولكنّ مثل سيّدنا وأخلاقه لا يصلح لهذه الزانية التى كلّ ليلة تبيت فى غير فراشه فقالت التى عند رأسى: إنّ سيّدنا مغفّل حيث لم يسأل عنها. فقالت الأخرى: ويلك وهل عند سيّدنا علم بحالها أو هى تفعل ذلك باختياره؟ بل هى تعمل له عملاً فى قدح الشراب الذى يشربه كلّ ليلة قبل المنام، فتضع فيه البنج فينام ولا يشعر بما يجرى ولا يعلم أين تذهب ولا ماذا تصنع».

وعندما يكتشف الملك سرّ نومه الثقيل، يمتنع فى إحدى الليالى عن شراب كأسه المخدّر، ويراوغ زوجته، ثم يدلق كأسه أرضاً، ويتظاهر بالنوم، فتقوم الزوجة كعادتها بارتداء أفخر ملابسها والخروج قاصدة عشيقها العبد الأسود: فينهض مسرعاً ويتبعها شاقاً أسواق المدينة، وعندما تصل زوجته إلى عشيقها تنكشف الحقيقة المؤلمة أمامه: فيغيب عن الوجود، ويصير الضياء فى وجهه ظلاماً بمفردات رواة ألف ليلة وليلة. يقول الراوى:

«وإذا بها قد دخلت على عبد اسود فقبّلت الأرض بين يديه، فرفع ذلك العبد رأسه وقال لها: ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة؟ كان عندنا السود وشربوا الشراب وسار كلّ واحد بعشيقته وأنا ما رضيت أن أشرب! فقالت: يا سيّدى وحبيب قلبى أما تعلم أنّى متزوّجة بابن عمّى وأنا أكره النظر فى صورته وأبغض نفسى فى صحبته ولولا أنّى أخشى خاطرك لكنت قد جعلت المدينة خراباً يصيح فيها البوم والغراب. فقال العبد تكذبين يا عاهرة وأنا أحلف وحقّ فتوة السود (...) إن بقيت تقعدى إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصاحبك ولا أضع جسدى على جسدك يا خائنة، تغيبين علىّ من أجل شهوتك يا منتنة يا أخسّ البيض.

قال الشاب (زوجها الملك): فلمّا سمعت كلامها وأنا أنظر بعينى ما جرى بينهما صارت الدنيا فى وجهى ظلاماً وصارت بنت عمّى واقفة تبكى إليه وتتذلّل بين يديه وتقول يا حبيبى وثمرة فؤادى، يا حبيبى يا نور العين! ومازالت تبكى وتتضرع له حتى رضى عليها ففرحت وقامت وخلعت ثيابها ولباسها، وقالت يا سيّدى هل عندك ما تأكله جاريتك، فقال لها: قومى لهذه القوارة تجدى فيها ما تبغين، فقامت وأكلت وشربت وغسلت يديها وجاءت فرقدت مع العبد على قشّ القصب، وتعرت ودخلت معه تحت الهدمة. فلمّا نظرت إلى هذه الفعال التى فعلتها بنت عمّى غبت عن الوجود».

آثرت أن أطيل الاقتباس حتّى تتضح الأيديولوجيا الرجوليّة المعادية والمحتقرة لهذه النوعيّة من النساء السلطويّات الفاسدات، وإلى أىّ مدى يمكن أن تكون نساء السلطة فى الليالى.

ووفق هذه الأيديولوجيا.


حلمي
التوني
2006

مندفعات في فسادهن الأخلاقي ورغباتهن المسعورة المتهالكة على الجنس ومع أحط الرجال. مع ملاحظة أن هذه الأيديولوجيا الرجولية هذه لا تدين المرأة الأميرة العازبة، فيما إذا اندفعت متهالكة لتحقيق فعل الجنس مع الأمير أو الملك العازب، بل نجد أن الراوي يشجع هذا التهالك، ويهيئ له جميع الظروف والعوامل المساعدة لتحقيق هذا الفعل، فها هو يشجع بطله تاج الملوك على امتلاك الأميرة العازبة دنيا بنت الملك شهرمان امتلاكاً جنسياً ويشتهي له أن ينام بين نهديها لأنه أهل لذلك، ويثبت هذا الاشتهاء على لسان العجوز مربيتها، حين تصف لها بطله تاج الملوك قائلة: «كأن رضوان فتح أبواب الجنان وسها فخرج منها (أي تاج الملوك) وأنا أشتهي في هذه الليلة أن يكون عندك وينام بين نهودك فإنه فتنة لمن يراه». ثم سرعان ما يقذف بهذا البطل إلى مقصورة الأميرة دنيا، ليحقق له حلمه بامتلاك هذه الأميرة الجميلة: «ثم إن تاج الملوك عد خمسة أبواب ودخل الباب السادس، فوجد السيدة دنيا واقفة في انتظاره. فلما رأته عرفته، فضمته إلى صدرها وضمها إلى صدره (...) ثم اختلت هي وتاج الملوك. ولم يزالا في ضم وعناق، والتفت ساق على ساق إلى وقت السحر». ثم بعد ذلك ليجعله عاشقاً ملتياً بالهيام والوجد والغرام، لا يطيق الصبر على جسد الأميرة دنيا.

تتير حكايات ألف ليلة وليلة، وفي بعض حالات الحب والعشق والجنس إلى أن إيديولوجيا الرواة الرجولية تؤكد أن المرأة الأميرة أكثر تهتكاً وفساداً ورغبة في الزنى من عاشقها الأمير أو الملك، الذي يرغب أن يكون فعل الجنس ذا صبغة شرعية أخلاقية، وذلك من خلال الزواج على سنة الله ونبيه. فالراوي في حكاية «تاج الملوك ودنيا بنت الملك شهرمان» دفع بطله تاج الملوك إلى حضن الأميرة دنيا، ليلف الساق على الساق، وليشتغل في الهراش والضم والعناق لنصف سنة، من دون أن يجعله يفتض هذه الأميرة، لا لأنه يرى أن هذا الافتضاض فعل شائن قائم خارج حدود أخلاقيات الزواج المتعارف عليها، بل ليؤكد أيديولوجيته الرجولية التي ترى أن أخلاق المرأة، ومهما كانت رفيعة الشأن، سرعان ما تتهاوى عندما يحضر الرجل الجميل المملئ بالقدرات الجنسية والجمالية. فالأمير تاج الملوك يعلن للأميرة دنيا أنه زاد شوقاً وهياماً وغراماً بها، إلا أن غرامه هذا لم يبلغ غايته الكلية، عندها تدعوه الأميرة لأن يتجاوز فعل الضم والعناق، وصولاً إلى الغاية الكلية (فعل الجنس)، لكنه يرفض أن يصل إلى هذه الغاية، إلا بعد أن تأخذ منحى شرعياً لا حرام فيه. يقول الراوي:

وبيــــــــدو أن رواة
ألــف ليـــلة وليـــلة يــــريدون
أن يؤكدوا لمتلقى الحكايات، أن الغريزة الجنسية
لـــدى النســـاء تشـــكل قـــوة
شـــيطانية وحشـــية



«وأما ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا فإنهما أقاما على حالهما نصف سنة، وهما كل يوم يزدادان محبة في بعضهما. وزاد على تاج الملوك العشق والهيام والوجد والغرام، حتى أفصح لها عن الضمير، وقال لها: اعلمي يا حبيبة القلب والفؤاد أني كلما أقمت عندك ازددت هياماً ووجداً وغراماً، لأني ما بلغت المرام بالكلية، فقالت له: وماذا تريد يا نور عيني؟ (...) إن شئت غير الضم والعناق والتفاف الساق على الساق، فافعل الذي يرضيك وليس لله فينا شريك، فقال: ليس مرادي هكذا (...) ثم قال: وأريد الآن أن أتوجه إلى أبي ليرسل رسولاً إلى أبيك ويخطبك منه ونستريح».

إن العودة إلى الحكاية السابقة: حكاية «الشاب مع الملك والأسماك الملونة»، تكشف بعض ملامح الأيديولوجيا الرجولية المعادية للمرأة السلطوية الزانية، وذلك من خلال التباين الحاد بين أخلاقها وأخلاق زوجها الملك الشاب:

الزوج الملك

الزوجة الملكة

. شاب بأخلاق حسنة لا يصلح لهذه الزانية.

. يثق بها وينام ولا يشعر بما يجري ولا يعلم أين تذهب، وماذا تصنع.

. يقلق على غيابها وتأخرها عن منزلها، ويخاف عليها من شدة محبته لها.

. يحبها زوجها محبة عميقة، لكنها تحتقره وتكرهه.

. سيدة خبيثة خاطئة زانية.

. تضع له البنج كل ليلة في كأس شرابه.

. تقول له: كرهتك وكرهت صورتك ومليت نفسي من عشرتك.

. تحب عبداً أسود بشعاً محبة عميقة، لكن العبد يحتقرها.

ومن ملامح هذه الأيديولوجيا الرجولية المعادية لهذه المرأة السلطوية الزانية، اندفاعها الشديد نحو العبد وتعلقها به. وتركيز الراوي على مدى احتقار العبد لهذه المرأة العاشقة له، مقابل خضوعها له، واستجدائها لعطفه ومحبته. والمقارنة الآتية توضح ذلك:

العبد

المرأة السلطوية (الملكة)

. رفع ذلك العبد رأسه وقال لها: ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة.

. فقال العبد تكذبين يا عاهرة.

. دخلت على عبد أسود فقبلت الأرض بين يديه.

. فقالت يا سيدي وحبيب قلبي أما تعلم أني متزوجة بابن عمي وأنا أكره النظر في صورته، وأبغض نفسي في صحبته.

. قال العبد: إن بقيت إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصاحبك ولا أضع جسدي على جسدك يا خائنة، تغيبين علي من أجل شهوتك يا منتنة يا أخس البيض.

. حتى رضي عليها.

. فقال لها: قومي لهذه القوارة تجدي فيها ما تبغين.

. رضي عليها.

. تبكي إليه وتتذلل بين يديه وتقول له يا حبيبي وثمرة فؤادي، يا حبيبي يا نور العين.

. ما زالت تبكي وتتضرع.

. قالت: يا سيدي هل عندك ما تأكل جاريتك؟.

. خلعت ثيابها ولباسها، ورقدت مع العبد على قش القصب.

إن هذه المرأة السلطوية قد قلبت الأدوار في طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى، فإذا كان من المتعارف عليه، أن الذكر هو الذي يطلب الأنثى ويطاردها، في حين أن الأنثى تمتنع عنه، أو تعامله بغنج ودلال حتى يزداد وجداً بها: فإن الأيديولوجيا الرجولية الرامية إلى احتقار المرأة، واعتبارها شراً على المجتمع الرجولي: قد قلبت الدور، وجعلتها المتهالكة على إشباع شهواتها، مقابل الرجل المزدري لها. وزيادة في احتقارها: وتشويه قيمها، والطعن بأخلاقها، فقد جعلتها تكره الملك الجميل والوفي والقريب. ابن عمها. وتسفح ماء وجهها للعبد القبيح البعيد، الذي ينصب نفسه سيداً عليها، وتترك مائدة الملك العامرة وفراشه الوثير: لترضى باليسير من الطعام، ولترقد على قش القصب، وهذه الملكة تقلب أدوار السيادة والعبودية، وتتنازل عن دورها كملكة، وترضى بدور الجارية، وذلك لصالح العبد الذي يصبح سيداً لها، موبخاً وآمراً: «يا عاهرة.. يا خائنة.. قومي لهذه القوارة».. مقابل أن يطفئ سعارها الجنسي.

ويبدو أن رواة ألف ليلة وليلة يريدون أن يؤكدوا لمتلقي الحكايات: أن الغريزة الجنسية لدى النساء تشكل قوة شيطانية وحشية، وهذه القوة يجب أن تحبس وتقمع حتى لا تشكل خطراً يهدد المجتمع القائم على مبادئ النظام الأبوي، وحتى لا تمثل تحدياً واضحاً للنظام الذكوري «الذي يقضي بانتقال اسم الرجل وملكيته ومكانته وسلطته من جيل إلى الجيل الذي يليه»، على حد تعبير د. سمر العطار ود. جيراهارد فيشر، ولذا يجب قمع المرأة سواء أكانت سلطوية أم من الطبقات الأخرى، حتى لا تعارض هذا النظام الرجولي الذي لا يريد له الرواة الرجال أن يتنازل عن مكانته وامتيازاته لصالح نساء فاجرات تقودهن شهواتهن المتأججة إلى تقويض بنيانه، وإفساد قيمه.

[٣]

إن الرغبة الجنسية عند نساء السلطة في ألف ليلة وليلة تصبح قوة تدميرية تفتك بكل من يقف ضد إشباعها بالتواصل الجنسي: فنساء السلطة لا يرحمن من يحبط رغباتهن الجنسية، أو من لا يشبعها، حتى ولو كان من أقرب المقربين إليهن. وهذا ما تشير إليه حكاية: «الملك قمر الزمان والملكة بدور»، إذ يتزوج الملك قمر الزمان امرأتين جميلتين، وهما: الملكة بدور والملكة حياة النفوس، فيرزقه الله بولدين منهما، وهما: الأمير الأمجد من زوجته بدور،

وليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة هن المستبدات والزواني الوحيدات. بل يتساوى في ذلك معظم نساء ألف ليلة وليلة



والأمير الأسعد من زوجته حياة النفوس. ويكبر الولدان حتى يصيروا في غاية الكمال ونهاية الحسن والجمال، ويفتتن بهما النساء والرجال، بمفردات راوي الحكاية، وتفتتن بهما زوجتا الملك. إذ «إن محبة الأسعد الذي هو ابن حياة النفوس وقعت في قلب الملكة بدور زوجة أبيه، وإن محبة الأمجد الذي هو ابن الملكة بدور وقعت في قلب الملكة حياة النفوس زوجة أبيه، فصارت كل واحدة من الضرتين تلاعب ابن ضرتها وتقبله وتضمه إلى صدرها (...) وتمكن العشق من قلب المرأتين وافتتنتا بالولدين فصارت كل واحدة منهما إذا دخل عليها ابن ضرتها تضمه إلى صدرها وتود أنه لا يفارقها».

ولا تستطيع هاتان المرأتان الصبر على هذا العشق الذي ملأ عليهما حياتهما. فتمتنعان عن الشراب والطعام وتهجران لذيذ المنام، وتكتب كل منهما رسالة عشق إلى ابن ضرتها، تبدي له ولهها، وتتضرع إليه أن يرحمها مما تقاسيه من اللهف والشغف والبكاء والأنين والكآبة والاحتراق، طالبة الوصال الجنسي. ثم ترسلانهما إلى عشيقيهما الأميرين الأمجد والأسعد مع خادم وخادمة لهما. يقول الراوي: «فتناول الملك الأمجد المنديل من الخادم وفتحه، فرأى الورقة ففتحها وقرأها. فلما فهم معناها علم أن امرأة أبيه في عينها الخيانة، وقد خانت أباه قمر الزمان في نفسها، فغضب غضباً شديداً وذم النساء على فعلهن (...) ثم إنه جرد سيفه وقال للخادم ويلك يا عبد السوء أتحمل المراسلة المشتملة على الخيانة من زوجة سيدك؟ والله إنه لا خير فيك يا أسود اللون والصحيفة، يا قبيح المنظر والطبيعة السخيفة. ثم ضرب بالسيف في عنقه فعزل رأسه عن جثته».

ويفعل الأمير الأسعد مثلما فعل أخوه الأمير الأمجد من قبله، ويرمي عنق العجوز التي نقلت رسالة العشق من زوجة أبيه الملكة بدور. عندها تحبط المرأتان في عشقهما، ويصيبهما المرض والضعف الشديد، وينقلب عشقهما إلى حقد وكراهية شديدة لهذين الأميرين، وتقرران الانتقام منهما، وذلك بتدبير مكيدة تطيح بهما. وعندما يعود الملك قمر الزمان (أبوهما) بجيشه من الصيد ويشاهد زوجتيه مريضتين، يسألهما عن حالهما، عندها تقومان بتنفيذ المكيدة لهما. يقول الراوي: «فلما رآهما الملك على تلك الحالة قال لهما: ما لكما؟ فقامتا إليه وقبلتا يديه وعكستا عليه المسألة وقالتا له: اعلم أيها الملك أن ولديك اللذين قد تربيا في نعمتك قد خاناك في زوجتيك، وأركباك العار. فلما سمع قمر الزمان من نسائه هذا الكلام صار الضياء في وجهه ظلاماً واغتاظ غيظاً شديداً حتى طار عقله من شدة الغيظ».

إن الملكتين بدور وحياة النفوس مستعدتان لأن تقودا ولديهما الوحيدين إلى حافة الموت، وتعيشان طوال حياتهما محرومتين من عاطفة الأمومة الكريمة، لأن هذين الولدين أذلاهما في كبح جموح شهوتهما الجنسية، وهما غير مستعدتين أن تعيشا ذليلتين في ظلهما كحاكمين مع أبيهما، وبعد موته. ويعلل الراوي سبب اندفاعهما لقتل ولديهما، ووفق أيديولوجيته الخاصة، لأنهما خشيتا أن تصيرا تحت ذل هذين الأميرين، بعد أن فضحتا نفسيهما معهما. ويمكن القول: إن عدم إرواء الدافع الجنسي عند الملكتين هو الذي أشعل فيهما نزعتهما العدوانية، وحقدهما على الأميرين، ورغبتهما العميقة بقتلهما. لأن ثمة عنصراً شيطانياً من العداء يظهر في حالة الكبت، وهذا العنصر من شأنه أن يجعل من النزعة الجنسية شيئاً مميتاً هداماً إذا لم تجد طريقها إلى الإشباع، وفق رؤية جوزيف جاسترو.

ولا ينسى راوي الحكاية أن يثبت أيديولوجيته المعادية للملكتين الشهوانيتين، فعندما يغادر زوجهما الملك قمر الزمان، سرعان ما تبدأ علائم الخيانة لتظهر في سلوكهما: عندها يدفع بطله الرجل الأمير الأمجد، لأن يذم النساء، ويؤكد أنهن خائنات وناقصات في دينهن وعقولهن، ثم يسحب هذه الأيديولوجيا على العجوز الخادمة، لأنها من العجائز الماكرات. ولا ينسى أن يثبت أيديولوجيته التي تشيد بأخلاق أبطاله الذكور. فالأميران الأمجد والأسعد يظهران وفاء لوالدتيهما ولوالدهما قمر الزمان، ويقرران أن يحافظا على سرهما خوفاً على حياتيهما المهددة، فيما إذا ظهر سرهما للملك قمر الزمان. «ثم تواصيا بكتمان هذا الأمر لئلا يسمع به أبوهما الملك قمر الزمان فيقتل المرأتين». في حين أن هاتين المرأتين تبديان مكراً ولؤماً وتصميماً على تحريض أبيهما لقتلهما، اعتقاداً منهما بأنهما ستبقيان ذليلتين أمام الأميرين ولديهما، طالما هما مقيمان على رأس السلطة.

ولم ينس الراوي في هذه الحكاية: حكاية «الملك قمر الزمان والملكة بدور» أن يعمم أيديولوجيته الرجولية المعادية للمرأة، تأسيساً على حالة خاصة لملكتين خائنتين، التي اكتسبها من أخلاقيات ومفاهيم وأدبيات عصره، إذ جعل بطليه الأمجد والأسعد يقولان عن النساء بعامة، بعد أن دبرت لهما زوجتا أبيهما تلك المكيدة:

أعوذ بالله من كيد الشياطين
بين البرية في الدنيا وفي الدين
إن النساء شياطين خلقن لنا
فهن أصل البليات التي ظهرت

وليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة هن المستبدات والزواني الوحيدات، بل يتساوى في ذلك معظم نساء ألف ليلة وليلة، لكن الرواة اهتموا بالتركيز، بالدرجة الأولى، على فساد النساء في طبقتين من طبقات مجتمع ألف ليلة وليلة، وهما طبقتا السلطة والتجار. ويبدو أن ظاهرة الثراء الفاحش التي انغمست بها هاتان الطبقتان، قد أسهمت في فساد نسائهما وفجورهن، وجرأتهن على ارتكاب المعاصي، فمن المعروف أن الأثرياء في المجتمعات المدنية ونظراً «لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فنجد الكثير منهم يتقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصدهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً» كما يقول ابن خلدون في مقدمته.

إن الملكة بدور بنت الملك الغيور كانت تحب عشيقها قمر الزمان، قبل زواجها به، محبة شديدة، ثم ما لبثت أن فكرت بخيانته عندما صار زوجاً لها، لأنها وجدت أن ابن ضرتها حياة النفوس - الأمير الأسعد - أكثر شباباً وبهاء منه، ومن شدة محبتها لعشيقها قمر الزمان، وعندما يتاح لها ذات مرة، وقبل أن تتزوجه، أن ترقد بجواره، وتتأمل مفاتنه وجسده المتفجر بالقدرات الجنسية، فإن خلايا دمها تهتاج شهوة وشغفاً له. يقول الراوي: «ثم فتحت جيب قميصه ومالت عليه وقبلت رقبته ورأته بغير سروال فمدت يدها من تحت ذيل قميصه وجست سيقانه، فزلقت يدها من نعومة جسمه، فانصدع قلبها وارتجف فؤادها وقبلته في ثغره وقبلت كفيه، ولم تترك فيه موضعاً إلا قبلته، وبعد ذلك أخذته في حضنها وعانقته، ووضعت إحدى يديها تحت رقبته والأخرى تحت إبطه، ونامت بجانبه». وعندما استيقظت وما وجدته بجوارها، ظنت أن قمر ماشتها ووالدها الملك قد تآمرا عليها، وحرماها من هذا العشيق، النموذج الطاغي جمالياً، الذي ظلت تبحث عنه طيلة حياتها رافضة جميع عظماء مملكة أبيها والممالك المجاورة حتى لا تتنازل عن سلطتها لأي رجل كان، فها هو هذا النموذج الجمالي المثير والمشتهى يحضر مزيحاً جميع الرجال الآخرين، محققاً للأميرة جميع أمانيها في إشباع اندفاعها الجنسي المحموم والمكبوت، وها هي تستيقظ ولا تجده، عند ذلك تيقنت أنها حرمت منه، فما كان منها إلا أن أصيبت بنوبة هستيريا أفقدتها عقلها. يقول الراوي: «وطار عقلها على رأسها، وصارت تلتفت يميناً وشمالاً، ثم شقت ثوبها إلى ذيلها، فلما رأى أبوها تلك الفعال أمر الجواري والخدم أن يمسكوها، فقبضوا عليها وقيدوها وجعلوا في رقبتها سلسلة من حديد وربطوها في الشباك الذي في القصر».

إن الاندفاع الجنسي غير المشبع، يسبب لصاحبه، سواء أكان امرأة أم رجلاً، حالة تشنج دائم، تعترضها نوبات شديدة تقترب كثيراً من الصرع، على حد تعبير ميشيل فوكو، وتتزامن هذه النوبات بتوتر مفرط للأعضاء الجنسية، أو ما يسمى بالنعاظ، إذ تميل

ونظراً لأنّ نساء ألف ليلة وليلة فاتنات ومثيرات جنسياً، فإنّ هؤلاء الحكّام كانوا يتطامنون أمامهن، ولذا يمكن لأيّة امرأة بجمال صوتها، ومفاتن جسدها، أن تكون ذات سطوة في قصرها وعلى جواريها وعلى زوجها



النساء المصابات بهذا المرض إلى الفعل الجنسي باندفاع قوي جداً، وتضمحل عندهن فكرة الحياء كلها، على حد تعبير سورانس.

وتأسيساً على رأي ميشيل فوكو يمكن فهم حال الملكة بدور وهي تشق ثوبها، وتفتقد قدرتها على الاتزان العقلي، ويمكن فهم حالها بعد أن عادت إلى وعيها، وهدأت نوبتها الهستيرية الشديدة، فبعد أن شاهدت عشيقها قمر الزمان في قصر والدها، «قامت من وقتها وصلبت رجليها في الحائط، واتكأت بقوتها على الغل الحديد، فقطعته من رقبتها، وقطعت السلاسل، وخرجت من خلف الستارة، ورمت روحها على قمر الزمان وقبلته في

فمه وعانقته من شدة ما بها من الغرام، وقالت له: يا سيدي هل هذا يقظة أو منام، وقد منّ الله علينا بجمع شملنا؟ ثم حمدت الله وشكرته على جمع شملها بعد اليأس ودخل قمر الزمان على الملكة بدور وفرح أبوها بعافيتها وزواجها وحمد الله(...) ونام قمر الزمان عندها تلك الليلة وبلغ أربه منها، وتمتعت هي بحسنه وجماله، وتعانقا إلى الصباح».

إنّ تمتّع الملكة بدور بحسن عشيقها قمر الزمان وجماله، وإرواء دافعها الجنسي أسهما تماماً في شفائها من نوبات الصرع والغضب التي كانت قد أصابتها. وهنا يمكن القول: إنّ المجامعة تخفف الغضب العنيف، ولهذا السبب لا يوجد دواء مثلها نافع للغاية ضدّ الاكتئاب وكرد المجتمع، فالفعل الجنسي يهيئ النفس للطمأنينة، وهو يعيد الإنسان الكئيب والغاضب إلى حالة أكثر اتزاناً، كما يرى غاليان.

وتشير سيرة الملكة بدور زوجة قمر الزمان، بالإضافة إلى مكايدها ونزعتها صوب الخيانة الجنسية، إلى أنّها كانت مستبدة، وقد نشأت نشأة استبدادية في مجتمع استبدادي، وفي كنف أبيها الملك الغيور المستبد الجائر والظالم والقاهر الغشوم، الذي قتل أربعين منجماً وحكيماً من منجمي بلاده وحكمائها لأنهم عجزوا عن شفاء ابنته بدور من نوبات مرضها العدواني، ومن شدة استبدادها فقد قتلت قهرمانتها بالسيف، من دون أن ترتكب هذه القهرمانة أي ذنب. ويبدو أنّ عشيقها قمر الزمان، بعد أن تزوجها، لم يستطع الحد من نزعاتها الاستبدادية وترويض وحش جوعها الجنسي الكاسر؛ ما دفعها لأن تتعلق بولد الأمير الأسعد ابن الملكة حياة النفوس. ولم يستطع أن يخضعها لسلطته، وذلك لاستبدادها ورفضها منذ شبابها المبكر أن تتخلى عن منزلتها السلطوية.

[٤]

إنّ للنساء الجميلات في ألف ليلة وليلة، سواء أكنّ من طبقة السلطة أم من بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى، سطوة شديدة على الرجال، باختلاف طبقاتهم ومراكزهم السياسية والاجتماعية. ومن الغريب أنّ الرجال الملوك والأثرياء في ألف ليلة وليلة، ومهما كان عدد زوجاتهم وجواريهم كثيراً، يطمحون دائماً إلى امتلاك المزيد من هاته النسوة الجميلات امتلاكاً جنسياً، ويبذلون كلّ ما بوسعهم لامتلاكهنّ، ويفتعلون الحروب، ويتطاحنون، ويبددون أنفسهم لأجل هاته النسوة. فعلى سبيل المثال: على الرغم من كثرة نساء النبي سليمان بن داود، فإنّه كان يطمح إلى امتلاك أيّة امرأة جميلة ومغايرة لغيرها من النساء، عندما يسمع بخبرها من أعوانه عفاريت الجان: فعندما يصف له العفريت داهش بن الأعمش ابنة أحد الملوك. وهو من أولاد إبليس. بمحاسنها ومفاتنها، حيث «كانت أحسن أهل زمانها ذات حسن وجمال وبهاء وكمال»، فإنّه سرعان ما يبدي رغبته في زواجها، ويرسل إلى أبيها الملك قائلاً: «زوجني ابنتك واكسر صنمك (...) وإن أنت أبيت أتيت بجنود لا طاقة لك بها، فاستعد للسؤال جواباً والبس للموت جلباباً، فسوف أسير لك بجنود تملأ الفضاء». لكنّ والد الفتاة الجميلة يرفض طلبه، عندئذ يستنفر النبي مملكته وأعوانه من الإنس والجان والشياطين، ويأمر وزيره الدمرياط ملك الجان، ووزيره آصف بن برخيا بأن يزحفا بجنودهما إلى هذا الملك، ويهدما مدينته فوق رأسه. ويذهبون ويهدمون المدينة، ويتزوج النبي سليمان هذه المرأة الجميلة. لا يذكر الراوي اسماً لها. اغتصاباً وقهراً.

إذا كان الراوي يسوغ للنبي سليمان بن داود هدمه للمدينة، ووفق أيديولوجيا دينية تهدف إلى تحقيق رغبته في تأديب هذا الملك. ابن إبليس. وإجباره على الإيمان برسالته النبوية، فإنّ متلقي الحكاية سيقتنع أنّ الهدف الرئيس من هذا الهدم هو المرأة الجميلة الموجودة في هذه المدينة. ويذكر الراوي أنه أرسل الرسالة التالية إلى والد الفتاة الجميلة: «أنا قد أتيت فاردد عن نفسك ما نزل، وإلاّ فادخل تحت طاعتي وأقر برسالتي واكسر صنمك واعبد الواحد وزوجني ابنتك بالحلال، وقل أنت ومن معك أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ سليمان نبي الله، فإنْ قلت كان لك الأمان والسلامة، وإن أبيت فلا يمنعك تحصنك مني في هذه الجزيرة، فإنّ الله تبارك وتعالى امر الريح بطاعتي، فأمرها أن تحملني إليك بالبساط وأجعلك عبرة لغيرك».

ويمكن أن يتساءل متلقي الحكاية: لماذا لم يرجع النبي سليمان بن داود الملكَ الضال ابن إبليس إلى طريق الإيمان والحق، إلاّ بعد أن سمع أنّ له ابنة جميلة؟ وهل غزوته مدينة الملك كانت تهدف إلى عودة هذا الملك الضالّ إلى الإيمان أم هي غزوة هدفها اختطاف المرأة الجميلة والزواج بها رغماً عنها، مع العلم أنّ هذه المرأة رافضة له عن قناعة تامة، بناء على قناعة أبيها الذي يكرهه. وقد يتساءل هذا المتلقي: هل يجوز للنبي سليمان أن يتزوج هذه المرأة قهراً، لأنّها اختارت طريق الشرك ورفضت طلبه؟ هذا إذا كان من المتعارف عليه أنّ الزواج عند كلّ الأمم والأقوام، وعبر تاريخ الحضارات المتعاقبة والمتزامنة. لا يكون إلاّ برضى الطرفين. وكيف يجوز له وهو العارف بأصول الزواج وأعرافه الاجتماعية والإنسانية، أن يجبر امرأة جميلة لا تحبه على الرضوخ له والزواج به كراهية وغصباً، وبخاصة إذا كانت قصوره مليئة بالجواري والنساء

الجميلات، ويستطيع الزواج بمن يشاء من نساء مملكته الكثيرات المؤمنات برسالته؟ وكيف يمكن فهم سرّ سطوته وإصراره على اختطاف امرأة تبغضه، ثمّ تدمير مدينتها، وقتل أبيها. وسبي قومها؟.

إنّ المتلقي يجد نفسه أمام احتمالين: إمّا أن يكون النصّ الحكائي نصاً تخيلياً غرائبياً نسجته مخيلة راوٍ مبدع آثر أن يقدم نصاً قادراً على إدهاش المتلقي، وشده إلى الاستمتاع بهذا النص، والتحليق به إلى فضاءاته السحرية البعيدة. وهنا تبدو إجابته على تساؤلاته السابقة مريحة مقنعة. فمادام فضاء الحكاية هو فضاء التخيل الغرائبي الإبداعي: فليس هناك ما يمنع الراوي من أن يقول ما يشاء، ويؤسطر ما يشاء حول حياة النبي سليمان بن داود، وطموحه لامتلاك النساء. وإمّا أن يكون النصّ الحكائي قريباً من الواقع، أو مؤسّساً على مجموعة من المصادر التاريخية التي تحدثت عنه. وهنا سيعود هذا المتلقي ويتساءل ثانية، بالإضافة إلى أسئلته السابقة: ما السر الخفي الكامن وراء اندفاعه للزواج بالمرأة غصباً؟ وهل أخلاقه أخلاق الأنبياء أم أخلاق الملوك؟. وقد يظلّ هذا المتلقي عاجزاً عن إيجاد إجابات دقيقة عن أسئلته الكثيرة التي توقعه في مزيد من الحيرة والشك والإبهام.

ويبدو أنّ النبيّ سليمان بن داود كان ولعاً بامتلاك النساء وحشرهنّ في قصوره، فقد كان له ألف بيت فيها ثلاثمائة صريحة، وسبعمائة سرية، كما يروي الطبري.

وليس غريباً على راوي الحكاية أن يجعله يهدم مدينة، ويقتل ملكها، ويتزوج ابنته غصباً، هذا إذا عرفنا أنّ معظم ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها وخلفائها، من الملك شهريار مروراً بعمر النعمان حتّى هارون الرشيد وغيرهم كثر، يتزوجون المرأة التي يريدونها شاءت أم أبت.

ونظراً لأنّ نساء ألف ليلة وليلة فاتنات ومثيرات جنسياً، فإنّ هؤلاء الحكّام كانوا يتطامنون أمام هاته النسوة، ولذا يمكن لأيّة امرأة بجمال صوتها، ومفاتن جسدها، أن تكون ذات سطوة في قصرها وعلى جواريها وعلى زوجها، كدنيا البرمكية، وزوجة أحد الرجال السلطويين في حكاية: «الحشاش مع حريم أحد الأكابر»، وجواري السيدة زبيدة. فالرواة الذين عاصروا طغاة أزمنتهم لا يستطيعون أن يتركوا أبطالهم من الملوك والأمراء في حال سعار جنسي، على الرغم من جبروت النساء المعشوقات وسطوتهنّ؛ فما على النساء في نهاية

المطاف إلاّ الاستسلام لرغبات رجال السلطة، وإطفاء سعارهم الجنسي. وقد كان كثير من النساء يجد لذّة في هذا الاستسلام، لأنّه يحقّق لهنّ إشباعاً جنسيّاً، وطموحاً للوصول إلى أعلى المراتب السياسيّة، وهذا الاستسلام في بنيته العميقة ليس هزيمة، بل إنّه يقود إلى المجد والسلطة؛ فبعد أن تستسلم المرأة لرغبات الرجل السلطوي تمارس بدورها سلطة جنسيّة عليه، وتمارس على جواريها وعبيدها سلطة فعليّة.

[٥]

على الرغم من سلطة النساء في ألف ليلة وليلة، وبطشهنّ واستبدادهن، فإنّ الرواة، بعد أن يبرزوا ملامح استبدادهنّ، ويبثّوا أيديولوجيّته م المعادية لهن، يحطّون من مكانتهن، فهنّ دائماً في وضعيّة تقبيل اليد لرجال السلطة، على الرغم من مكانتهنّ الاجتماعية العليا. فالسيدة شمسة بنت الملك شهلان عشيقة الأمير جانشاد في حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيّات»، هي وجميع أخواتها الأميرات يقبّلن يد الأمير العاشق جانشاه عندما يصل إلى قصر والدهنّ الملك. في حين أنّ هؤلاء الرواة يعدّون الرجل السلطوي سيّداً دائماً في معظم حكاياتهم. ويعدّون المرأة بمنزلة الجارية الدونيّة. فمعظم النساء، مهما علا شأنهنّ، يبقين جواري لأزواجهنّ ولعشاقهنّ ولآبائهنّ. وحتّى الأميرات بنات الملوك يصبحن جواري عندما يتزوّجن أو يعشقن، لأنّ الرواة يجبرونهنّ على التنازل عن مكانتهنّ السلطويّة كأميرات. فابنة ملك صنعاء الأرستقراطية البهيّة التي تحاكي البدر الزاهر تصبح جارية عند الراوي، عندما يعشقها ابن أحد ملوك ألف ليلة وليلة، فهذه الأميرة «الجارية» فرحت عندما سمعت من ابن الملك هذا الكلام».

وتشير حكاية «حسن الصائغ البصري» إلى أنّ الأميرة منار السنا زوجة حسن الصائغ البصريّ من أهمّ أميرات ألف ليلة وليلة، وأنّ والدها من أثرى ملوك زمانه، وأشدهم سطوة، ويملك أقاليم وبلاداً شاسعة، ومع ذلك فإنّ الراوي لا يراها إلاّ جارية أمام زوجها، على الرغم من أنّ زوجها من طبقة اجتماعيّة دونيّة. طبقة الصاغة .. وحتّى يحطّ الراوي من منزلة الأميرة منار السنا، هذه المرأة التي كانت أميرة ثمّ صارت جارية بعد زواجها من حسن البصري، فإنّه يتجاهل اسمها منذ بداية خيوط سرد الحكاية، ولا يفصح عن هذا الاسم إلاّ بعد أن تكون الحكاية قد شارفت من نهايتها.

وهنا يمكن القول: إنّ البنية الثقافيّة لرواة الليالي، بمفاهيمها ومعتقداتها. هي انعكاس للبنية الثقافيّة العامّة والتجميعيّة لحضارة عصرهم والعصور التي سبقتهم. هذه البنية التي تعتقد جازمة أنّ النساء لسن إلاّ جواري، على الرغم من علوّ مكانتهنّ الاجتماعيّة والسياسيّة، ولسن في نهاية المطاف إلاّ ملكاً للرجال، وما خُلقت النساء إلاّ للرجال، وأنّه مطلوب منهنّ أن يطعن الرجال طاعة مطلقة، وأن لا يغادرن منازلهنّ إلاّ بأمر أزواجهنّ لأنّ الخروج على طاعة هؤلاء الأزواج يعني ارتكاباً للآثام، ودخول أبواب المعاصي والهلاك. وهذه الرؤى الأيديولوجيّة المبثوثة في حكايات ألف ليلة وليلة تشير إلى بنية الرواة المعرفيّة التي يكمن وراءها عقل استبدادي معاد لاستبداد النساء وجبروتهن، ويرى أنّ أولى مهمّات المرأة في الحياة أن تكون وعاء للإنجاب واللذة وخادمة للرجل، ترضخ لأوامره، ولا تفكّر أبداً بالانفلات من حظيرة سطوته، وإلاّ فإنّ المصائب الهالكة ستحيق بها. وهاهو أحد الرواة يكشف عن رؤيته الاستبداديّة، بحمولاتها المعرفيّة التي تدعو المرأة إلى حمل لواء طاعة الرجل، ومهما كانت رفيعة القدر، ويجعل بطلته منار السنا تعزز ذلك. وهاهي تعتذر لزوجها حسن البصري عن خروجها من منزله ببغداد من دون أمره، مؤكّدة له أن كل ما حلّ بها من مصائب كان نتيجة لخروجها على طاعته: «هيهات يا روحي هيهات أن يخلّصني أحد مما أنا فيه إلاّ الله تعالى، ففز بنفسك وارحل ولا ترم روحك في الهلاك فما حلّ بي هذا إلاّ لكوني عصيتك وخالفت أمرك، وخرجت من غير إذنك. فبالله عليك يا حسن لا تؤاخذني بذنبي واعلم أنّ المرأة ما تعرف قيمة الرجل حتّى تفارقه وأنا أذنبت وأخطأت، ولكن أستغفر الله العظيم ممّا وقع منّي وإن جمع الله شملنا لا أعصي لك أمراً بعد ذلك أبداً».

إنّ رؤية الرواة الأيديولوجيّة المأخوذة بوهم الرجولة والسيادة والتفوق، أسهمت إلى حدّ بعيد في تشكيل نساء ألف ليلة وليلة المستبدّات اللواتي يشكّلن خطراً على مجتمع الرجال ومجتمع النساء في آن. ومن هنا فإنّه وجب على الرجال، وفق أيديولوجيا هؤلاء الرواة، في المدن الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، حتّى يمنعوا مدّ شرور النساء وبطشهن، وحتّى يعمّ الأمان والطمأنينة، أن يكبحوا جموح النساء، وأن يقلّصوا أدوارهنّ في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة، ووجب على النساء أن تعمل على دوام مرضاتهم وسعادتهم، ولذائذهم في المأكل والمشرب والجسد، وخدمة أولادهم، وتربيتهم التربية التي يرونها مناسبة.

كتاب الزاوية

كلمات

قاسم أمين

❖ الحرية الحقيقية تحتمل إبداء كل رأي. ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر.

❖ لا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً.

❖ إن الذي مدحك بما ليس فيك إنما هو مخاطب غيرك.

❖ رب كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها.

❖ إذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك.

❖ في مصر: كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلاً، فإذا درس شيئًا من العلم صار عالمًا معضلاً. فإذا امتاز ببعض الحذق أو إظهاره عد من النوابغ.

❖ ليس الإيمان مسألة عقلية أو علمية، فإنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب. وإنما الإيمان مسألة شعور صرف، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجًا إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه.

❖ تعصب أهل الدين، وغرور أهل العلم، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم. وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقي، لا في الحال ولا في الاستقبال.

❖ لا شيء يشبه العشق في عنفوان نشأته، إذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل إلى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة. ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته، فلا يقبل منافسًا أو منازعًا أو شريكًا أو ضيفًا بجانبه.

أمـــل الشـــبكة

بـــل مـــاكـــيـــبـــين

> «سار هوارد دين فوق المسرح قائلاً: «ما أريد أن أعرفه هو ما الذي بحق أي شيء في العالم يفعله ديمقراطيون كثيرون جدا بتأييدهم تدخل الرئيس من طرف واحد في العراق؟»

■■ عندما ظهرت الإنترنت، منذ أقل من عقد مضى، كقوة دافعة في حياة أغلبنا، كان أحد الأسئلة التي دائما ما سألها الناس: هل سيثبت أنها، مثل التليفزيون، وسيلة إعلامية للتسلية والترفيه بالأساس؟ أم ستسمح لنا طبيعتها ذات الاتجاهين أن تكون أداة ذات بأس من أجل إعادة بناء الروابط بين الناس والمنظمات، وربما حتى تجديد الإحساس بمجتمع؟ لا تزال الإجابة غير واضحة: يستخدم الناس الشبكة في النظر إلى نساء متجردات من الملابس وتضييع أموالهم على البوكر أكثر من أي أغراض أخرى. ولكن إذا كنت بصدد إقامة الحجة على أن للشبكة تأثيرا سياسيا مفعما بالطاقة، فلا بأس من أن توجه متصفحك إلى ديليكوس.كوم dailykos.com، والذي أطلقه ماركوس مولتساز زنيجا Markos Moulitsas Zuniga في ٢٠٠٢.

لقد خرج الموقع، الذي يجذب أكثر من نصف مليون زيارة كل يوم[1]، كملتقى للفيض من الناس العاديين (أي ليس فقط السياسيين أو الصحفيين أو الخبراء الأكاديميين أو أنصار القضايا أو كبار المتبرعين) الذين يبغون إحياء الحزب الديمقراطي، مشغولا بتطوير استراتيجيات لإيقاع الهزيمة بـ الجمهوريين. كان الموقع مرتبطا ارتباطا كبيرا بحملة هوارد دين Howard Dean للترشيح الرئاسي ومواصلة معارضته المعلنة لحرب العراق. لقد سمح معماره التقني المحيوك، الذي كونه مولتساز، لطالعيه بأن يجمعوا الأسوال للسياسيين الأثيرين ويراجعوا أنفسهم في المواقف من القضايا ويتجادلوا فيها ويحملوا على الصحفيين والمعلقين الكسالى أو المنحازين أيديولوجيا، ويساعدوا حتى في إذاعة الأخبار التي نجحت الصحافة السائدة في إغفالها. وفي قيامه بهذا، فقد حاول صراحة رسم خريطة لمستقبل جديد من أجل الديمقراطيين. وهو موضوع الكتاب محل المراجعة، واقترح ضمنيا احتمالات جديدة للنظام السياسي الأمريكي والتي قد تساعد في الإفلات من قبضة الثروة. إنه يطرح أيضا أسئلة كبرى عن مستقبل الصحافة. في نظري، لم يحدث شيء أشد إثارة للاهتمام في السياسة الأمريكية لعدة سنوات.

جاء مولد الحركة الجديدة التي قادها ديلي كوس Daily Kos في ٢٠٠٣ مع الظهور غير المتوقع لـ هوارد دين كمرشح رئاسي. وحيث إن تلك الحملة قدمت كلا من الإلهام التقني والروحي بكثير مما جاء لاحقا، فمن المهم إعادة النظر في غيم كانت (وغيم لم تكن) مغامرة دين. لقد قامت في ظل غلبة بوش في السنوات التي أعقبت ١١ سبتمبر، عندما كان بمقدور قلة من الناس ليسوا بالتأكيد مرشحين رئاسيين همهم أن ينتخبوا أن يتحدوا البيت الأبيض مباشرة. في ذلك الوضع، فإن وضوح هوارد دين، بالخصوص استعداده لأن يعارض بقوة الحرب في العراق، وحد الكثير من الناس الذين خشوا أن بوش كان قد نجح في خنق المعارضة.

ولكن من المهم أيضا تبين أن دين لم يكن ليبراليا تحديدا. في سنواته حاكما لفرمونت كان قد كسب سمعة كمعتدل في السياسة الاجتماعية والمالية، مخاطبا الرعاية الصحية للأطفال، على سبيل المثال، ولكن محبطا النشطاء المحليين برفضه الأخذ بخطة طبية أشمل. بيرني ساندرز Bernie Sanders، عمدة برلنجتون السابق وهو الآن العضو المستقل الوحيد في مجلس النواب، هو ليبرالي في فرمونت. دين ليس كذلك. ما كان يهم في حالة دين هو طريقته المنفتحة ورغبته في المخاطرة مدليا بتصريحات واضحة عن العراق. في كتابهما، يعيد آرمسترونج ومولتساز المعروفان على نطاق واسع على الإنترنت باسميهما المختصرين جيروم وكوس حكاية قصة الأيام المبكرة من الحملة، خصوصا خطبة دين في الحزب الديمقراطي بـ كاليفورنيا في مارس ٢٠٠٣. لقد جاء بعد المرشحين المعروفين الذين مشوا مع التيار وركبوا الموجة:

كان الحشد، بضعة آلاف من الحرس القديم للحزب، يأخذ نظرة عن كثب للرجال الباحثين عن إيماءة الموافقة الديمقراطية، ولا يعجبه ما يراه.

ثم سار هوارد دين فوق المسرح قائلاً:

«ما أريد أن أعرفه هو ما الذي بحق أي شيء في العالم يفعله ديمقراطيون كثيرون جدا بتأييدهم تدخل الرئيس من طرف واحد في العراق؟».

جلب هذا تهليلا عاليا من الوفود.

«ما أريد أن أعرفه هو ما الذي بحق أي شيء في العالم يفعله ديمقراطيون كثيرون جدا بتأييدهم تخفيضات الضرائب التي قد أفلست هذا البلد وابتلتنا بأكبر عجز في تاريخ الولايات المتحدة؟».

بعد وقت قليل كان الحشد يهتف «دين، دين»، وكان ذلك قبل أن يطلق الجملة التي تحمل توقيعه: «أريد أن أسترد بلادي! نريد أن نسترد بلادنا! أنا متعب من الانقسام! لا أريد أن أستمع إلى الوعاظ الأصوليين أكثر من هذا! أريد أن تبدو أمريكا أمريكا: حيث كلنا لنا مكان.... عندنا حلم. نستطيع فقط أن ننال الحلم لو أننا كلنا معا-أسود وأبيض، شاذا وطبيعيا، رجلا وامرأة. أمريكا! الحزب الديمقراطي!»

الحشد، كما يكتبون، «كان واقفا على قدميه: كانت قاعة الاجتماعات ترتج من جلبة الجمهور، والخطبة تؤدي فعلها كعملية تحرير على استحياء». نشطاء الحزب لم يكونوا وحدهم في المعركة. لم يعودوا كذلك. كان لديهم بطل وكان اسمه هوارد دين. كان النداء القتالي من قبل دين لا أدريا من الناحية الأيديولوجية، متحزبا قلبا وقالبا. وفي تحزبه ذلك، أطلق حركة فاق عمرها عمر حملته بالنسبة المصير ولا زالت تستجمع قواها.

ما لم يكن واضحا آنذاك هو أن حملة دين أطلقت أيضا حقبة الإنترنت في السياسة الأمريكية. فيما سبق، حتى لو أصبح الناس متحمسين لمرشح في الانتخابات التمهيدية، لم تكن هناك كل تلك الأشياء الكثيرة التي بإمكانهم عملها للمساعدة. قد يجدون عنوانا بريديا ويرسلون شيكا، أو ينتظرون الحملة التمهيدية حتى تصل ولايتهم بحيث يمكنهم أن يشاركوا في الحملة ثم يصوتوا. لكن فريق حملة دين من الشبان فتح قناة جديدة من خلال موقعهم دينفورأمريكا.كوم Deanforamerica.com، والذي برز الفكرة الطازجة آنذاك الخاصة بمدونة، كل بضع ساعات، أحيانا كل بضع دقائق، كان أعضاء سيوافون بأخبار من الحملة على موقعها: نشرات حميمة وغير رسمية عن كم من الناس كانوا يتجمعون من أجل مسيرة، ملفات بيانات قصيرة لمتطوعين بعينهم، صور رقمية للافتات بارعة علقها مؤيدون على ممرات علوية أو الصقوها في أفنيتهم الأمامية.

استخدم الفريق ميتاب.كوم Meetup.com، وهو في خلاف ذلك موقع غير سياسي مصمم لجمع شمل جماعات من الناس ذوي اهتمامات متشابهة، لتمكين المؤيدين في أجزاء معينة من البلاد من أن ينظموا بسهولة لقاعات شهرية في أقبية الكنائس وصالات ألعاب المدارس الثانوية، حيث يمكن للمتطوعين، على سبيل المثال، كتابة رسائل فردية لكل ديمقراطي في أيوا ونيو هامبشاير مطالبين بتصويت من أجل دين. الأهم من كل شيء، كانوا روادا لجمع الأموال على الإنترنت. كل مرة حدث فيها شيء غير عادي (عندما كان حكيم ما سيندد بـ «مجموعات العيال» التي تدير عرض دين، مثلا) كانوا «سينصبون مضرب كرة» على الصفحة الرئيسية - صورة لمضرب بيسبول، فارغ مثل أحد ترمومترات منظمات يونايتد واي قبالة مجلس مدينة، والذي كانوا سيملأونه بالأحمر فيما كانت المشاركات سترد من الناس الذين يأخذون دقائق قليلة لقراءة المدونة من حاسبات منازلهم أو مكاتبهم. جمع مؤيدو حملة دين بسهولة مالا أكثر من خصومهم في بواكر الانتخابات التمهيدية واجتماعات اللجان، وللمرة

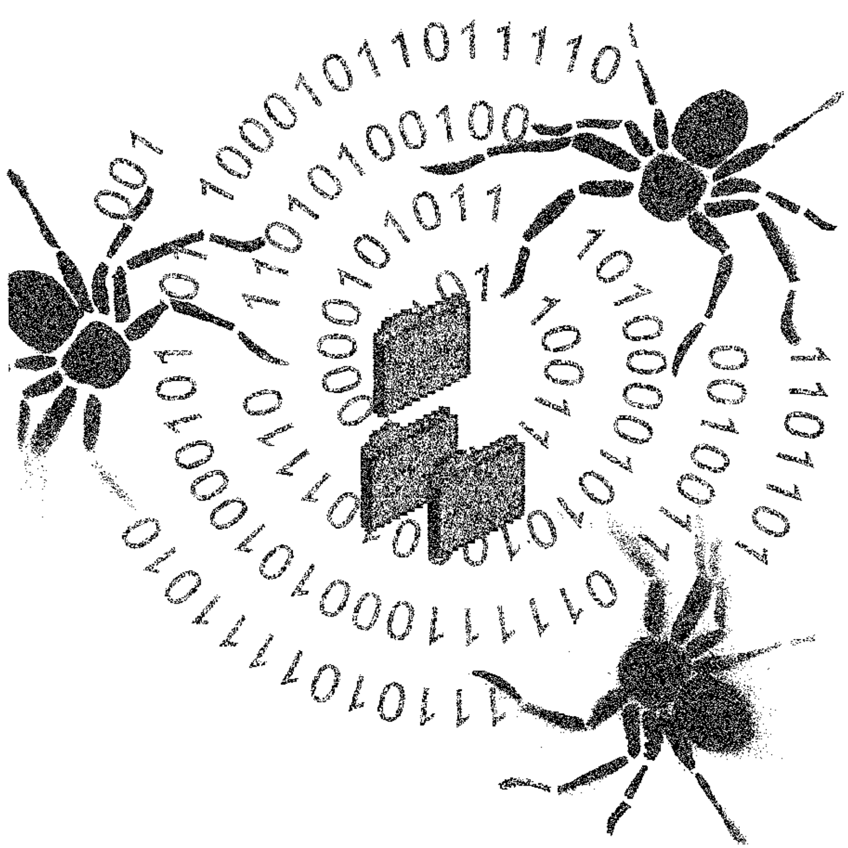
Crashing the Gate: Netroots, Grassroots, and the Rise of People-Powered Politics

(تحطيم البوابة: جذور الشبكة وجذور العشب وصعود السياسة المحركة شعبيا)

Jerome Armstrong
Markos Moulitsas Zuniga
Chelsea Green: 216PP.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: محمد فتحي كلفت



أحمد اللباد

العنكبوتية..

الأولى فى التاريخ السياسى القريب، فعلوا ذلك على نحو كبير بمساهمات من فئات ٢٠ و٥٠ و٧٥ دولارا من انحاء قاعدة عريضة من معجبيه الولعين. فجأة أمكن لعشرة آلاف لديهم حماسة وسع كل منهم ١٠٠ دولار أن يضاهوا لجنة عمل سياسى كبيرة أو باحة ملأى بنجوم هوليوود.

السبب الذى لأجله انهارت حملة دين فى أيوا، كما يعلل المؤلفان على نحو مقنع، كان بدرجة كبيرة أن ذلك النوع الجديد من الحملات التى كان يحشدها هددت الكثيرين جدا من أصحاب النفوذ: من المتبرعين الأغنياء المعتادين على سلطة التأثير فى القرار التى أعطتها لهم أموالهم إلى المستشارين الإعلاميين، غير الراضين وهم يرون حكمتهم التقليدية مهملة. يحكى چيروم وكوس قصة سلسلة الإعلانات التليفزيونية التى ساعدت فى قلب الاقتراعات ضد دين: كانت تحت رعاية مجموعة غامضة جديدة تسمى أمريكيون من أجل الوظائف والرعاية الصحية Americans for Jobs and Healthcare وقد عرضوا، بين أشياء أخرى، وجه أسامة بن لادن لكى يحاججوا بأنه «هوارد دين لا يمكنه منافسة چورج بوش فى السياسة الخارجية وكفى». بعد شهور قلائل عندما ظهرت التقارير المالية الإجبارية أخيرا، تبين أن الإعلانات كان قد أنفق عليها مؤيدو چون كيرى John Kerry وريتشارد جيفارت Richard Gephardt وتخلعها «السيناتور السابق عن نيو چيرسى المفضوح الفاسد روبرت توريشيلى Robert Torricelli». وبنظرة كلية، كان رعاة الإعلان قد أعطوا أكثر من ٧,٨ مليون دولارا لـ الحزب الديمقراطى فى السنوات القليلة السابقة. ارتكب دين تصرفات خرقاء وحده لكنه كان قد أزيل بواسطة الديمقراطيين ذوى النفوذ.

اللافت، على أية حال، أن معظم مؤيديه لم يهجروا الحزب الديمقراطى بعد هزيمته. بدلا من ذلك، عندما أظلم موقع حملة دين انتقل كثيرون جدا إلى ديلى كوس وبدأوا التطوع لـ چون كيرى- ليس بنفس المودة التى شعروا بها حيال دين، ولكن بكثير من التفانى. قضيت الأسبوع الذى يسبق الانتخابات العامة فى كولومبس، أوهايو، وكل من حدثتهم على وجه التقريب ممن خرجوا يطرقون الأبواب من أجل كيرى كانوا قد بدأوا السنة مؤيدين إما لـ دين أو للأثير الآخر على الإنترنت، الجنرال وسلى كلارك Wesley Clark.

والكثيرون منهم لم ينسحبوا عندما خسر كيرى الانتخابات. كذلك، بدلا من ذلك، ركزوا على سباق دين من أجل منصب رئيس الحزب الديمقراطى، وهو منصب كان محل اهتمام بالأساس للمطلعين السياسيين. تقاعد متولى المنصب، تيرى ماكأوليف Terry McAuliffe، بعد فشله فى انتخابات ٢٠٠٤. وكان الإجماع العام أن الأعضاء الـ ٤٤٧ المصوتين فى لجان الأحزاب ذات الصلة كانوا سيتوجهون إلى مخضرم آخر أيضا من العالم الطبيعى الوسطى لفنيى الحزب الديمقراطى والسياسيين عديمى المذاق وجامعى التمويلات بساعات الدوام الكامل. بدأ چيروم، فى مدونته ماى دى دى (ديمقراطيتى المباشرة) MyDD التى تتابع على نطاق واسع (حيث كان كوس قد بدأ مسيرة تدوينه بنشر التعليقات)، فى تقييم فرص المتنافسين: بدأ مدونون آخرون فى دراسة سجلات منافسى دين. أحدهم، ليو هندرى Leo Hindery، على سبيل المثال، كان النموذج القياسى للقطط السمان، بحسب تحطيم البوابة، فقد استدار عائدا بطائرته الجلفستريم فى عرض الجو وهو فى الطريق لاجتماع لجنة ديمقراطية عندما نمى إلى علمه أن المدونات قد كشفت أنه كان الراعى الأكبر للإعلان الذى

يربط بين دين وإسامة. عندما ربح دين أخيرا، قال: «إن قوة هذا الحزب لا تنبع من المستشارين من فوق. إنها تنبع من القاعدة من أسفل». في جوهر الأمر، كانت هذه القوة الجديدة قد خسرت الانتخابات التمهيدية، ولكنها جعلت من الواضح أنه بإمكانها الاستمرار في القتال. «كان دين هو أول من يقتحم ويدخل عالم الحزب المغلق حتى هذه اللحظة»، كما يكتب كوس وجيروم. «لن يكون الأخير».

يركز تحطيم البوابة على التكتيكات من أجل استراتيجية ديمقراطية جديدة. وهي تشمل، أولا، نقل السلطة بعيدا عن جماعات الدفاع عن قضايا يتيمة، مثل حركة حقوق الإجهاض، والبيئيين، والاتحادات العمالية، ناحية الحزب الديمقراطي نفسه عائدا للحياة. لقد كانت مثل هذه الجماعات منذ وقت طويل هم الأصوات الانتخابية الرئيسية للعديد من ديمقراطيي واشنطن، مصادر المال والمتطوعين معا، وبالنتيجة فقد كانوا قادرين على فرض مناهجهم المتشددة نحو القضايا الهامة على الحزب. من الصحيح أن هذه الجماعات مثل نارال NARAL-رابطة عمل حقوق التناسل والإجهاض القومية the National Abortion and Reproductive Rights Action League-وسييرا كلَب (نادى سييرا) Sierra Club تنضم إلى التحالفات الانتخابية الموالية لـ الديمقراطيين مثل آكت أب ACT UP وموفأون.أورج MoveOn.org. لكن المشكلة، كما يشير المؤلفان، هي إن إعطاء الصدارة لمثل هذه الجماعات يبدو مؤكدا على الصور النمطية الجمهورية («حاضنو الأشجار»[٢]). الأسوأ، أن النشطاء المعنيين بقضايا يتيمة لا يمكنهم أن يحرزوا بشكل يعتمد عليه انتصارات انتخابية. دائما ما تكون جهودهم ضررها أكثر من نفعها. في مايو ٢٠٠٥، على سبيل المثال، اقرت نارال سيناتور رود ايلاند الجمهوري لنكولن تشافى Lincoln Chafee لإعادة انتخابه في الخريف القادم لأنه قال إنه كان من أنصار حق اختيار الإجهاض. من الناحية الأخرى، كما يشير جيروم وكوس، فهو صوت ليجعل بل فرست Bill First المناهض المتطرف لحق الاختيار زعيما لأغلبية مجلس الشيوخ، وانحاز لصف إدارة بوش في التصويت الحاسم على قطع الطريق على مرشح المحكمة العليا صامويل أليتو Samuel Alito.

على النقيض، يقول هارى ريد Harry Reid النيفادى، الزعيم الديمقراطي في مجلس الشيوخ: إنه شخصيا ضد الإجهاض-إلا أنه قد قاوم مع ذلك العديد من القضاة الفيدراليين المعارضين للإجهاض الذي قد طرحته إدارة بوش أثناء فترة تعيينه. (سيكون ريد المتحدث الرئيسي عندما يعقد مجتمع كوس، الذين يسمون أنفسهم أحيانا «الكوسالك»، اجتماعهم الجماهيري الأول الذي سيلتقون فيه بأجسادهم في يونيو القادم في لاس فيجاس.) كوس وجيروم متلهفان أيضا على رؤية الديمقراطيين يتنصلون من بعض مواقفهم الماضية من أجل الوصول لمصوتين جدد وقفة دين ضد قوانين التحكم في حيازة الأسلحة النارية بصفته حاكم ولاية ريفية راقت لهما، على سبيل المثال، وقد وجدا في بريان شوتزر Brian Schweitzer، الحاكم الديمقراطي للولاية الحمراء مونتانا، سياسيا



يمكنهما الإعجاب به، والذي يحبذ عددا من الإصلاحات الليبرالية ولكنه ساند أيضا برنامج ناشيونال ريفل أسوسياشن (اتحاد البندقية القومي) National Rifle Association.

إن مقصدهما هو أن الجمهوريين قد رخا عيشهم بتجاهلهم الاتساق الأيديولوجي. لقد ضموا جنبا إلى جنب ائتلافا متنافرا يمتد من المبشرين اليمينيين ومروجين آخرين لقيم أخلاقية محافظة إلى مؤسسات أعمال كبيرة معتمدة على الفروع الفيدرالية وتخفيضات الضرائب، وكل منهم يدرك أنهم سيحصلون على المزيد مما يريدون بالتعاون في جهود مشتركة. إن أغلبية ديمقراطية في مجلس النواب ومجلس الشيوخ ستحمي حقوق الإجهاض حتى لو كان الشيوخ الأفراد متذبذبين بخصوص القضية. «لا أحد تخدم أجندته الصغيرة أن يكون ضمن الأقلية»، كما يكتبان. «إن أغلبية حاكمة ستعتني أكثر بمراحل للقضايا العزيزة على كل شخص. فليكن الحزب هو الحزب، والحركة في الخارج تمر عليه». إنهم يمثلون، إذا استخدمنا جملة دين المفضلة التي تتلقى التصفيق، «الجناح الديمقراطي لـ الحزب الديمقراطي».

يريد جيروم وكوس أيضا أن ينهيا تحكم المستشارين السياسيين المقيمين بـ واشنطن والذين، كما يصران، قد خسروا عشرات الحملات وبددوا مئات ملايين الدولارات. دليلهم الرئيسي هو بوب شرم Bob Shrum، الذي كان قد أدار، وخسر، بالفعل، سبع حملات رئاسية ديمقراطية عندما استأجرت خدماته لإدارة حملة جون كيرى في ٢٠٠٤. هما لا يحبان بالخصوص الإجماع داخل حزام واشنطن على أن الديمقراطيين ينبغي أن يركزوا على الولايات التي لهم فيها ميزة انتخابية. وجنبا إلى جنب مع دين، يدافعان عن استراتيجية مداها ٥٠ ولاية، معللين بأن الحزب يمكنه بناء زخم قومي بالتنافس حتى على المناطق المستحيلة، والتعرف على مصوتين ديمقراطيين جدد، وتشجيعهم على المساهمة بالمال والعمل في الحملات على طول الخط.

لقد أصبح العديد من المدونين الذين على اتصال بـ جيروم وكوس خبراء علموا أنفسهم بأنفسهم في موضوعات مثل الاقتراع ومجموعات التركيز. وإحدى النقاط التي يطرحونها هي أن العديد من مديري الحملات يشترون ببساطة وقتا على التليفزيون ليُثروا المؤسسات الاستشارية الخاصة بهم، والتي تتقاضى ما يصل إلى ١٥ بالمائة من كل دولار ينفق على الإعلانات. يقدم جيروم وكوس حيثيات لصالح طائفة من المناهج المختلفة، بما فيها تقنية قواعد بيانات محبوكة من شأنها تمكين الديمقراطيين من التقرب من. مثلا، الجمهوريين المسجلين الذين قد تكون عائلاتهم تعاني من مرض باركنسون وسيكونون متقبلين لدعوة لتأييد بحوث الخلايا الجذعية. وهما يريدان الحملات أفضل قدرة على الاستفادة من عاملي الحملات المحتملين الذين يمكن تعبئتهم عن طريق المواقع- أناس مستعدين لقضاء ساعة كل بضع أمسيات، مثلا، في استخدام دقائق هاتف خلوي زيادة للاتصال بمصوتين متقلبين محتملين في المنافسات النيابية القريبة في منتصف الطريق عبر البلد. على كل جبهة هما متلهفان على انتزاع السلطة من نخبة واشنطن الديمقراطية وثيقة الروابط المتعلمة في جامعات رابطة أيفى، محاججين بأنها عديمة الاتصال مع الجسد السياسي الأكبر.

إنهما أيضا يهدفان إلى الخروج برسالة جوهرية بخصوص الحزب الديمقراطي، وما يعنيه، والتي سوف تضارع بنجاح أفكار الحزب الكبير القديم[٣] عن الأمن القومي والحكومة محدودة السلطات والضرائب الأقل والقيم الأخلاقية. إنهما يحبذان رسالة عريضة اقتصادية شعبية، تؤكد على قضايا مثل التحسينات في الأمن القومي والرعاية الصحية شديدة التوسع والضرائب الأكثر عدلا. وبعد أن جالا في عزبة الحاكم شوتزر في مونتانا وفوتا فرصة تصوير كلاب المراعي، «سألناه ما الذي كان سيريد أن يسمعه لو سئل الناس في الشارع عن الحزب الديمقراطي. توقف شوتزر لوهلة، ثم رد بيقين، «إنهم الحزب الذي في صفنا».

في تناوله للإمكانيات السياسية للإنترنت، يبدو لي تحطيم البوابة المغامرة الأكثر طموحا وإثارة للاهتمام وإعطاء للأمل في السياسة التقدمية خلال عقود. إنه ليس نموذجا سيفوز بين عشية وضحاها. انتقى كوس دستة من المنافسين الديمقراطيين، معظمهم في سباقات كيخوتية ضد محببين من الوزن الثقيل مثل توم ديلاى Tom DeLay، لجمع المال لهم في ٢٠٠٤، وكلهم خسروا. ولكن وكما يشير، فقد لزم الأمر عمل صبور من اليمين الجمهوري ليبني قوته بعد خيبة جولدووتر[٤] في ١٩٦٤. وفي الحقيقة، في الشهور الثمانية عشر منذ هزيمة كيرى، فقد اختبر ناشطو الشبكة المناهج الجديدة في انتخابات خاصة مع بعض النجاحات. جاء أحد الأمثلة أثناء انتخابات أغسطس الأخير على مقعد في المنطقة الثانية في أوهايو، وهي معقل جمهوري منذ ١٩٧٤، أخذه بوش في ٢٠٠٤ بـ ٦٤ بالمائة من الأصوات. الطبيعي أن الديمقراطيين كانوا بالكاد سيشغلون أنفسهم بالتنافس على المقعد، لكن پول هاكت Paul Hackett، وهو مبتدئ سياسي عاد مؤخرا من جولة بصفته رائدا في القوات البحرية في العراق، أطلق حملة مناهضة للحرب بالضبط من النوع الذي كان الناشطون على الإنترنت يطالبون به، كان، كما يكتب المؤلفان، «مفوها بجرأة، غير خائف من نقل المعركة إلى أرض الجمهوريين». وعندما وجه له سؤال عن زواج الشواذ، قال: «زواج الشواذ ـ من يهتم بحق الجحيم؟ إذا كنت شاذا، فأنت شاذ ـ بالتوفيق. ما تريده هو أن يعاملك القانون بإنصاف وأي أمريكي لا يعتقد أن هذا ما يجب أن يكون عليه الحال هو، بصراحة، غير أمريكي». جمع ناشطو الإنترنت ٥٠٠,٠٠٠ دولار من ميزانية الـ ٨٥٠,٠٠٠ دولار الكلية للحملة ـ بإعطاء تسعة آلاف شخص ما يزيد في المتوسط قليلا على ٥٠ دولارا للواحد.

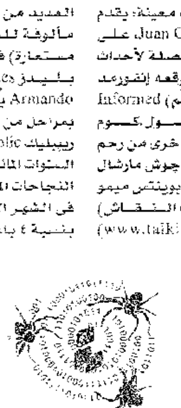
في يوم الانتخاب، سرى الكلام في الساعة ١٠:٣٠ صباحا بأن هاكت كان يحتاج ٦٠٠٠٠ دولار لمصاريف إخراج الناس للتصويت، وبعد ست ساعات كانت ٦٠٠٠٠ دولار قد ضُخت. اضطر الناشطون على الإنترنت أن يخبروا الناس أن يتوقفوا عن الدفع.

في النهاية، جاء هاكت بشكل مذهل قريبا من الفوز؛ فاز عليه خصمه، جين شميت Jean Schmidt بـ ٣,٥ بالمائة فقط، وهو ما قال نيوت جنجرجتش Newt Gingrich إنه «ناقوس خطر لـ الجمهوريين». ولعل تتمة رسالة أكثر تهديدا قد وصلت في هذا الشتاء عندما أجبر ديمقراطيو حزام واشنطن هاكت على الخروج من سباقه التالي، على مقعد شيوخ أوهايو الذي يحتله الآن الجمهوري مايك ديواين Mike DeWine، لإفساح مجال لمرشح، شيرود براون Sherrod Brown، اعتقدوا أن لديه فرصة أفضل للفوز. كان هنالك كثير من الامتعاض على المواقع بخصوص إسقاط هاكت، لكن رأي الأغلبية بدا أنه: لا بأس؛ يعجبنا هاكت، لكننا نريد الفوز، وبراون ديمقراطي مخلص ومرشح قابل للفوز.

في الحقيقة، تحطيم البوابة كله عن الفوز. ذلك هو ما يحرك الناشطين على الإنترنت-ولهذا يرتفع رقم مرات الزيارة على المواقع مع اقتراب الانتخابات. ليست القضايا ثانوية، تماما، ولكن هنالك إجماعا واضحا على أن الانشغال بدقائق السياسة هو ممارسة عقيمة بدون قوة حقيقية، وأن القوة تأتي من وحدة الحزب.

إنها التهديدات لوحدة ذلك الحزب هي حقيقة ما يغضب ناشطي الشبكة. يواجه سيناتور كونكتكت جو ليبرمان Joe Lieberman، على سبيل المثال، تحديا مبدئيا أعطى له في البداية أهمية حقيقية على ديلي كوس ومواقع حليفة. ليس لأنه غير ليبرالي في قضايا من قبيل التأمين الاجتماعي؛ ولكن لأنه لا يتصرف كديمقراطي إنه يبدو سعيدا أن يطلع في برامج نقاش الأحد ويمتدح الرئيس لبدئه حرب العراق أو ينتقد الديمقراطيين لكونهم ضعافا في الأمن القومي، في صورة وزعت على نطاق واسع على الشبكة، كان هو أول من يقف على قدميه مصفقا لسياسة الرئيس في العراق أثناء خطاب حالة الاتحاد لهذه السنة. يجوز جدا أن يجتاز ليبرمان التحدي المبدئي الذي يواجهه من ند لامونت Ned Lamont، وهو صاحب مشروع عالي التقنية ومحرر جريدة سابق يعارض حرب العراق، لكن يبدو من المحتمل أنه إن ينازع بقوة، سيؤثر هذا على مواقفه في السنوات القادمة.

ما يعطي كوس وجيروم المصداقية ليس هو كتابهما المتماسك والمباشر بقدر ما هو مجتمع الشبكة الذي قد ساعدا في إلهامه وبنائه. إنه يشمل سلسلة من المواقع متداخلة الروابط بمعنى الكلمة، تتراوح ما بين الضخمة وإن كانت بشكل ما متوقعة، مثل موفاون.أورج، الممول جزئيا من قبل جورج سوروس George Soros، والضئيلة والمركزة في حدود ضيقة. القليل منها هي مدونات متخصصة في موضوعات معينة؛ يقدم الأستاذ خوان كول Juan Cole، على سبيل المثال، تناولات مفصلة لأحداث اليوم في العراق على موقعه إنفورمد كومنت (التعليق عن علم) Informed Comment، خوان كول كوم JuanCole.com. وتخرج أخرى من رحم الصحافة الأكثر تقليدية؛ جوش مارشال Josh Marshal في توكنج بوينتس ميمو (مذكرة موضوعات النقاش) (www.talkingpointsmemo.com)



يوظف زوجا من المحررين بالدوام الكامل لكشف وتفسير آخر التطورات في الفضائح النيابية الجمهورية. وغيرها مدونات أكثر تقليدية (إذا أمكن أن تجوز «تقليدية» على وسيلة إعلامية ذات أربع أو خمس سنوات). تشمل هذه إسكاتون Eschaton (www.atrios.blogspot.com) وفايردوجليك Firedoglake (www.firedoglake.com)، حيث يدلي المدونون بدلوهم، ساعة بساعة، حول طيف واسع من الأحداث الإخبارية بمجرد حدوثها على مدار اليوم. المواقع الأكبر والأفضل تمويلا مثل هفنجتون بوست Huffington Post (www.huffingtonpost.com) تبرز طائفة من الصحفيين المعروفين مع تعليق حزبي على قضايا الساعة. الموقع المسمى كروكس أند ليارز (المحتالون والكذابون) Crooks and Liars (www.crooksandliars.com) يقدم لقطات فيديو مختارة من النشرات الإخبارية وبرامج النقاش. كل من هذين الموقعين، ومئات المواقع الأخرى التي تربط بهما، لها شخصيتها الخاصة بها. لو أن هناك مزايا توحدها جميعا، لكان من بينها التشكك حول ما تدعيه الحكومة ونغمة سخرية عيابة إزاء مزاعم إدارة بوش.

في مركز هذا العالم، على أية حال، ديلي كوس. والذي بسبب سمعة الخاص، والروح المنفتحة لمؤسسه، قد أصبح تجربة في الديمقراطية على طريقة الشبكة. ينشر كوس نفسه القليل من مداخل المدونة كل يوم. لكنه في كل عام يعين خمسة مساعدين يمكنهم نشر تعليقات خاصة بهم على واجهة موقعه. العديد من هؤلاء قد أصبحوا أسماء مألوفة للجميع (وإن كانت أسماء مستعارة) في عالم التدوين-ميتيور بليدز Meteor Blades أو آرماندو Armando يُقرآن على نطاق أوسع بمراحل من تي آر بي "TRB" في ذا نيو ريببليك The New Republic، رغم ميزة السنوات المائة للمجلة. (كمقياس لمقارنة النجاحات المادية: أعلنت ذا نيو ريببليك في الشهر الأخير أن توزيعها قد هبط بنسبة ٤ بالمائة في السنوات القليلة الأخيرة). لكن أي شخص يلتحق بـ ديلي كوس-وهي عملية مجانية ولا تكلف جهدا- يسمح له بنشر «يوميات»، مقالات صغيرة جدا عن موضوعات محددة في أي وقت. بينما أكتب هذا، ذات صباح يوم اثنين في أواخر فبراير، هنالك العشرات من اليوميات الجديدة منشورة في غضون الساعة الأخيرة في موضوعات من مثل «نهاية (برنامج المساعدة الطبية) ميديكايد هو البداية» لـ تضحكوا chuckles! أو «المخاطر التي تعرض لها سرية مكتب خدمة الضرائب» لـ ردلامي redlami، أو «حان الوقت من أجل محور حول قضية الموانئ» لـ ألفاليبرال AlphaLiberal.

لتبرز هذا الطوفان من المعلومات (والمعلومات المغلوطة)، يسمح الموقع للأعضاء بقراءة اليوميات ثم بالنقر على زر يقومون بـ «تزكيتها» لو اعتقدوا أنها مهمة. اليوميات الحاصلة على تزكيات أكثر تظهر على رأس الصفحة في هذه اللحظة، على سبيل المثال، «ماكين: مخطئ ١٠٠٪ في كل شيء» هو المزكّى على أوسع نطاق. يمكن للأعضاء أن يفعلوا أكثر من تزكية المواقع-يمكنهم أيضا التعليق عليها، ودائما ما يفعل المئات. ودحض أو تصحيح روايات الصحافة أو الإضافة لها. تعمل التقنية بسلاسة ملحوظة، وهي تتغير بانتظام مع تطوير كوس وأصدقائه برمجية جديدة.

عندما تتأمل موقع كوس الخاص به وروابطه المتعددة لمدونات أخرى، فرى تشبه شبكة بخلية اتصالات آخذة في التوسع، مختبرات جمعية. ويمكن للنتائج أن تكون مبهرة. نظم كاتب له الاسم القلمي (الاسم الشارع) جيروم آ باريس Jerome a Paris، على سبيل المثال، عشرات من الكوسات الآخرين المهتمين بسياسات الطاقة ليكتبوا خطة طاقة أجدها أكثر إحاطة وأعمق فكرا بمراحل من أي شيء قد أنتجته لجان الخبراء. لقد قرئ وأعيدت صياغته من قبل آلاف القراء، وسيؤدي وظيفة نموذج مفيد في حال استعاد الديمقراطيون الكونجرس وكانت لديهم القدرة على تمرير القانون. بدأت المدونات رد فعلية بشكل محض ولا زال المدونون ينفقون الكثير من طاقتهم في الرد على وسائل الإعلام السائدة. لكن نوعا من صحافة أولية يظهر، ويصبح باطراد أكثر إحكاما. إذا كنت تريد أن تعرف (وإن كان ذلك بقدر وافر من الدوخة) كل كبيرة وصغيرة تخص دفاع سكوتر ليبي Scooter Libby في محاكمة فضيحة بليم Plamegate على سبيل المثال، المكان الذي يجب أن تقصده هو فايردوجليك.

بعض من المطلب أقل تنويرا، بالطبع، هنالك الكثير من الزعيق المألوف والمزعج دائما تجاه إدارة بوش، تجاه أنصار نظرية الخلق الذكي[1]، تجاه قناة فوكس نيوز. لكن كثيرا من ذلك يختفي عندما تكون هنالك قضايا واقعية محددة لمخاطبتها. على سبيل المثال، فقد أصبح معلقو الموقع خبراء في مراقبة الصحافة الدورية والتلفزيون بحثا عن علامات انحياز للجمهوريين؛ وهم يردون جماعة. عندما قالت واشنطن بوست تردد تهمة الحزب الكبير القديم بأن عضو جماعة الضغط المفضوح جاك ابراموف Jack Abramoff أعطى مالا لـ الديمقراطيين وبالمثل لـ الجمهوريين، جمع الناشطون على الإنترنت معلومات ونظموا ردا ساحقا، مبينين أن ابراموف عمل بشكل رئيسي مع الجمهوريين. التقط هذا الكشف بعد ذلك بقليل من قبل الصحافة والتلفزيون ولم يعد يسمع سوى أقل القليل عن حيادية ابراموف. المراسلون الذين شكمتهم طويلا التهم المتحفظة الخاصة بالانحياز (كما أظهر مايكل ماسنج Michael Massing في مقالاته الأخيرة حول تغطية الصحافة لـ العراق[2]) يجدون الآن أنهم يتعرضون لتمحيص أدق على الإنترنت. وحيث إن ليبراليي عالم التدوين هم أفضل تنظيما، يأخذ هذا في امتلاك تأثير موازن. يقول كوس إنه يتلقى أكثر خمسين مرة من

عدد الزيارات التي يتلقاها كل «عالم التدوين» من الجناح اليميني، حيث منافسه الأكبر هو ربما موقع يسمى إنستابندت.كوم Instapundit.com.

وحيث إن الإنترنت أرشيف افتراضي غير محدود، فيمكنه بسرعة تتبع أي شيء تقريبا قد قاله وفعله صحفي أو سياسي في العقد الأخير. حتى عندما يحاول الناس جعل الأشياء تختفي، فإن شخصا ما في ذلك الحشد الضخم من القراء ربما لديه نسخة. عندما ساعد جوش مارشال، محرر توكنج بوينتس ميمو، في قيادة الحرب على خصخصة التأمين الاجتماعي، أحسن استخدام اقتباسات من تقارير إخبارية في جرائد محلية لنواب يتحدثون لناخبيهم في منتديات صغيرة. وبين أن السياسيين كانوا يدلون بتصريحات مطمئنة للمصوتين في مناطقهم ثم يصوتون على العكس في كابيتول هل. (ساعد أيضا في تتبع صور للرئيس بوش وجاك آبراموف).

أحد الشواهد على قوة ديلي كوس هو قائمة المحترمين الذين يأتون للزيارة. لقد نشر نجوم كبار مثل جيمي كارتر Jimmy Carter وباراك أوباما Barack Obama يوميات (وقد تعرضوا للنقد وتلقوا مديحا بالمثل). لكن الاهتمام القومي الذي أخذ يحصل عليه ليس هو أكثر جزء إثارة للاهتمام في العملية برمتها. الأكثر إدهاشا هو الطريقة التي يتعلم بها الناس استخدام التقنية للتواصل مع الواقع على الأرض. باقتراب انتخابات نصف المدة، وقد أضعف الجمهوريون للمرة الأولى خلال اثنتي عشرة سنة على الأقل، تصبح اليوميات على الشبكة بشكل متزايد وسائط لجمع المال أو تشغيل المتطوعين. ينشر الناس روايات عن جهودهم لإنعاش مقار الدوائر الانتخابية الديمقراطية ويقدمون لبعضهم البعض نصائح عن كيفية بناء قوائم بريدية. في بعض الأماكن، تدهورت آليات الحزب ببساطة من سنوات الإهمال، حتى بينما كان الحزب الكبير القديم، بفضل استراتيجيين مثل روجر آيلز Roger Ailes وكارل روف Karl Rove، يقضي عقودا في بناء آلية تصويت فعالة.

لقد قضى تنظيم الحزب الديمقراطي أكثر من جيل يتكلم على الزخم الذي أقامه في عقد ١٩٦٠ وبواكر عقد ١٩٧٠، وقد أخذ هذا الزخم ينفد. لكن مواقع الشبكة المربوطة بديلي كوس والملايين من مستخدميها أعطوا الديمقراطيين شحنة جديدة. سيكون من السابق لأوانه أن ننسب قوة انتخابية شديدة على مستوى قومي لهذه الأصوات الجديدة - قعدة ملايين من المصوتين لم يسمعوا قط بها. لكن ما يبدو الأكثر إدهاشا بخصوص أصوات الإنترنت الأعلى صوتا دائما المرتبطة بـ كوس هو أنها تتقاسم رغبة قوية في الفوز، ووسائل جديدة تجعل الرغبة ذات أهمية.

هــــــوامــــــش

١ - الأسلوب اللائق لتبين الحركة المرورية على الإنترنت هو مسألة نزاع ساخن. أينبغي عليك أن تحصي زائرا جديدا كلما سجل الدخول لموقع؟ أم ينبغي عليك أن تحصر عدد الصفحات المختلفة التي ينقرون عليها داخل موقع؟ ماذا لو أنهم، مثل العديدين من قراء ديلي كوس، يعودون ثلاث أو أربع مرات في اليوم؟ في مقابلة أخيرة في مجلة نيويورك تايمز مجازين New York Times Magazine، زعم مولتساز أن مليون شخص مختلف في الأسبوع يتوقفون عند موقعه، وهو ما يبدو على الأقل معقولا. يكفيه أيضا أنه يكون دخلا سنويا يقدره بما بين ٧٠،٠٠٠ دولار و٨٠،٠٠٠ دولار، الكثير منها من الإعلانات التي تظهر على موقعه.

٢ - مصطلح مهين يطلق على أصدقاء البيئة المؤيدين لفرض قيود على صناعة قطع الأشجار وللحفاظ على الغابات - المترجم.

٣ - الحزب الكبير القديم Grand Old Party اسم آخر يعرف به الحزب الجمهوري - المترجم.

٤ - إشارة لفوز الديمقراطي لندون جونسون Lyndon Johnson (شاغل منصب الرئيس آنذاك) فوزا ساحقا على الجمهوري باري جولدووتر Barry Goldwater، والذي تسبب أداؤه الضعيف في إخراج جمهوريين كثيرين من الكونجرس - المترجم.

٥ - اسم عمود شهير في جريدة ذا نيو ريبلبك، تناوب على كتابته عدة معلقين، جاء اسمه من قلب الحروف التي يختصر بها اسم شركة مترو بروكلين رابد ترانزيت (خطوط بروكلين السريعة) Brooklyn Rapid Transit - المترجم.

٦ - الخلق الذكي intelligent design هو الاعتقاد بأن الحياة أكثر تعقيدا من أن تفسرها فكرة الصدفة ونظرية النشوء والارتقاء، وأنه لابد من وجود خالق ذي علم وراءها، وينقد أغلب العلماء هذه النظرية باعتبارها غير علمية - المترجم.

٧ - مايكل ماسنج، «نهاية الأخبار؟ The End of News?» و«الصحافة: العدو من الداخل The Press: The Enemy Withing»، ذا نيويورك ريفيو The New York Review، ١ و١٥ ديسمبر، ٢٠٠٥. ✿

كـتـــاب الـــزاويـــة

آراء

قاســـم أمــــين

❖ صحافتنا: إذا قرأت الجرائد تجدها جميعها متحدة في موضوعها متشابهة في تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى، وإذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلاً من معارف تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول. ولا تجد في الجريدة التي تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذي تقابله فكرة غريبة أو تعبيرًا جديدًا أو أسلوبًا مبتدعًا، لا تجد النابغة الذي يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه.

❖ عقل الإنسان المحدود لا يسع غير المحدود، وعلمه القليل لا يصل إلى إدراك المجهول الذي لا نهاية له. لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل في عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينًا وشمالاً. لا فرق في ذلك بين الغبي الجاهل والذكي العالم.

❖ المقلد في إيمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة في عروة الملابس. والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول: إن كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيري وإن كان موجودًا ربحت مع الرابحين، لذلك آومن به! هذا هو المحتال الذي لا يصان أحد حتى الإله من نصبه.

❖ الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الإنسان في جميع أدوار حياته، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمنًا من السقوط يومًا في الرذيلة، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتي يومًا بأفضل الأعمال.



الفرد
القبيلة
الوطن

قراءة نقدية فى رواية حجاج أدول «معتوق الخير»

أبو المعاطى أبو النجا



■■ لعل هذه أول رواية فى الأدب العربى الحديث تقدم بدرجة عالية من التمول والعمق والامتداد أول تشريح «فنى» لمجتمع القبيلة حول هذا الجزء من حوض وادى النيل المعروف ببلاد النوبة فى أواخر العهد العثمانى وفى مرحلة بدأ فيها هذا المجتمع القبلى يعرف درجات من الانفتاح على ما حوله من مناطق مصر العليا والشمال السودانى.

ويلوح أن هذا التشريح الفنى والأدبى يهدف إلى جلاء صورة الفرد فى مرآة القبيلة، وصورة القبيلة فى مرآة الفرد وفى ضميره، ففى كل ما يصدر عن شخصيات هذه الرواية من سلوك يمكن للقارئ أن يكتشف أن قيم وعادات القبيلة كامنة ومؤثرة وفاعلة فى سلوك الفرد، وحتى فى سلوك بعض الأفراد الذى يبدو ممعنا فى فرديته، ومتمردا وثائرا على القبيلة، مثل سلوك «همارين» الساحر أو «سلاطين» المتمرد الذى يصبح عمدة وزعيما للقبيلة أو «أثمان» المنفلت والهارب الذى يصبح أخيرا صانعا للخمور ومتاجرا فيها ضد أعراف القبيلة، فإن سلوك هذه الشخصيات إنما هو خلاصة جدل عميق بين هذه الشخصيات وبين قيم القبيلة وعاداتها وتقاليدها قبولا وإذعانا أو رفضا، وتطويرا فى اتجاه أن يكتسب الفرد مزيدا من الحرية المدفوعة الثمن، وأن تكتسب الجماعة مزيدا من المرونة والحركة المدفوعة الثمن كذلك.

كما يمكن للقارئ أيضا أن يلاحظ فى كل ما يصدر عن القبيلة من أعراف وطقوس وعادات كيف أن القبيلة تفرد مظلتها الكبيرة أو عباءتها على كل فرد فيها تحميه وترعاه، وتعاقبه وتحاسبه، وتراقبه وتوظفه وتكاد لا تسمح له بأن يفلت من قبضتها حتى فى أحلامه، حتى ولو كان فى قوة «همارين» الساحر» أو «سلاطين» الزعيم.

تقوم هذه الرواية على بناء شبكى، فأى خيط تبدأ منه يقودك إلى بقية الخيوط، يبدأ السرد الروائى غالبا بالحديث عن إحدى شخصيات الرواية عن أبرز صفاتها، بشكل مباشر أو من خلال الموقف أو الحدث، ويتحرك بحركتها فى أى اتجاه، وبالرغم من كثرة الشخصيات، وتداخل المواقف والأزمنة، فالقارئ لا يضل أبدا فى غابة هذه الرواية، فالشخصيات كلها قريبة وحاضرة وتلتقى فجأة بالشخصية التى كنت تخشى أن تند عن ذاكرتك!

كيف حافظ الكاتب على هذا التوازن المدهش؟ وهذا الحضور المتوازى أو التقاطع بين كل هذه الشخصيات؟ هل عبقرية القبيلة التى لا يتحقق وجودها إلا من خلال هذا البناء الجماعى المدهش، فكل فرد من أفراد القبيلة لا يمكنه أن يبقى وحده لوقت يطول أو يقصر، إنه فى أقصى حالات تفرده يبقى دائما جزءا من كل، وحتى حين جاءهم تاجر العبيد «بمعتوق الخير» بطل هذه الرواية، والتى تحمل اسمه، ذلك الطفل الذى هو بعض من الإنسان، وبعض من الذئبة التى أرضعته فى الكهف، وقبل أن يلتقيه تاجر العبيد، فإن القبيلة عرفت كيف تجعل من «معتوق الخير» هذا جزءا لا يتجزأ من أبنائها، جزءا يختلط فى كل أطوار حياته بسداها ولحمتها: وليكون له بعد موته هذا المقام الكبير الذى يحتل مكانه إلى جوار أكبر أوليائها السابقين.

الطبيعة بكل أشكالها، النهر والجبل، والشمس والقمر والنجوم، الطيور والحيوانات، والزرع والشجر البيوت والرياح والمطر، الجن والإنس، فى النهار وفى الليل وفى مختلف الفصول، كل هذا جزء من البناء الروائى من خيوط الشبكة، كل هذا مبثوث خلال المواقف، وعبر الأحداث، كل هذا موصوف ومرصود بعيون شخصيات الرواية وعلى ألسنتهم بحيث لا يشعر القارئ بافتعال الوصف أو إقحامه بل يأتى كجزء من الحدث أو من رؤية الشخصية يكشف عنها بقدر ما تكشف عنه، الأحداث الاجتماعية فى القبيلة يشترك فيها الصغار ولكبار، تحرك مشاعر الصبيان والبنات والنساء والرجال، وهى جزء من الأحداث الكونية والروحية والفردية فالزمن الذى تجرى فيه مثل هذه الأحداث محسوب بمواسم الفيضانات، وحصاد المحاصيل، وبما يعترى ذلك من وفرة المياه أو نقصانها، وبالتالى زيادة المحصول أو قلته وبالتالى يسر الحياة وعسرها.

هذا عالم يمسك فيه كل شىء بأطراف كل شىء «خروكان» لابد أن يجىء البناء الشبكى لهذه الرواية ليستطيع الكاتب والقارئ أن يعيش معا هذه المغامرة التى تحاول من خلال هذه البلورة السحرية أن تمسك بالدنيا كلها أو على الأقل أن ترى بعض تجلياتها التى لا يمكن أن تلوح إلا من خلال هذه الرؤية الكلية الجزئية فى الوقت ذاته.

ومع أن كل شخصية فى هذه الرواية تكاد تكون لها صلة بطريقة أو بأخرى مع بقية شخصيات الرواية إلا أن هناك علاقات ثنائية بين بعض شخصيات الرواية تميزها، وتمنحها دلالات فريدة وإيقاعات خاصة.

فالأشرم برغم ذكائه الشديد يعانى بسبب من ظروف - لا يد له فيها - من مهانة الضعيف، وهو يحتاج إلى أن يكون فى حماية شخص قوى مثل «سلاطين»، ولكى يتحمل الأشرم وطأة مثل هذه العلاقة - فإنه بطريقة لاشعورية يتماهى مع شخصية صديقه «سلاطين» وحين يقرر «سلاطين» القوى المستبد أن يتزوج «هوشه» التى كان الأشرم يحبها كأخته، فإن «الأشرم» بسبب من هذا التماهى يحبها بدوره كزوجته وإذا أصبح

معتوق الخير
حجاج حسن أدول
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

كان «معتوق الخير» يتحول الى نوع من المعدن النفيس الغامض الذي تمتحن به معادن الناس في القبيلة كلها حين تحتك به أو تتفاعل معه!

سلاطين يتعجب من «هوشه» في الحقيقة، فإن الأشرم يتعجب منها في الخيال، كل ذلك نتيجة التماهي بين الرجل الضعيف والرجل القوي لتستمر هذه العلاقة غير المتكافئة، لكن كان لابد أن ينكسر ذلك التماهي حين يبدأ سلاطين في كره المرأة التي أصبحت زوجته وأم أولاده.

ويبدأ الأشرم الشطارد حين يتعملق في حب المرأة التي لم يتزوجها، ويمهد هذا الانشطار إلى تطور العلاقة بين «الأشرم» وسلاطين» في جدل رائع بين ضعف القوي «سلاطين» وبين قوة الضعيف «الأشرم» بحيث يكون الأشرم في نهاية الرواية وهو من أضعف الرجال في القبيلة هو الوحيد القادر على قتل «سلاطين» الذي أصبح في مكانة العمدة والزعيم للقبيلة كلها.

هذا مجرد نموذج لعلاقة ثنائية بين رجل ورجل في هذه الرواية، ويمكن أن نشير بسرعة إلى نموذج آخر لعلاقة ثنائية أخرى بين «رجل» «وامرأة» هذه المرة.

وهما «أثمان» و«تعويضه تسانين» وهذا ما أطلقته القبيلة عليها بسبب من طول لسانها وجرأتها القاسية اللاذعة، قدرتها على الحكي والثرثرة تتجلى في أكثر من مجال، وبأكثر من طريقة، هي المعددة في رقصة النائحات وهي المغنية في الأفراح وهي التي تحكي للأطفال حكايات القبيلة الخرافية، بطريقة تجعلهم يصدقون أن «الايركابي» وهي نوع من الوحش الخرافي، حقيقة واقعة وانهم سوف يلتقون بها، وسوف تأكلهم دون أن تترك منهم شيئا لو مضوا بعيدا عن البيوت ناحية الصحراء ولكن حين يزعم «معتوق الخير» ذلك الصبي الذي هو نصف إنسان ونصف حيوان، لأن ذئبة أرضعته حين يزعم بأنه رأى الايركابي حقا، وأنه تكلم معها، فإن تعويضه تصرخ في وجه «هكيمه» أمه:

. سوف أموت لو ظل طفلك المجنون هذا يردد مثل هذا الكلام إنها تبدأ في تصديق ما كانت تسعى إلى أن تخيف به أطفال القبيلة!

الرجل «اثمان» كان في بداية شبابه حلما لكثيرات من فتيات القبيلة ومن بينهن «تعويضه» لكنه في بداية شبابه هرب من القبيلة كلها إلى الجنوب وراء أحلام مجنونة، وبحثا عن حريات مستحيلة، وحين عاد خائبا من رحلته ليركن تحت جناح القبيلة، فانه لم ينجح سوى في مواصلة الهروب تحت هذا الجناح في مهنة ترفضها القبيلة في العلن ولكن بعض أفرادها يهربون اليها في الخفاء، إنها صناعة الخمور وتجارتها.

وهكذا كان ما يربط بين الرجل والمرأة بين «تعويضه لسانين» و«اثمان» بذرة حب قديم خائب، وأن كليهما يعاني من نوع من النبذ من القبيلة، وأن كليهما لا تستغني عنه القبيلة أو بعض أفرادها في الوقت ذاته، ويظل هذا النبذ المشترك هو ما يربط بين «اثمان» و«تعويضه» كما يظل ذلك التمرد المقموع داخل كل منهما جامع آخر، كما يبقى التقدير الخفي من كل منهما لمواهب الآخر في السخرية والجرأة والتطاول أحيانا على تقاليد القبيلة هو أعظم وأجمل ما يربط بينهما على الإطلاق وحين كانت تتقطع الوشائج بين كل واحد منهما وبين من كانوا قريبين منه من زوج أو زوجة من أبناء وبنات، فإن «اثمان» و«تعويضة» يزدادان قربا من بعضهما على مدار الرواية، وهكذا فإنهما حين اجتمعا في نهاية الرواية في مصير واحد بشع كان من الواضح أنهما معا، كانا يستحقان رواية مستقلة عن هذه الرواية الضخمة، ودون أن تفقد الرواية الأصلية الكثير من جدارتها.



وبعيدا عن العلاقات الثنائية في الرواية فإن الحديث عن بعض شخصيات هذه الرواية لن يكتمل إلا بهذه الإشارة إلى شخصية «هكيمة» أنها مثل غيرها من شخصيات الرواية في الارتباط بمن حولها من شخصيات القبيلة، لكنها ترتبط أكثر بأختها «نبرة» التي تفوقها جمالا وجاذبية، ولكن التحول الكبير يحدث في حياة «هكيمة» حين يأتي لها زوجها يوما «بمعتوق الخير» ذلك الطفل الذي جلبه تاجر العبيد والذي تكررت الإشارة إلى أنه نصف إنسان ونصف حيوان. كان مجرد طفل في حاجة ماسة لمن ترضعه من النساء، وحين فعلت ذلك «هكيمة» فإن كل شيء في حياتها قد بدأ في التغير، بالرغم من أنها كانت في ذلك الوقت ترضع طفلها الحقيقي «ألوا» إلا أنها كانت تعاني من الشعور بأن صدرها يكاد يجف من الحليب، ولكن ما كادت شفتا «معتوق الخير» تمسان ثديها حتى عاد يتدفق بالحليب، وعلى نحو هادئ تدركه «هكيمة» ان صدرها لم يكن وحده الذي عاد يتدفق بالحليب، دماء جديدة عادت تتدفق في جسدها كله، أصبحت لا تقل جمالا ونضارة عن شقيقتها «نبرة» الخير يأتي إلى بيتها من كل صوب، زوجها «أبيدون» يتسع رزقه من الأرض التي يزرعها، الطيور والحيوانات التي تربيها في البيت تتكاثر كما لم تعهدها من قبل، ويستقر في وجدانها أن هذا كله لم يحدث إلا بعد أن جاءهم «معتوق الخير» وتمضي الأيام والسنون التي يكبر خلالها معتوق الخير هذا ليتأكد أن قدومه كان خيرا على القبيلة كلها بمعنى من المعاني.

ولكن الأيام ذاتها والسنون تؤكد أن قدوم معتوق الخير كان غصة في حلق «ألوا» الابن الأصلي لـ«هكيمة» و«أبيدون».

فهو لا يفهم أبدا معنى أن يأتي هذا الطفل الحيواني المجلوب ليستولي على كل هذا الحب من أسرته، من أمه وأبيه بل وعلى هذا الاهتمام من القبيلة كلها.

لم يكن «معتوق الخير» طرفا في هذه الخصومة، لم يكن يفهم حتى لماذا يكرهه «ألوا» ويؤذيه إلى هذا الحد مع أنهم قالوا له انه أخوه!!

كان معتوق الخير يتحول الى نوع من المعدن النفيس الغامض الذي تمتحن به معادن الناس في القبيلة كلها حين تحتك به أو تتفاعل معه!

يصل تطور الأحوال بـ«ألوا» وتمكن الغيرة والكراهية لمعتوق الخير من قلبه إلى أن يصبح صبيا شاذا وعاجزا عن أن يقيم علاقة طبيعية مع رفاق سنه في القبيلة ومع أقاربه في العائلة.

يصبح «ألوا» محنة لعائلة: محنة للأب والأم، حين تشيع فكرة شذوذه بين أفراد القبيلة، حيث يعتقد الأب انه قد يكون من المناسب أن يواجه الأب ابنه، بما يردده الكبار والصغار في القبيلة عن العلاقة الشاذة لـ«ألوا» بالصبيان في مثل سنه، فقد يكون لمثل هذه الصدمة من الأثر ما يحدثه الكي بالنار من شفاء ما هو مستعص من الأمراض.

لكن تعامل «هكيمة» مع هذه المحنة كان في حد ذاته ذروة الحكمة التي يمكن أن تصل اليها فطرة انسان بسيط.

تقول «هكيمة» لزوجها «أبيدون»:

«انهما سيفقدان ابنهما «ألوا» لو واجهاه بمعرفتهما وتصديقهما لمسألة شذوذه!».

فتيقن أن عطاء الله لهم المتمثل في معتوق الخير له أثر رئيسي في أزمة «ألوا» وأن ابنهما لم يستطع حتى الآن أن يفهم أن معتوق الخير أتى ليحمي حياته، وحين يفهم بعد وقت تأمل أن يكون قصيرا سوف تبرأ نفسه من الكثير من آلامها، وإن المزيد من الصبر والحنان سوف يساعد «ألوا» على تخطي آلامه النفسية، والعيب الذي ابتلاه الله به. كيف تمتع هذه القبيلة مثل هذا المستوى من الحكمة؟!

إن الموقف من «معتوق الخير» من هذا المعدن النفيس الغامض هو الذي يكشف الحقيقة عن معادن الكثير من الناس في القبيلة، وما على القارئ هذه الرواية سوى أن يتابع رحلته مع كل شخصياتها في ضوء ذلك الصيص من النور الذي أضاءته لنا هكيمة الحكيمة!

«سلاطين الزعيم»

الاكتشافات الأولى في حياة «سلاطين» كانت بالغة القسوة اكتشف أن المرأة التي كان يعتقد أنها أمه، هي عمته «هكيمة»، وأن الرجل الذي كان يظنه أباه هو زوج عمته «نوري» العمدة.

ثم قالوا له إن أمه الحقيقية قد ماتت بعد ولادته بوقت قصير، وإن أباه الحقيقي اسمه «أثمان»، وأنه قد هاجر الى الجنوب دون أن يعرف أحد أسباب هذه الهجرة، ولا مقصدها ولا متى تكون العودة؟

لم يتورط مؤلف هذه الرواية في الحديث عن الآثار التي من الممكن أن تتركها مثل هذه الاكتشافات الأولى في شخصية الطفل والصبي «سلاطين»، ولم يتورط في تفسيرات من نوع أن مثل هذه الاكتشافات، وطريقة الصبي «سلاطين» في التعامل معها كانتا وراء طموحه الشديد، ورغبته القوية في أن يصبح يوما هو عمدة القبيلة في مكان «نوري» زوج عمته، فقط اكتفى المؤلف، وهذا بعض ما يحمد له بأن يصور بدقة وأمانة سلوك «سلاطين» في البيت وفي الكتاب، وفي

الأماكن التي يتجمع فيها مراهقو القبيلة عند «ربوة مجيد الرملية» يلعبون ويترثرون وينفثون عن مكنون صدورهم بعد أن يتجرعوا القليل أو الكثير من عرق البلح.

وكيف تطورت علاقته «بألواء» الابن الحقيقي للعمدة «نوري» الى أن يصبح «ألوا» الشاذ ضحية لعلاقة «سلاطين» المتمرد به.

ومع أن «سلاطين» كان يكن ذات الكراهية والغيرة «لعتوق الخير» الذي تربى بينه وبين «ألوا» في بيت العمدة الى انه لم يسقط ضحية هذه الغيرة مثلما حدث مع «ألوا».

ومن خلال هذا التصوير الدقيق كان القارئ يشعر بعمق القلق الذي يتفجر في داخل سلاطين الصبي والمراهق، والذي يتجلى في ذروته في لقاء سلاطين مع أبيه «أثمان» بعد عودته من غيابه الطويل الغامض.

يقول «أثمان» الأب:

«سلاطين يا بني.. دع الماضي.. أنا معك الآن».

«لماذا عدت الآن؟ لو كنت مت أنت بدلا من أمي!؟».

وفي محاولة أخرى من «أثمان» لاحتواء «سلاطين» في حضنه يصرخ فيه سلاطين نافضا ذراعي أبيه:

«لن أبقى معك.. سأهجرك إلى أن تموت كما هجرتني. سأبقى مع العمدة رغما عنه وعنك حتى أعذبكما معا!».

تلك لمحة خاطفة عن نشأة «سلاطين» الذي سيصبح زعيما لشلة المراهقين عند ربوة مجيد، وقبل أن يصبح عمدة للقبيلة!

في مرحلة زعامته للشلة نتعرف على الفتيان والفتيات الذي سيبرز من بينهم أبطال الجيل الثاني في هذه الرواية ممثلين لتيارات ثقافية مختلفة، وفي هذه المرحلة نرى كيف سيبدو «سلاطين» مختلفا ليس فقط عن الكبار في القبيلة بعدما جرى له مع أبيه، بل حتى عن أفراد شلته، وفي بحثه المجنون عن مصدر للقوة والاستقلال قاد شلته للوصول إلى المقبرة الأثرية التي سمع أن الخواجات يأتون إليها سرا وليلا مع سماسرة من البلاد المجاورة للبحث عما بها من كنوز للملوك القدامى، وقبل أن يصلوا إلى حجرة الكنز يعود «سلاطين» وحده ذات ليلة لينفرد بالخبيئة، ولأن ناس القبيلة كانوا يزدرون فكرة الحفر في قبور الموتى ويرونها عملا منافيا للدين ولحرمة الموتى، فقد كانت البداية في صعود «سلاطين» هي اختلافه عن أهل قبيلته في النظر إلى الماضي، ثم إنه يختلف مع قبيلته مرة أخرى في النظر إلى المستقبل حين عمل وعبر سنوات طويلة على كسر حواجز العزلة من حول قبيلته من خلال إدخال عنصر التجارة الكبير إلى عالم القبيلة، بما توفر له من أموال الكنز الذي انفرد بالسطو على المقبرة التي تحتويه وبيع محتوياتها، وعلى إدخال أنواع من الصناعات الصغيرة التي لم يكن لها وجود في قرى القبيلة ثم على إنشاء ميناء على النهر أمام إحدى قرى القبيلة وبناء مخازن بجوار الميناء للبضائع الواردة، ولمزروعات القرية الصادرة، ثم بناء مدرسة جديدة إلى جوار الكتاب القديم، ثم السماح لمدينة صفيح عشوائية صغيرة بأن تمتد على حافة القرى النوبية ليعيش فيها العمالة والعبيد المجلوبين من الجنوب للعمل في الميناء والمخازن والصناعات الصغيرة.



القبيـــلة تفــــرد مظلتهـــــا الكبيــــــرة أو عبـــــــاءتهـــــا عــــــلى كل فـــــــرد فيهـــــــا تحميــــه وترعـــــاه

هل نجرؤ على أن نصف هذه الحركة الهادرة الجديدة بأنها خير هبط على القرية، وحرك سكونها الطويل، وانه من الطبيعي أن يفسد تفاؤها القديم، وأن هذا الخير العميم إنما جاء مرتبطا بشرور كثيرة تجسدت فيما قام ويقوم به سلاطين العمدة أو الذي أصبح العمدة، مع أو ضد الكثير من زعماء التيارات الثقافية المختلفة في القبيلة من الشباب الذين كانوا أصدقاء شلته في زمن المراهقة عند ربوة مجيد وهي الشرور التي قادت أصدق أصدقائه، والذي كان بمثابة ذراعه اليمنى في إنجاز الكثير مما قام به صديقه الذي كانوا يسمونه «الاشرم» قادت صديقه هذا ليقوم بقتله وهو في ذروة قوته ومجده!

بالنسبة لمثل هذه الرواية الملحمية الكبيرة التي يصعب تقديم صورة «بانورامية» لمجمل شخصياتها وأحداثها في مقال، كان من الضروري أن نختار بعضا من أهم هذه الشخصيات للكشف عن التوجه العام لمسار هذه الأحداث والشخصيات. وهنا ملاحظات:

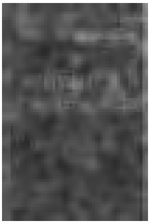
- سوف يلاحظ القارئ أن الشخصيات التي توقفنا أمامها في هذا المقال بشيء من التفصيل وهي «الاشرم» و«سلاطين» و«اثمان» و«تعويضة لساتين» و«عكيمة» هي كلها شخصيات تتمتع بقدر هائل من الثراء والتعقيد والسمة البارزة والمشتركة في كل هذه الشخصيات أنها شخصيات تمتلك القدرة على قبول التناقض، والتعامل معه، مرة بمرونة حين لا تكون قادرة على حسم الأمور المتناقضة لصالحها، ومرات بعنف أو قوة حين تكون قادرة على مثل هذا الحسم وفي الوقت المناسب لها، وهذه القدرة لا علاقة لها بالمستوى الاقتصادي أو الثقافي للشخصية، ولكنها قدرة شبه فطرية تتصل بالإمكانات النفسية والعقلية للشخصية.

- التركيز على هذه النوعية من الشخصيات كان وراءه انها هي التي قامت بالدور الأعظم في تحقيق الإنجاز الذي تطمح اليه هذه الرواية وهو رصد لحظات التحول في حياة بعض قرى النوبة وبعض قبائلها في مرحلة تاريخية اشتد فيها التواصل بين هذه القرى مع الشمال السوداني من ناحية، ومع الجنوب المصري من ناحية أخرى والكشف عن الطابع العام للقوانين التي تحكم هذا التحول بوجهيه الاقتصادي والاجتماعي الثقافي، الأمر الذي كان لابد أن يؤدي إلى خلخلة النظام القبلي المستقر والآمن والهادئ في هذه القرى منذ سنين مع ما قد يسبب ذلك من الام ومآس هي ثمن لابد أن تدفعه هذه المجتمعات فلا يوجد انتقال آمن أو فجائي.

- الشخصيات التي لم نتعرض لها في هذا المقال مع أنها كانت لها أدوارها الهامة في مقاومة هذا التحول أحيانا أو الرغبة في ترشيده أو الحد والتقليل من مخاطره، كلها شخصيات من النوع الذي يتسم بأحادية النظرة والجمود والميل الى المألوف والمستقر، من أهم هذه الشخصيات «صلاتو» أمام المسجد وحفيده «بلال» الذي يتعلم في الأزهر في القاهرة ويعود في الإجازات والمناسبات ليشارك فيما يجري من أحداث في القرى النوبية، والفنان المغني «تاج طنبورة» و«أبيدون» العمدة و«هاشم الكيد» الفلاح الذي قدم من الصعيد واندمج في القبيلة وطور أساليب الزراعة في القرى النوبيـــة، بعضهم حماه تمسكه بالتقاليد وبعضهم دمره هذا التمسك بها. ■


مصر للتأمين
ادخار وتأمين
لو عمرك
٤٠ سنة
أو أقل
ومدة التأمين
والقسط الشهري
يستحق لك في نهاية مدة التأمين
مبلغ التأمين
الأرباح المتوقع تحقيقها
٢٠ سنة
١٠٠ جنيه
٢٤٠٠٠ جنيه
+
٤١٠٠٠ جنيه
وذلك طبقاً لآخر معدل معتمد لتوزيع الأرباح
وفي حالة الوفاة لاقدر الله يستحق مبلغ التأمين بالإضافة إلى ما يخص الوثيقة من أرباح
حتى تاريخ الوفاة
Email: misr_ins@misrins.com
Website: www.misrins.com

أزمـة الـدور الأمريـكى



إصلاح المصداقية الأمريكية لن يكون أمرا من أمور العلاقات العامة، إنها ستتطلب فريقا وسياسات جديدة لمواجهة التحديات التى تكاد تعصف بالسياسة الخارجية الأمريكية

السيد أمين شلبى

■■ خلال عملى بالسفارة المصرية فى واشنطون فى الثمانينيات، وفى ترددى على وزارة الخارجية الأمريكية كنت أحرص على زيارة إدارة التخطيط السياسى Policy Planning ، وهى الإدارة التى كلف وزير الخارجية الأمريكى جورج مارشال الدبلوماسى والمؤرخ الأمريكى جورج كينان بتأسيسها عقب انتهاء الحرب الثانية لكى تتولى التخطيط للسياسة الخارجية الأمريكية لفترة ما بعد الحرب ومشروعاتها، وكان المشروع الأول الذى خططت له هذه الإدارة هو مشروع مارشال للنهوض بالاقتصاد الأوروبى. ومنذ هذا الوقت وهذه الإدارة تساهم بشكل مؤثر فى صياغة السياسة الخارجية الأمريكية، على الأقل كما تتصورها وزارة الخارجية الأمريكية، وفى النصف الأول من الثمانينيات، التى توافقت مع فترة عملى، كان يرأس هذه الإدارة بيتر رودمان، والذى كان المساعد الأيمن لهنرى كيسنجر، وهو الذى حرر مذكراته، وهو يشغل حاليا وكيل وزارة الدفاع لشئون الأمن الدولى، كما كان بها دافيد آرون ميللر، والذى كان مختصا بقضية النزاع العربى الإسرائيلى، وسوف يمتاز فى فترة العشرين عاما التالية مع كل من دنيس روس، ومارتن انديك،

America at the crossroads :
Democracy, Power and the
Newconservative legacy
(أمريكا فى مفترق طرق: الديمقراطية، والقوة وميراث المحافظين الجدد)
Francis Fukuyama
Yale University Press, 2006

الثالوث الذى سيكون الفريق الأمريكى فى محادثات السلام الإسرائيلية الفلسطينية. كذلك كان ضمن فريق الإدارة شاب كان واضحا ملامحه الأسيوية هو فرانسيس فوكوياما، والذى كانوا يحددونه لى عندما أود مناقشة الأوضاع فى إيران، وأفغانستان، وكان واضحا لى تركيزه على الأساس التاريخى والفكرى للقضايا وابعادها الاستراتيجية التى تتعدى نطاقها المحلى، فكان يرى الثورة الإيرانية كمقدمة لتوتر بين الإسلام والغرب، وكان يرى فى هذا الوقت المبكر - الوضع السوفيتى وأفغانستان وتأثيراته المحتملة على النظام السوفيتى. تابعت فوكوياما بعد ذلك وفهمت أنه انتقل للوسط الأكاديمى ليعمل فى مؤسسة راند وهى من كبرى مؤسسات الفكر والبحث الأمريكية، ويبدو أن هذه الفترة هى التى فكر وانتج فيها مقالته الشهيرة، نهاية التاريخ، التى نشرها عام ١٩٨٩ فى دورية The National Interest ، وهى منبر التيار المحافظ المتشدد، والتى أراد بها أن يقدم مسحا للمسرح الدولى يعالج من خلاله «المسائل الكبرى». فى هذه المقالة، التى كان أساسها محاضرة قدمها فى جامعة شيكاغو، اعتبر فوكوياما أن القرن العشرين قد بدأ والعالم المتقدم يخوض صراعا عنيفا بين الليبرالية والديمقراطية، وبين بقايا الحكم المطلق ثم مع النازية والبولشفية، ثم انتصف بما تنبأ به البعض من عملية تلاقى أو تقارب Convergence بين الرأسمالية والاشتراكية، غير أن القرن ينهى دورته بالنصر الواثق لليبرالية الاقتصادية والسياسية، ورأى فوكوياما أن هذا النصر يبدو أولا وقبل كل شىء فى «الاستبعاد الكامل لأى نظم بديلة لليبرالية الغربية تكون صالحة للحياة...» وانتهى فوكوياما إلى أن ما نشهده ليس مجرد إنهاء الحرب الباردة، وانقضاء فترة وإنما نهاية التاريخ نفسه ووصوله إلى نقطة نهائية فى التطور الأيديولوجى للبشرية ولعالمية الديمقراطية الغربية كشكل نهائى من أشكال الحكم.

وكانت هذه المقالة بما أثارته فى الدوائر الأكاديمية والفكرية هى التى قدمت فوكوياما كمؤرخ ومفكر استراتيجى وخاصة بعد أن طورها فى كتاب أصدره عام ١٩٩٢ عنوانه، نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، وبعدها واصل فوكوياما أعماله الفكرية والبحثية فأصدر عام ١٩٩٥ كتابه: Trust : the social virtues and the caqution of prosperity كما أصدر عام ١٩٩٩ كتابه The Great Disruption : Human Nature and the reconstruction of social orolers ، وفى عام ٢٠٠٢ أصدر كتابه:

Our Post Human Future : Consequences of the biotechnology Revolution

ثم أصدر فى عام ٢٠٠٤ كتابه:

State Building : Governance and the world order in the 21st century .

أما كتابه الأخير فهو الذى نعرض له اليوم والذى أعلن فيه انفصاله عن مجموعة المحافظين الجدد الذين ارتبط بهم منذ التسعينيات ووقع على العديد من وثائقهم ومشروعاتهم: أما اليوم فهو يقول «إنه كان لديه العديد من الانتماءات مع أجنحة مختلفة من حركة المحافظين الجدد، وكنت تلميذا لآلان بولوم تلميذ شتراوس الذى كتب The Closing of American Mind ، وعملت فى مؤسسة راند، وعملت فى مناسبتين مع وولفوويتز، وقد فسر العديد من الناس كتاب « نهاية التاريخ والإنسان الأخير» باعتباره منشورا من منشورات المحافظين الجدد.» وانتهى إلى أن « حركة المحافظين الجدد كرمز سياسى وكيان فكرى قد تطورت إلى شىء لا أستطيع بعد الآن تأييده».

يقرر فوكوياما فى البداية أن كتابه هو محاولة لتوضيح ميراث المحافظين الجدد، وأن يشرح لماذا أخطأت إدارة جورج بوش، وأن يخطط طريقا بديلا للولايات المتحدة فى علاقتها بالعالم. ففيما يتعلق بتقييمه لميراث المحافظين الجدد وأصولهم الفكرية، فيعتبر أن جذور المحافظين الجدد تكمن فى مجموعة متميزة من المثقفين اليهود ممن ظهروا فى الثلاثينيات والأربعينيات.. ارفنج كريستول، ودانيال بل، وارفنج هاو، وسيمور مارتن ليبست وفيليب سلزنك، وناثان جارلز ثم متأخرا دانيل باتريك مونيهان. وقد كانت الفترة التى ظهروا فيها، كما هى الحال اليوم، فترة أزمة حادة فى السياسة العالمية وكانت الجامعة التى ينتمون إليها مسيسة تماما وملتزمة بسياسات الجناح اليسارى، ومع هذا كان أهم ما ورثوه هو المعاداة إعادة للشيوعية وكراهية مساوية لليبرالية المتعاطفين مع الشيوعية الذين لا يرون الشر الذى تمثله. ولهذا فإن فهم بدور الليبرالية المعادية للشيوعية هذه خاصمة لفهم

أصول المحافظين الجدد ومعارضتهم للهندسة الاجتماعية وهو الخط الأكثر دواما الذي يجري عبر هذه الحركة. وقد انعكس فكر هذه المجموعة في هذه الفترة في مجلات مثل: the partisan Review, Commentary ثم The Public Interest وهكذا كانت معركة التكوين الأولى التي شكلت حركة المحافظين الجدد هي الحرب ضد الستالينيين في الثلاثينيات والأربعينيات، والمعركة الثانية كانت مع اليسار الجديد والثقافة المضادة التي أطلقتها في الستينيات وكان لهذه المعركة الثانية أبعادها السياسية الخارجية والداخلية، فمعارضة الحرب في فيتنام قد انجبت جيلا من اليساريين الأمريكيين المتعاطفين مع النظم الشيوعية الماركسية في هافانا وهانوي، وبكين، كما أدت أيضا إلى أجندة داخلية طموحة التي فكرت في أن Emulate تقلد دول الرفاهية الأوروبية وأن تخاطب العديد من الأسباب الرئيسية لعدم المساواة الاجتماعية. وقد أسس كل من كريستول و بل The Public Interest لكي تلقي نظرة نقدية، وإن كانت دائما متعاطفة، مع الجزء الداخلي من هذه الأجندة، وقد أصبحت هذه الدورية بيتا لجيل من الأكاديميين وعلماء الاجتماع والمثقفين ومراكز الأبحاث.

وكان ما يربط هذه المجموعة هو الحدود التي تفرضها على الهندسة الاجتماعية Social Engineering وكانت تعتبر أن الجهود الطموحة لتحقيق العدالة الاجتماعية تنتهي بالمجتمعات كأسوأ مما كانت من قبل، ذلك أنها تتطلب تدخلا شاملا من الدولة يفكك العلاقات العضوية الاجتماعية، كما أنه ينتج نتائج غير متوقعة.

وفي تقييمه النهائي للمحافظين الجدد فإنه يلقي نظرة على ميراثهم ليس فقط خلال السنوات الخمس الماضية، ولكن في الخمسين عاما المنقضية، فبداءة فإنه يقرر أن هناك قدرا كبيرا من التنوع في وجهات نظر الذين ينتمون إلى هذه الحركة خلال ربع القرن الأخير وبشكل لا يقترب من خط حزبي واحد، ومع هذا فإنه من الممكن أن تستخرج أربعة مبادئ رئيسية تصف فكر المحافظين الجدد والتي تشرح بشكل منطقي المواقف السياسية التي اتخذوها وتميزهم عن مدارس فكرية أخرى حول السياسة الخارجية، وهذه المبادئ هي:

● الاعتقاد بأن الطابع الداخلي للنظم هو شيء مهم وأن السياسة الخارجية يجب أن تعكس أعمق قيم المجتمعات للبلدان الديمقراطية.

● الاعتقاد بأن القوة الأمريكية كان يمكن أن تستخدم لأهداف أخلاقية وأن الولايات المتحدة تحتاج إلى أن تظل مرتبطة بالشئون الدولية، فباعتبارها قوة العالم المسيطرة فإن الولايات المتحدة عليها مسئوليات في مجال الأمن.

● عدم الثقة في مشروعات الهندسة الاجتماعية، وعدم الثقة في هذه الخطط هو الذي يربط نقدهم للستالينية في الأربعينيات بشكهم حول «مشروع المجتمع العظيم» في الستينيات.

● وأخيرا الشك في شرعية وكفاءة القانون الدولي والمؤسسات للوصول إلى الأمن أو العدالة، فالمحافظون الجدد في هذا يتفقون مع الواقعيين أن القانون الدولي هو من الضعف بحيث لا يستطيع أن يفرض القواعد والتحكم في العدوان، وهم ينتقدون بشكل كبير الأمم المتحدة على أنها لا تستطيع أن تكون محكما أو أن تفرض العدالة الدولية، غير أن عدم الثقة في الأمم المتحدة لا يمتد بين كل المحافظين الجدد إلى كل أشكال التعاون الدولي فمعظمهم يفضلون مثلا تحالف الناتو ويعتقدون في بعض المبادئ الديمقراطية المشتركة.

وينتقل فوكوياما إلى الهدف الثاني من كتابه وهو توضيح ماذا حدث من أخطاء في السياسة الخارجية الأمريكية لإدارة بوش، ويناقش في هذا السياق مفهومين وجها سياسات الإدارة وهما مفهوم «الهيمنة الرحيمة» Benevolent Hegemony والاستثنائية الأمريكية American Exceptionalism وهما المفهومان اللذان ظهرا في أدبيات المحافظين الجدد في التسعينيات وخاصة في كتابات ويليام كريستول، وروبرت كاجان. ويبدأ فوكوياما بطبيعة الحال من أحداث ١١ سبتمبر والبيئة الأمنية والتهديدات التي أحدثتها Threat Perceptions حيث اجتمع تهديدان هما الراديكالية الإسلامية، وأسلحة الدمار الشامل، وقد كانت التهديدات موجودة لمدة طويلة كقضايا السياسة الخارجية الأمريكية حيث كان الأول على الأقل منذ ظهور الثورة الإيرانية عام ١٩٧٨، والآخر منذ فجر العصر النووي، وكان كل منهما يشكل مشكلة خطرة للسياسة الخارجية الأمريكية، ولكن اجتماعهما في حزمة واحدة، أثار للمرة الأولى الإمكانية الوشيكة لتهديد نووي أو بيولوجي لا يمكن ردعه للولايات المتحدة، وإمكانية منظمة غير حكومية Nonstate أن تظل خطرا كارثيا هو شيء جديد في العلاقات الدولية ويعرض تهديدا أمنيا غير مسبوق. هذه التهديدات التي اجتمعت بعد أحداث ١١ سبتمبر قد أدت إلى أن تشن الإدارة الأمريكية حربين في أفغانستان والعراق. ولا يتوقف فوكوياما عند حرب أفغانستان، ولكنه يتوقف عند الحرب على العراق ويعتبر أن إدارة بوش ومؤيديها من المحافظين فشلوا قبل أن يقوموا بالحرب في توقع رد الفعل

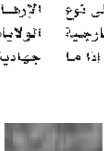
يتوقف عند الحرب على العراق
ويعتبر أن إدارة بوش ومؤيديها
من المحافظين فشلوا قبل أن يقوموا بالحرب
في توقع رد الفعل العدائي العالمي
لها وخاصة في أوروبا

العدائي العالمي لها وخاصة في أوروبا، وقد فعلت الإدارة خطأ تكتيكيا في الفشل بالتنبؤ بموقف الرئيس الفرنسي شيراك ووزير خارجيته دي فيلبان بسحبها تأييد قرار مجلس الأمن الثاني عن الحرب، غير أن معارضة الحرب لم تقتصر على النخبة وحساباتها السياسية، فقبل شهر من الحرب قامت مظاهرات حاشدة في مدن غربية مثل لندن، وروما، ومدريد، التي وافقت حكوماتها على أن تشارك إدارة بوش في الحرب في ظل مفهوم «تحالف الراغبين»، وحقيقة لم تتوحد أوروبا من قبل بشكل تلقائي حول قضية واحدة من هذه وهو ما جعل وزيرا فرنسيا سابقا يصف المظاهرات بأنها «مولد الأمة الأوروبية». وثمة أسباب للتفكير أنه - على غير خلافات أطلنطية سابقة - فإن الشقاق الذي حدث نتيجة الحرب على العراق كان تحولا بنائيا، وعلى هذا فلن يكون من السهل رأبه في المستقبل. ورغم أن أسباب لماذا أثارت حرب العراق هذا الارتفاع المفاجئ في العداء للولايات المتحدة هي أسباب معقدة إلا أن هناك سببا قصير الأجل لهذه المقاومة يتمثل في نظرية الأمن القومي الاستراتيجي عن الحرب الوقائية Preemptive War وهو، اعترافها الضمني بالاستثنائية الأمريكية. ومن الواضح أن نظرية الحرب الوقائية لا يمكن تعميمها في النظام الدولي. فالعديد من الدول تواجه تهديدات إرهابية وقد تتجه إلى أن تتعامل معها من خلال تدخلات استباقية Preemptive ضد تلك المعالم التي تحتضن الإرهابيين، وتقع ضمن هذه الفئة دول مثل روسيا والصين والهند، فإذا فعلت هذا فإن الولايات المتحدة ستكون أول من يعترض عليها، وحقيقة أن الولايات المتحدة منحت نفسها الحق الذي تنكره على غيرها من الدول إنما يتأسس على حكم ضمني أن الولايات المتحدة مختلفة عن البلدان الأخرى وأنها يمكن أن يوثق فيها باستخدام قوتها المسلحة بعدل وحكمة وبطرق لا تستطيعها دول أخرى. والواقع ما كان فقط ضمنيا في تصريحات إدارة بوش الرسمية كان قد تقرر بوضوح بواسطة عدد من الكتاب المحافظين الجدد في السنوات التي قادت إلى حرب العراق، وكان أحد التأكيدات الأولى حول حاجة أمريكا لممارسة قوة مهيمنة لتحقيق نظام عالمي والأمن قد جاءت من تشارلز وتهامر الذي جادل مع نهاية الحرب الباردة أن الولايات المتحدة تواجه «لحظة القطب الواحد» Unipolar Movement حيث لا تستطيع أي قوة أخرى قائمة أن تتحدى الهيمنة الأمريكية، كذلك حاول تشارلز وتهامر أن الولايات المتحدة لا تنشد إمبراطورية كما فعلت غيرها من القوى العظمى، ولكنها سوف تتصرف بممارسة للنظام الدولي. ويفند فوكوياما مفهوم الهيمنة الرحيمة فيعتبر أن فكرة قيادة الولايات المتحدة للحرب الباردة يمكن تحويلها إلى وضع من الهيمنة الرحيمة تجاه بقية العالم يحتوي داخلها عددا من الثغرات الهيكلية والتناقضات التي تجعلها غير ممكنة التحقيق كأساس طويل الأجل للسياسة الخارجية الأمريكية فأولا، ترتكز الهيمنة الرحيمة على الاعتقاد في الاستثنائية الأمريكية والتي يجدها معظم الأمريكيين ببساطة غير جديرة بالثقة، ففكرة أن الولايات المتحدة تتصرف بشكل منزه عن الغرض على المسرح الدولي يعتقد فيها بشكل واسع لأنها في معظمها غير صحيحة وهي حقا غير صحيحة إذا ما حقق القادة الأمريكيون مسؤولياتهم تجاه الشعب الأمريكي، فالولايات المتحدة قادرة على أن تعمل بكرم حين تتوافق مثلها مع مصالحها، ولكن الولايات المتحدة هي أيضا قوة عظمى لها مصالح لا تتصل بالصالح العام العالمي، فالرؤساء الأمريكيون عليهم أن يحموا

المصالح الطبيعية لعدد من الدوائر الخاصة. وعليهم أن يقلقوا حول أمن إمدادات الطاقة، وأن يستجيبوا لمطالب عدد من الدوائر العرقية المختلفة داخل الولايات المتحدة، ويحتاجوا إلى التعاون مع عدد من البلدان بغض النظر عن معاملة هذه البلدان لمواطنيها، وهنالك العديد من المصالح العالمية ابتداء من قوات حفظ السلام الأفريقية إلى تهدئة الانبعاثات الحرارية والتي تجد الولايات المتحدة أنها على درجة كبيرة من العبء بحيث لا تستطيع تقديمها. والمعضلة الثانية حول الهيمنة الرحيمة أنها تفترض مسبقا درجة عالية من الكفاءة من جانب القوة المهيمنة. والعديد من نقاد الولايات المتحدة في حربها على العراق لا يشككون في الحرب على أساس معياري مجرد وإنما يتساءلون عما إذا كانت الإدارة تتفهم ما يتضمنه التحول السياسي الذي تقوم به في الشرق الأوسط. في هذا الشأن فإن هؤلاء كانوا في رأي فوكوياما على درجة كبيرة من البصيرة.

أما المشكلة الأخيرة مع الهيمنة الرحيمة فتكمن في السياسات الأمريكية الداخلية. فثمة حدود حادة لاهتمام الشعب الأمريكي بالشئون الخارجية والاستعداد لتمويل مشروعات خارجية التي ليس لها فوائد واضحة للمصالح الأمريكية. وقد غيرت ١١ سبتمبر هذه الحسابات بعدة طرق وقدمت تأييدا شعبيا لحربين في الشرق الأوسط وزيادة واسعة في الإنفاق العسكري، غير أن استمرارية هذا التأييد ليست أكيدة، ورغم أن معظم الأمريكيين يريدون أن يفعلوا ما هو ضروري لنجاح مشروع إعادة بناء العراق، فإن ما بعد الحرب لم يزد من الشهية الشعبية لمزيد من التدخلات المكلفة.

أما الهدف الثالث الذي كتب من اجله فوكوياما هذا الكتاب فهو يخصصه لتقديم «نوع جديد من السياسة الخارجية الأمريكية» وبديل للولايات المتحدة في علاقاتها بالعالم. ويبدأ فوكوياما من جديد بالحرب على العراق وبأن العراق الآن قد حلت محل أفغانستان كجاذب وأرض تدريب، وقاعدة عمليات للمجاهدين الإرهابيين مع الكثير من الأهداف الأمريكية لكي يطلقوا النار عليها. ورغم أنه كان من أهداف إدارة بوش المعلنة هو إسقاط نظام صدام حسين لكي تكون نموذجا في المنطقة، إلا أنه من الواضح أن الإدارة في ولايتها الثانية قد نحت جانبا في سياستها الخارجية مفهوم تغيير النظم من خلال حرب وقائية. وفي حالة العضوين الآخرين في محور الشر: إيران وكوريا الشمالية، فإن الإدارة قد أطلقت إشارات أنها لا تنوي استخدام القوة المسلحة لتحقيق تغيير في النظم. وهذا في جانب منه انحناء أمام واقع بسيط: فالقوات الأمريكية الآن تمددت من خلال الحرب على العراق، ولم تعد هنالك خيارات بسيطة للتدخل لوقف البرنامج النووي الإيراني أو الكوري الشمالي. ولكن فيما وراء القيود العملياتية، فانه يبدو أن الإدارة قد أدركت أنها دفعت ثمنا سياسيا باهظا للحرب على العراق وأن الحرب الوقائية لا يمكن أن تكون مركز الاستراتيجية الأمريكية. وهكذا فإن قدرة الإدارة على إصلاح المشكلات التي خلقتها لنفسها في السنوات الأربع الأولى ستكون محدودة. فإصلاح المصداقية الأمريكية لن يكون أمرا من أمور العلاقات العامة، إنها ستتطلب فريقا وسياسات جديدة. ويتوقع فوكوياما أن ما تعرضت له الولايات المتحدة وما تعرضت له أجندة المحافظين الجدد قد تدفعهم إلى نوع من الانعزالية في السياسة الخارجية الأمر الذي سيكون أمرا سيئا إذا ما حدث وعادت الولايات المتحدة إلى دورة الانسحاب مثل ما حدث بعد فيتنام، فالولايات المتحدة تظل قوة ضخمة وغنية وذات نفوذ بشكل لا يجعلها تتخلى عن الطموحات الكبيرة في السياسات العالمية. ولكن ما هو مطلوب ليس العودة إلى الواقعية الضيقة وإنما ما يسميه فوكوياما: «الويلسونية الواقعية» Realistic Wilsonianism والتي تدرك الأهمية للنظام العالمي لما يحدث داخل الدول، وأن تلائم بشكل أفضل الأدوات المتاحة مع تحقيق الغايات الديمقراطية. وهذا يعني في المقام الأول نزعا جذريًا للاعتماد والطابع العسكري للسياسة الخارجية الأمريكية Demilitarization، وإعادة التأكيد على أشكال أخرى من أدوات السياسة. فالحرب الوقائية وتغيير النظم من خلال التدخل العسكري لا يمكن أبدا استبعادها بشكل كامل من على المائدة، ولكنها يجب أن تفهم وتؤخذ كإجراءات بالغة التطرف. إن استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة يجب أن تعاد صياغتها رسميا لكي تقدم معيارا واضحا حول متى نعتقد أن الحرب الوقائية مشروعة. وهذه المعايير يجب أن تكون مقيدة ومحددة. إن اللغة الطنانة حول الحرب العالمية الرابعة، والحرب العالمية على الإرهاب يجب أن تتوقف، ورغم أن الولايات المتحدة تحارب حربا ضد حركة جهادية عالمية تحتاج أن تكسبها، ولكن تصور النضال الأوسع كحرب عالمية مثل الحروب العالمية أو الحرب الباردة إنما تبالغ بشكل واسع في نطاق المشكلة وتوحي بأننا نصطدم بجزء كبير من العالمين العربي والإسلامي. أما ما يجب أن تفعله الولايات المتحدة في رأى فوكوياما فهو الترويج للتنمية السياسية والاقتصادية وأن تهتم بما يحدث داخل الدول في العالم. ويجب أن تفعل هذا بالتركيز في المقام الأول على الحكم السليم، والمشاركة السياسية، والديمقراطية والمؤسسات القوية. الأدوات الأولى التي تفعل بها هذا يجب أن تكون في نطاق القوة الناعمة: أي القدرة على أن تكون النموذج، وأن تعلم وتدرب وأن تؤيد النصيحة دائما بالمال. فالسر بالنسبة للنمو سواء سياسيا أو اقتصاديا هو أن القوى الخارجية ليسوا أبدا الذين يدفعون العملية إلى الأمام، انهم دائما الناس داخل المجتمعات. في بعض الأحيان نخب صغيرة، وفي أحيان أخرى المجتمع المدني الواسع، الذي يجب أن يخلق الطلب على الإصلاح والمؤسسات وهذا يتطلب صبرا عظيما في الوقت الذي تبنى فيه المؤسسات، وتنشأ المنظمات، وتتشكل التحالفات وتصبح الظروف ناجحة للتغيير الديمقراطي. في هذا الشأن، ومع بداية ولايتها الثانية، فقد حولت إدارة بوش بشكل جوهري لغتها الطنانة حول الديمقراطية في الشرق الأوسط، ومستخدمة لغة رقيقة تجاه دول مثل مصر والسعودية لحثها على اتباع الإصلاح. وقد قررت كونداليزا رايس كوزيرة للخارجية بوضوح تام أن الإدارة مستعدة لتحمل مخاطر مجيء متطرفين إلى السلطة في انتخابات مفتوحة. وهو تغيير يرحب به. ولكن من المهم أن يكون واضحا في أذهاننا لماذا نفعله، فالديمقراطية في الشرق الأوسط هي شيء مرغوب فيه في حد ذاته، وليس لأنه سوف يحل كل مشكلات الولايات المتحدة مع الإرهاب. وحتى لو تحولت مصر والسعودية إلى ديمقراطيات مستقرة بين يوم وليلة، فسوف تظل الولايات المتحدة منغمسة بعمق في مشكلة الإرهاب لسنوات قادمة. ورغم أن الإصلاح السياسي في العالم العربي هو أمر مرغوب فإن الولايات المتحدة تواجه مشكلة قصيرة الأجل: فهي لا تملك تقريبا أي مصداقية أو سلطة أخلاقية في المنطقة، فالصورة المسيطرة للولايات المتحدة



القوات الأمريكية الآن تمددت
من خلال الحرب على العراق.
ولم يعد هنالك خيارات بسيطة للتدخل
لوقف البرنامج النووي الإيراني
أو الكوري الشمالي

ليست هي تمثال الحرية ولكن هو سجن أبو غريب، والإصلاحيون الليبراليون الموالون للغرب يشعرون بأن عليهم أن يبعدوا أنفسهم عن الولايات المتحدة وهم مستبعدون لتلقيهم منحا من مؤسسات أمريكية للديمقراطية، ويأمل فوكوياما أن لا يظل هذا وضعا دائما، ولكنه يعني أن دفعا قويا للتغيير السياسي قادم من واشنطون في هذه المرحلة الحاسمة سوف يأتي بنتائج عكسية. وهذه توضح أهمية أن تكون هناك مؤسسات دولية بديلة يمكن أن تفصل نفسها قليلا عن واشنطن.

ويقرر فوكوياما أن القوة الأمريكية تظل حاسمة بالنسبة للنظام الدولي، ولكن القوة الأمريكية ستكون أكثر قوة إذا ما كانت مستترة Latent، فرغم حقيقة أن الولايات المتحدة تنفق تقريبا على قواتها العسكرية مثل ما تنفق بقية دول العالم معا، فقد أثبتت حرب العراق أن ثمة حدودا واضحة على فعاليتها العسكرية، فهي ليست مهيأة بهذا لكي تحارب تمردات طويلة، فتوترات حرب العراق قد أجبرت بالفعل البنتاجون في ولاية إدارة بوش الثانية في استعراضه للقوة العسكرية الأمريكية Quadrenial Review، على أن يتساءل عن قدرة الولايات المتحدة على أن تحارب في حربين إقليميتين في وقت واحد. وفي النموذج التاريخي الذي يجب أن تفكر فيه الولايات المتحدة في ممارستها للقوة في عالم القطب الواحد اليوم، فإن فوكوياما لا يحبذ نموذج هنري كيسنجر الواقعي المفضل الذي يقدمه متريتيخ، وإنما يفضل نموذج المستشار الألماني بسمارك الذي بعد أن خاض حربين لتوحيد ألمانيا وبعد تحقيقها عام ١٨٧١، أدرك أن هدف ألمانيا الرئيسي هو أن يؤكد لجيرانها الخائفين والناقمين أن ألمانيا قد أصبحت قوة تحافظ على الوضع الراهن Status Quo Power، وكان هدفه الواضح هو أن يمنع تكوين تحالفات معادية التي سوف تنقد علانية معارضة القوة الألمانية. في هذا السياق التاريخي، يعتبر فوكوياما أن الولايات المتحدة لن تذهب إلى إثارة فرنسا وألمانيا إلى تكوين تحالف عسكري معاد، ولكنها قد أثارت قدرا كبيرا من الوحدة بين أطراف أوروبية عنيدة عادة حول فكرة أن الممارسة الأمريكية غير المسئولة للقوة هي إحدى المشكلات الرئيسية في سياسات المعاصرة. وقد نتج عن هذا بالفعل «توازن ناعم» Soft Balancing حيث حاولت بلدان مثل ألمانيا وفرنسا أن تعارض مبادرات أمريكية أو ترفض التعاون حولها حينما يطلب منها ذلك. وبالمثل فإن بلدانا آسيوية قد انشغلت في بناء منظمات إقليمية عسكرية لأنها قد تصورت واشنطون على أنها غير مهتمة بحاجاتها. كذلك استخدم هوجو شافيز في فنزويلا عوائد البترول لكي يفصل بلدان في الأنديز والكاريبي عن المحيط الأمريكي، في الوقت الذي تتعاون فيه روسيا والصين لكي تدفع ببطء الولايات المتحدة خارج آسيا الوسطى.

ويستخلص فوكوياما أن أكثر الطرق أهمية التي يمكن أن تمارس فيها القوة الأمريكية في هذا المفترق ليس من خلال استخدام القوة، وإنما من خلال قدرة الولايات المتحدة على صياغة مؤسسات دولية.

وهكذا نستطيع أن نضع كتاب فوكوياما هذا ضمن مجموعة من الكتابات أصدرها في الأعوام القليلة الأخيرة عدد من المفكرين الاستراتيجيين والمحللين الأمريكيين، والذين يضعون جميعا الولايات المتحدة وسياستها الخارجية في مفترق طرق ويقدمون لها بدائل وخيارات على سياساتها الحالية. نذكر من هؤلاء كتاب زبيجنيو بريجنسكي The Choice والذي اعتبر فيه أن جوهر الدور الأمريكي هو القيادة لا الهيمنة وكرسه لضمان أن تمارس أمريكا مبادرتها بشكل آمن وتفادي ما يمكن أن يولد مقاومة ومعارضة عالمية بل وكراهية، وكذلك كتاب جوزيف ناي Joseph Nye «The Paradox of American Power»، والذي نبه فيه السياسة الأمريكية بأن للقوة العسكرية أخطارها ويطور مفهوم القوة وعناصرها ويقدم مفهوم القوة اللينة Soft Power الذي يعتمد على التأثير على النتائج التي تريد تحقيقها لا من خلال التركيز بشكل ضيق على الأبعاد العسكرية للقوة الأمريكية، وإنما من خلال الاعتماد على الثقافة والأيديولوجية وجاذبية القيم والإقناع والنموذج والاستماع لآراء الآخرين أكثر مما يعتمد على القسر والضغوط. ثم أخيرا كتاب ريتشارد هاس The Opportunity، والذي يقدم فيه نظرية جديدة للسياسة الخارجية الأمريكية تتمثل في التكامل: Integration مع القوى العالم وأن يصبح هدف السياسة الخارجية الأمريكية هو تشجيع تعددية أقطاب Multipolarity تتصف بالتعاون والتنسيق أكثر من التنافس والصراع. ※

كتاب الزاوية

الحجاب الفتنة

قاسم أمين

❖ رأيت يومًا في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها خادم. يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة. طويلة القامة ممتلئة الجسم، عمرها بين العشرين والثلاثين، في وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقًا تامًا. الجزء الأسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل. والقسم الأعلى غير مستور، وإنما الملاءة مشبوكة في رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين. على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضًا من الوجه، تحجب فاها وذقنها حجابًا لطيفًا شفافًا كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة. كانت تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها ماتجًا كما تفعل الراقصة على المرسح، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام وبالإجمالي كان مجموعها تحريضًا مهيجًا لحواسهم!

❖ أخلاق جديدة عند الشبان: علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتي يرشحون أنفسهم لخطبتهن، وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن. فيرصدون فيها ما تملكه من الأطيان والأماكن وقيمة ما تساويه ومقدار ريعها وسن والدها والأمراض التي يكون مصابًا بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته.. إلخ.. معلومات لا يفكر في جمعها أشد المرابين احتياطًا إذا أقرض مبلغًا جسيمًا بدون تأمين.

كيف نفهم السياسة الإيرانية

مصطفى اللباد

قضى الكاتب ثلاث سنوات فى الاعداد لهذا الكتاب المرجعى محاولاً البحث عن إجابات بشأن الظاهرة الإيرانية مستعينا بالماضى ومستشرفاً المستقبل وبالطبع دارساً ومحللاً للسياسات الإيرانية الراهنة. والمؤلف حاصل على دكتوراه الدولة من ألمانيا فى الاقتصاد السياسى لمنطقة الشرق الأوسط وأصدر فى القاهرة مجلة «شرق نامة» المتخصصة فى شئون إيران وتركيا وآسيا الوسطى. وفيما يلى مقدمة الكتاب.

إيران بلد فريد فى جغرافيته وتاريخه وفى وجدانه وموقعه الإستراتيجى، وهو مهد إحدى أعرق الحضارات الإنسانية التى مازالت تثرى مخيلة المتابعين وتشحذ قريحة المهتمين. وإيران ترتبط مع العرب بوشائج التاريخ والجغرافيا وإرث الحضارة الإسلامية المشتركة، حتى لكأن الله هو الذى صنع هذه العلاقات وصاغ معالمها وليس بنو البشر. وبالرغم من كل هذه العوامل الموضوعية، فإن المعرفة المتبادلة بين العرب وإيران مازالت دون المستوى المأمول، بمقارنتها بمعرفة العرب بالغرب مثلاً. والتعرف على الغرب وحضارته أمر مهم وضرورى لمعرفة الآخر، ولكننا عندما نكتب عن إيران ونتعرف عليها، فإن ذلك من قبيل معرفة الذات الحضارية الواحدة ومتعددة الأشكال. ومثلما أن إيران فريدة فى تراثها وتاريخها الفلسفى والعرفانى (الصوفى)، فإن واقعها السياسى فريد هو الآخر، وحيوية هذا الواقع هى من دلائل حيوية إيران ومجتمعها.

ويتناول الكتاب الذى بين أيديكم موضوع «ولاية الفقيه» فى إيران، وهى النظرية التى تطغى على واقع إيران السياسى وعلى ملامح منطقتنا؛ منذ صعودها بانتصار الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٩ وحتى الآن.

والثورة الإيرانية حدث متميز فى تاريخ القرن العشرين، فهى التى أطاحت رمزاً عتيداً للقوة الإقليمية وهو الشاه السابق. ولكنها لم تكتف باستبدال حاكم آخر به فحسب، بل وتسنت مكانه فكرة أو نظرية. ومازالت هذه الفكرة تحكم وتتحكم حتى اليوم فى إيران وتفرض حضورها على الساحة.

قليلة هى الأفكار السياسية التى استطاعت الوصول إلى السلطة، وكثيراً ما وصلت جماعات إلى السلطة بفكرة معلنة وشعارات تبدلت بمرور الزمن، واختفت لصالح شعارات أخرى. أما نظرية «ولاية الفقيه» فقد استمرت تهيمن على إيران لأكثر من ربع قرن، منذ نهاية السبعينيات من القرن الماضى وحتى اليوم. وخلال هذا الوقت انقلبت أنظمة وتغير شكل المنطقة العربية. الإسلامية من المغرب وحتى إندونيسيا، وتبخر النظام العراقى وقبله نظام طالبان بفعل الآلة العسكرية الأمريكية. وأعادت أنظمة كثيرة فى منطقتنا النظر فى أولوياتها وتحالفاتها الخارجية، ولكن إيران تحت حكم «ولاية الفقيه» لم تنقلب حتى الآن مع أنها هدف معلن لواشنطن، بل أنجزت تسعة انتخابات لرئاسة الجمهورية منذ قيامها. ولم تكتف طهران على نفسها إقليمياً، بل إن حضورها بوصفها طرفاً أساسياً فى المنطقة يزداد فاعلية وثقلاً. وتثور هنا مجموعة من الأسئلة تبحث عن إجابات؛ أو كما يقول الحكيم هادى السبزوارى من فلاسفة القرن الثالث عشر الهجرى فى إيران:

أس المطالب ثلاثة علم
مطلب هل، مطلب ما، مطلب لم



ما هى إذن نظرية «ولاية الفقيه» التى ملأت الدنيا وشغلت الناس؟ ما أساسها العقائدى والفكرى؟ كيف وصلت إلى الحكم؟ كيف استطاعت النظرية تحييد التيارات السياسية الأخرى فى إيران مثل الليبراليين والقوميين والماركسيين؟ كيف انتقلت السلطة من الإمام الخمينى، مؤسس «جمهورية إيران الإسلامية»، إلى السيد خامنئى؟ ما الأسس الفكرية لخطاب الرئيس السابق محمد خاتمى؟ وما حجم التأثير الذى تركه التيار الإصلاحى فى التوازنات السياسية والاجتماعية فى إيران؟ هل يمكن تجسير التناقضات البنيوية فى مفهوم «الجمهورية الإسلامية»؟ وماذا يخبئ المستقبل لإيران من تحديات؟ هذه الأسئلة وغيرها كثيراً ما تراود القارئ العربى ولا يجد لها إجابات شافية. وبالرغم من مرور ربع قرن على تأسيس «جمهورية إيران الإسلامية» على أساس نظرية «ولاية الفقيه»، وحضور السياسة الإيرانية فى المنطقة بشكل يومى ومتداخل، فمازالت هذه النظرية بجوانبها التاريخية والعقائدية والسياسية تمثل لغزاً لدى كثيرين فى عالمنا العربى والإسلامى.

ربما يشبه البناء الفكرى والعقائدى لنظرية «ولاية الفقيه» هندسة المنازل الإيرانية القديمة، إذ كلاهما يبدو منغلقاً على نفسه، ولكنه يقوم عملياً بدور المصفاة. وفى حين يستعصى النفاذ إلى واقع إيران السياسى دون الإلمام بجوانب «ولاية الفقيه»، يجب عليك أولاً اجتياز تلك الأروقة الطويلة التى تفصل الفضاءات الخارجية للمنزل الإيرانى القديم عن فضاءاته الداخلية، قبل الولوج أخيراً - بتدرج وسلاسة - إلى مركز المنزل الذى تعبق به الأسرار والحرمات.

حاولت، قدر المستطاع، الخروج من ثنائية «مع» أو «ضد» التى تطغى على أغلب الكتابات السياسية عموماً، والمتعلقة منها بإيران خصوصاً، لأن هذا النوع من الكتابات يصادر على المطلوب مقدماً، فضلاً عن أنه يختزل المعرفة فى نطاق ضيق. ولا يعنى ذلك أن الكتاب لم يقدم هو الآخر أفكاره ورؤاه عن نظرية «ولاية الفقيه»، ولكنى بذلت جهدى للتعريف بأهم الآراء المتعلقة بالموضوع بالرغم من أنها تصب فى خانة «نعم» أو خانة «لا». ولما كانت الكتابة هى النهاية أيضاً موقفاً، حاولت قدر الجهد ألا أخفى على القارئ موقفى من نظرية «ولاية الفقيه»، بوصفها - فى وجه من الوجوه - أحد مفاتيح فهم واقع إيران الحالى، وركيزة نظامها السياسى وحجر زاويته. وفى وجه آخر أو على مستوى مغاير، تُعد نظرية «ولاية الفقيه» مسألة فلسفية تتناول البشر وعلاقتهم بالدولة والمجتمع، وهو ما يستحق التأمل على كل حال.

اخترت للكتاب عنوان «حدائق الأحزان» لاعتبارات متعددة، منها إعجابى بحدائق إيران وتصميمها

مقدمة كتاب:
حدائق الأحزان
إيران وولاية الفقيه
مصطفى اللباد
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦ ـ ٣٢٠ صفحة

وعمارتها الفريدة التي تأخذ بالألباب، وما تركه في نفس الأثر العميق لحزن الإيرانيين الدائم، الذي يبدو ركناً أساسياً في وجدان المسلمين الشيعة عموماً، والإيرانيين خصوصاً. ولا تقتصر وظيفة الحديقة في إيران على تدليل العيون والأبصار، إذ هي، سواء في تراث إيران الشعبي أو ممارسات الإيرانيين الاعتيادية، جزء من الحياة اليومية، فيها يستريحون ويتنزهون ويتناولون طعام العشاء في ليالي الصيف.

يتكون الكتاب من خمسة فصول تتناول الجوانب المتعددة لنظرية «ولاية الفقيه»، إذ يبدأ الفصل الأول من الأساس التاريخي للتشيع، ومروراً بعلاقة الفقهاء بالدولة الإيرانية. أما الفصل الثاني فيهتم بمباني ومعاني «ولاية الفقيه» وولادة النظرية ودور الإمام الخميني في تطويرها والمباني الفكرية لها. ويتوقف الفصل الثالث عند مرحلة تسلم السلطة والتطورات التي أدت إلى استفراد «ولاية الفقيه» بالسلطة في إيران وإبعاد التيارات السياسية الأخرى عن العملية السياسية، في حين يركز الفصل الرابع على عملية نقل السلطة بعد وفاة الإمام الخميني إلى السيد علي خامنئي وتأثيراتها سواء في النظرية ذاتها أو في واقع إيران السياسي. أما الفصل الخامس فيتناول دور الرئيس السابق محمد خاتمي في تطوير الخطاب الديني الإيراني، وتغيير التوازنات السياسية في إيران، مروراً بمفهوم «جمهورية إيران الإسلامية»، وأخيراً التحديات التي تواجهها.

كان طريق الكتاب شاقاً ومجهداً حيث استغرقت في البحث والتحضير والكتابة سنوات. قبلها كانت سنوات أخرى من الإحجام، برغم إلحاح الأصدقاء، عن التصدي لمثل هذا الموضوع في كتاب مستقل، ليس بسبب الخوف من مشقة الكتابة فقط، ولكن أيضاً هنالك مجموعة من الأسباب والمعوقات الموضوعية والذاتية. كان تلاحق الأحداث بعد الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، والهجمة الضارية التي تتعرض لها منطقتنا حضارياً وعسكرياً وسياسياً، من أهم بواعث التشاؤم والإحباط. كذلك كان توقيت صدور الكتاب المفترض عامل أرق لي، خشية تفسير التوقيت بالوضع في خانة «مع» أو خانة «ضد» الشهيرة، خصوصاً في ضوء الحملات الإعلامية والدبلوماسية المتوالية التي تشنها الإدارة الأمريكية المتشددة بقيادة بوش الابن على النظام الإيراني. وكان من جملة المعوقات الذاتية أنني استوعبت من إيران وتاريخها، وخزنت في ذاكرتي في كل زيارة من زياراتي المتعددة إلى إيران، ما يجعلني أشفق على نفسي من أن أغفل بعضاً منها. وكما يقول المثل العربي البليغ: «العلم صيد والكتابة قيد»، فما بالك أيها القارئ العزيز والعلم هنا إيران العبقرية والهائلة الضخامة؟ كيف يمكن تقييد بعضها بين جدران الكلمات وقضبان الصفحات؟

وهبت الأقدار إيران كثيراً من الهبات، ويأتي في مقدمتها تلك المرتبة العرفانية الصوفية السامقة، التي تسمو فوق الاعتبارات المادية الممثلة في ثرواتها النفطية والغازية والموقع الجيو - سياسي وما يتفرع عنه من «علوم ظاهرية». إذ حبا الله إيران بأن وضعها بفضل تراثها من العلوم الغيبية والعرفانية والفلسفية في مرتبة يستعصى معها على الباحث التجرؤ في عرفان أسرارها، وما هذا العمل المتواضع إلا محاولة للإبحار في أسرار تلك المعاني. ولكن في كل مرة يغوص المرء فيها مستكشفاً معنى، فإنه يتأكد في المرة التالية أن معاني أخرى قد فاتته. ولذلك أطلب من القارئ غفرانه، على تقصير الكتاب عن بلوغ الأرب، وهو أمر واقع بالضرورة بالنظر إلى ما سبق، ولما وقع ماهو واقع ولم يكن له دافع، كان صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، أن يطوى المرء فصول الكتاب محتفظاً بأحكامه الأولية، وهو ممسك بزمام الكشف عن المعاني وملم في الوقت ذاته بكل ما استغلق من أفكار. فإلى علوم إيران الغيبية وتراثها العرفاني ووجدانها الشرقي أتقرب .. وإليها جميعاً أعتذر.



تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الأسلحة البيولوجية والكيمائية

عبدالهادي مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ط٣، ٢٠٠٦، ٢٤٠ صفحة



تعد الأسلحة البيولوجية من أقوى أسلحة الدمار الشامل فتكًا وتدميرًا والتي تشمل الأسلحة النووية والذرية والكيماوية، وهي سهلة التصنيع ولا تحتاج لوقت طويل أو تكلفة كبيرة أو إمكانيات تكنولوجية معقدة، كما أنها يمكن تصنيعها دون الوصول إلى فاعل وتأثيرها لا يظهر إلا بعد فترة حضانة معينة.

ويشير المؤلف إلى وجود ٣٩ نوعًا يمكن استخدامه كسلاح بيولوجي ويشمل البكتيريا، الفيروسات، الريكستيا، السموم، وبعض هذه الأسلحة مثل بكتيريا الانثراكس العضوية تسبب مرض الجمرة الخبيثة، ويكفي استنشاق واحد على مليون من الجرام منها لقتل إنسان ضخم الجثة.

كما يشير المؤلف إلى ظهور أكثر من ١٥ فيروسًا جديدًا في ربع القرن الأخير، بعضها اختفى ثم عاد للظهور وبعضها جديد تمامًا، وهو ما يعطي الفرصة لاستخدام هذه الفيروسات الجديدة كأسلحة في مجال الحرب البيولوجية، إضافة إلى أن الانتهاء من إعداد مشروع الجينوم البشري قد يمكن بعض الدول من اكتشاف اختلافات متميزة في جيش أو شعب معين، مما يمكن أعداءه من إعداد سلاح بيولوجي يتم توجيهه إلى هذا الشعب الذي يحمل الجين الذي يميزه أو يصيبه ببعض الأمراض الخطيرة والمزمنة.

يتناول المؤلف نبذة عن تاريخ استخدام الأسلحة البيولوجية والذي يعود إلى عام ٣٠٠ ق. م، ثم تطورها حتى وقتنا الحاضر.

ويخصص بابًا للأسلحة الكيماوية ليميز بينها وبين الأسلحة البيولوجية، ويعرض للاستخدامات المختلفة للأسلحة البيولوجية ومنها استخدامها كسلاح في المخابرات، ويعرض لبرنامج التسليح البيولوجي والكيميائي العراقي، ودور أمريكا وأوروبا في دعم هذا البرنامج، ولماذا فشل العراق في استخدامه.

قدم للكتاب الدكتور أسامة الباز.

❊

البغاء على شاشة السينما المصرية

خالد بهجت

القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٦، ٢٧٥ صفحة



هذا الكتاب في الأصل هو رسالة جامعية حصل بها المؤلف وهو مخرج على درجة الماجستير في السينما، وهو يعترف منذ البداية بأن التصدي لمشكلة البغاء في الواقع المصري وعلاقتها بالسينما مليئة بالمحاذير والصعاب، وتاريخ السينما المصرية لم يتعامل مع المسألة بجدية، وإنما باستحياء أو فجاجة. والمؤلف يحلل بعد دراسة نظرية مستفيضة عن البغاء في الواقع الاجتماعي، سبعة أفلام هي «درب الهوى» و«خمسة باب» و«المذنبون» و«شوارع من نار» و«شفيقة ومتولي» و«ولا من شاف ولا من دري» و«إنقاذ ما يمكن إنقاذه».

ولاحظ المؤلف من خلال استبيانات علمية دقيقة أن هناك غيابًا شبه كامل وعدم اهتمام بمشكلة البغاء، لأن النسبة المئوية لأفلام البغاء في حقبة الدراسة (٧٥ ، ٨٥) لم تتجاوز ٣، ٥٪ بالنسبة للمجموع الكلي لأفلام هذه الحقبة.

ويلاحظ المؤلف أيضًا أن الأفلام السبعة لم تعر أدنى اهتمام لديناميات الأسس العلمية النفسية أو الدوافع العلمية للواقع الاجتماعي الاقتصادي لمشكلة البغاء، ووقفت الأبعاد الاجتماعية الاقتصادية عند حد الفقر أو اضطهاد زوجة الأب، أو مرض الزوج، أو غياب من يعول الأسرة، وكذلك قهر القوادين واستغلالهم للبغايا. وبعضها اتجه للشكل البوليسي مثل المذنبون، وحتى حين قدم مخرج المذنبون سعيد مرزوق فيلمه «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» فإنه لم يخرج عن الإطار ذاته، وهو سقوط الفتاة وتحولها بسهولة غريبة إلى بغي وراقصة. ويشير المؤلف أيضًا إلى أن هذه الأفلام جاءت مواكبة للمناخ الاقتصادي السائد آنذاك (الانفتاح) التي حمل شعار «اكسب واجري»، وكانت عين صناع السينما بشكل رئيسي على شباك التذاكر، وهو ما جعلهم يستهدفون غرائز المشاهد، وإغراق الفيلم بالمشاهد الجنسية والألفاظ المبتذلة والرقصات والقبلات الحارة، وربما أضافت عنفًا يصل إلى حد القتل لمزيد من الإثارة.

❊

فنومينولوجيا الروح

هيجل

ترجمة: ناجي العونلي

بيروت: المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٦، ٨٣٨ صفحة



«فنومينولوجيا الروح» نص من بين أمهات نصوص الثقافة الغربية الحديثة، لكنه أيضًا متن فلسفي بلغت فيه المثالية الألمانية قصارى ما استطاعت من تفكير فلسفي في جميع أشكال الوعي الإنساني من سياسة وأخلاق وعلم وتاريخ ودين وأدب وفن وفلسفة. رُب نص هو حصيد تفكير في تاريخ الإنسانية نفسها.

يقول المترجم: لقد آثرنا في هذه الترجمة الكاملة أن نقدم إلى القارئ العربي نص ١٨٠٧ على تحيره وتقلبه وتحيره، وألا نقحمنع أوصال الجملة الهيجلية وإن تشعبت، وأن نبسط حركة تفكير هيجل وإن كان لانبساطها «ثقل يُعيي»، ففي فنومينولوجيا الروح شرع هيجل لأول مرة - إذ بدأ يتملك ناصية نسقه في الفلسفة - في اتباع التمشي الديالكتيكي بما هو الآلية على علمية الفلسفة والحياة الخاصة للروح نفسها. لذلك كله كانت فنومينولوجيا الروح في ذات الآن رأس النسق الهيجلي وجزءه الأول، بل بيانه في جملته.

❊

نجيب محفوظ وطني مصر

محمد سلماوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ١٠١ صفحة



يضم هذا الكتاب النص العربي لكتاب وطني مصر الذي صدر بالفرنسية وترجم بعد ذلك إلى عدة لغات، وهو عبارة عن سلسلة من الحوارات أجراها المؤلف مع الأديب الكبير، إذ كان من الصعب على محفوظ بعد محاولة الاغتيال الغادرة التي تعرض لها أن يكتب بقلمه، فكانت هذه الحوارات بديلاً أكثر من مناسب.

وحوارات سلماوي تتقصى عالم نجيب محفوظ من البدايات، في حي الجمالية الذي مثل نشأة محفوظ وعالمه الأثير الذي دارت فيه أكثر رواياته، كما أنها تتابع انتماءه لثورة ١٩١٩ وزعيمها وإيمانه بمبادئ الوفد القديم، وتنتقل معه إلى حي العباسية الذي انتقلت إليه الأسرة فيما بعد، ولا تغيب عن الحوارات الملامح المميزة لنجيب محفوظ والقيم التي يتمسك بها وأهمها الانضباط والحفاظ على المواعيد والدقة المتناهية، وتتابع أيضًا انشغاله بالفلسفة وهي أصل تخصصه الدقيق، ثم اهتمامه بالتاريخ الذي شكل العمود الفقري لرواياته، وما تمثله مصر الفرعونية ثم القبطية فالإسلامية في وجدانه وانعكاس هذه الرؤية على أعماله التي يناقشها معه المحاور، وهو في الأصل أديب وكاتب مسرحي مرموق.

حوارات سلماوي مع نجيب محفوظ ترسم صورًا كاملة لأديب نوبل. كما أنها بالتوازي معها، ترسم لوحة كاملة للمجتمع المصري في تحولاته، والتي كانت روايات نجيب محفوظ أصدق تعبير عنها.

❊

شخصيات عرفتها

حسين أحمد أمين

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦، ٢٣٥ صفحة



يحدثنا المؤلف عن نحو ٢٥ شخصية عرفها عن قرب، أدباء وفلاسفة وصحفيين ومفكرين وسياسيين وفنانين.

والبداية من أحمد أمين الأب، العالم والباحث والأديب الذي توفي في مايو عام ١٩٥٤ عن ثمانية وستين عامًا، وكان الابن وقتها لم يتجاوز الثانية والعشرين. يحكي المؤلف عن زهده وبساطته وتواضعه، وعزوفه عن العمل السياسي رغم الإغراءات التي قدمها قادة سياسيون آنذاك، يحدثنا المؤلف عن صداقاته واهتماماته التي كانت مقصورة تقريبًا على ميدان التاريخ الإسلامي دون فنون العصر وفلسفاته.

وكثير من الشخصيات التي يحتشد بها الكتاب تعرف عليها المؤلف من خلال والده، أو بسبب البيئة الثقافية التي نشأ فيها، مثل العقاد وطه حسين والشيخ مصطفى عبدالرازق، وكان يستذكر دروسه

مع ابن الأخير ممدوح، وكذلك حسن البنا وزكي نجيب محمود وغيرهم، وهو في معرض حديثه عن هذه الشخصيات وسيرتها، يتناول العلاقات بينها، وكيف كانت قائمة على الاحترام المتبادل والرغبة في خدمة الوطن والثقافة على الرغم من اختلاف المشارب والتوجهات، كما هي الحال في العلاقة بين لطفي السيد والشيخ مصطفى عبدالرازق على سبيل المثال، لكن هناك آخرين توطدت صلة المؤلف بهم لأسباب ومناسبات خاصة مثل حسن الكرمي وصباح محيي الدين ومحمود مرسي ومراد غالب وأنور السادات وأسامة الباز ورجاء النقاش وصافي ناز كاظم ومحمود محمد شاكر ومكرم محمد أحمد وغيرهم، وهو لا يكتفي بالحديث فقط عمن أحب، لكن أيضاً عمن كانوا سبباً في لحظات عاشها من التعاسة مثل محمد أمين حماد مدير عام الإذاعة والتليفزيون في مصر، الذي عامله بقسوة وجفاء لأسباب سياسية مخابراتية.

ووسط كل هذه الشخصيات المهمة والرائدة والمؤثرة، يبرز اسم «خضرة» وقصتها، كما يرويها المؤلف تنطوي على كفاح ومثابرة غير عاديين، فهي خادمة صغيرة تمكنت من تثقيف نفسها وتعلم اللغة الإنجليزية والاطلاع على أبرز أدباء عصرها من العرب والغربيين، ثم زواجها من أحد أبناء العائلات الكبيرة، والذي كان زميلاً لها في المجلس البريطاني بالقاهرة، حكاية أشبه بالأسطورة، يرويها المؤلف بوقائعها دون حذف أو إضافة.

❀

محمود عزمي رائد حقوق الإنسان في مصر

هاني نسيرة

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ١٨٠ صفحة



يعد محمود عزمي واحداً من المفكرين الكبار، ورائداً من رواد النضال من أجل حقوق الإنسان في مصر والعالم العربي، ويقدم الكتاب عدداً من مقالاته المهمة والتي تمثل محطات في رحلته الفكرية، وتظهر خطابه الواضح دفاعاً عن الديمقراطية والدستور وحقوق الإنسان. كما تظهر المجادلات العقلية والسياسية والمعاناة الإنسانية والشخصية لمثقف مصري عاش الجانب الأكبر من حياته في النصف الأول من القرن العشرين.

كما يقدمه من خلال تحليلات ومقارنات قام بها المؤلف جمعت عزمي مع كتاب ومفكري عصره من كافة الأطياف.

وبالذات في مجال حقوق الإنسان، ودوره في الدفاع عن هذه الحقوق والترويج لها.

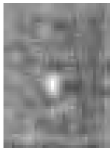
وبحسب المؤلف، فإن عزمي كان جزءاً من ريادة ثقافية مصرية في المنطقة العربية كلها، وقد عاش فلسفته بأكثر مما كتبها، فهو لم يترك مؤلفات ضخمة ولا مجلدات تتزين بها أرفف المكتبات، ولم تستغرقه الإشكالات المعرفية النقدية قدر اهتمامه بالإشكالات المؤسسية والأبعاد الاجتماعية والسياسية للإصلاح والنهضة والمواطنة. كان نموذجاً لمثقف مستقل يسعى للبناء والانتقال النوعي في الخطاب والممارسة على السواء. وقد ظلمته بعض خصائصه الفردية في الاستقلالية والمزاج الفردي المتوحد مع ميادنه في استقامة فكرية لا تقبل المهادنة أو التوفيق أو الترجيع، وكان يرفض دائماً أن يكون من مفكري التخوم أو مثقفي السلطة أو الأحزاب وأبواقها.

❀

دراسة في فقه مقاصد الشريعة

يوسف القرضاوي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٨٨ صفحة



يضم الكتاب دراسة أعدها المؤلف للمشاركة في ندوة مقاصد الشريعة التي أقيمت في صيف عام ٢٠٠٤ بلندن وشارك فيها عدد كبير من العلماء.

ويؤكد الدكتور القرضاوي في البداية أن اهتمامه بمقاصد الشريعة إنما عمقه في نفسه وعقله تدبره في القرآن الكريم، واستقراؤه لأحكام الشريعة وما يحويه من مثل عليا وقيم رفيعة، ثم قراءته لمؤلفات العلماء المعنيين بمقاصد الشريعة، والتي تعني الغايات التي تهدف إليها النصوص من الأوامر والنواهي والإباحات.

ويشير المؤلف إلى ثلاث مدارس أساسية في فقه المقاصد: المدرسة الأولى تعنى بالنصوص الجزئية وتفهمها حرفياً بمعزل عما قصد الشرع من ورائها، ويقول إن أصحاب هذه المدرسة ورثوا عن الظاهرية القدماء الحرفية والجمود، دون أن يرثوا عنهم سعة العلم، والمدرسة الثانية تزعم أنها تعنى بمقاصد الشريعة وروح الدين، وتعطل النصوص الجزئية للقرآن الكريم، بدعوى أن الدين جوهر لا شكل وحقيقة لا صورة، ويقول المؤلف إن كل العلمانيين والمتغربين والحداثيين الذين اقتحموا أنفسهم على الشريعة هم من تلاميذ هذه المدرسة، ويسميهم المؤلف «المعطلة الجدد»، أما الذين يدعون إلى تعطيل الشريعة.

وأما المدرسة الثالثة فهي المدرسة الوسطية التي لا تعطل النصوص الجزئية في كتاب الله وصحيح السنة النبوية، وهي ترد الفروع إلى أصولها والجزئيات إلى كلياتها، وهي تعتصم بالنصوص القطعية في ثبوتها ودلالتها، والاستمساك بها على ما يقول المؤلف استمساك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وهذه هي المدرسة التي يؤمن بها المؤلف ويتبنى منهجها ويراها معبرة بصدق عن حقيقة الإسلام، وهي التي تجسد فقه الخلف العدول الذين أثنى عليهم الرسول الكريم بقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

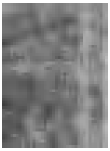
ويعرض المؤلف لهذه المدارس الثلاثة بالنقد والتحليل، مبيناً ميزات كل مدرسة منها ومثالبها.

❀

المساعدات الأمريكية لمصر

حسين محمد سليم

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات



يستعرض الكتاب برؤية تحليلية أسلوب المفاوضات التي جرت بين الحكومة المصرية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والكونجرس الأمريكي والإدارة الأمريكية خلال الفترة من ١٩٨٩ وحتى عام ٢٠٠٠.

واتسمت المفاوضات مع الجانب الأمريكي بأنها كانت صعبة في بعض المراحل وسهلة في مراحل أخرى، واختلفت درجة الصعوبة والسهولة وفقاً للمعايير والمؤشرات التي تتدخل في رسم السياسة الاقتصادية وبرامج الإصلاح المصرية. ويرى المؤلف أن مصر تتجه بسرعة نحو الخط الأحمر في المفاوضات والذي يجب على الحكومة المصرية ألا تتعداه مستقبلاً، مع الأخذ في الاعتبار انخفاض حجم المعونة الاقتصادية بصفة مستمرة، بسبب ربط استراتيجية الوكالة بصحيح البرنامج الاقتصادي للمعونة المقدمة لمصر، وإن كانت النظرة المستقبلية تحتم تقييم برامج المعونة على أساس تحليل التكلفة والعائد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

ويقدم المؤلف في نهاية تحليله دروساً مستفادة يجب على المفاوض المصري الانتباه إليها، ومنها أن يحدد نقاط التفاوض وما يمكن التنازل عنه وما لا يجوز التنازل عنه، والإعداد الجيد للمفاوضات، ووجود تنسيق بين الوزارات والهيئات المستفيدة من البرنامج على مستوى مجموعة صغيرة من الوزراء المعنيين داخل المجموعة الاقتصادية، وبحضور وزير التعاون الدولي ورئيس القطاع الأمريكي بها، وكذلك المتابعة المستمرة مع الكونجرس الأمريكي لضمان المصالح المصرية، وقيام الحكومة المصرية بإجراء تقييم ذاتي مستمر لمعرفة استعداد الكونجرس للموافقة على برنامج المساعدة الذي تسعى إليه مصر، والبحث عن القضايا الشائكة المعروف رأي أعضاء الكونجرس فيها بالسلب مسبقاً.

وفي ختام توصياته التي بلغت ٢٩ توصية، يؤكد المؤلف على ضرورة تحديد الاستراتيجية المصرية في مسألة المعونة وفقاً لأهداف وسياسات برامج الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي لمصر، وأن تحدد الحكومة المصرية ما الذي تريده من أمريكا وما هو ثمن ذلك، وهل هناك مبررات للاستمرار في تلقي معونات من الوكالة الأمريكية وإلى أي مدى؟

❀

موسوعة الغناء في مصر

محمد قابيل

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦، ٢٩٢ صفحة



تبدأ هذه الموسوعة التي تعد الأولى من نوعها بمدخل من الأغاني بوصفها صور التاريخ السياسي والاجتماعي الذي يمكن بالرجوع إليه فهم حركة المجتمع، ولذا فهو يعطي نبذة تاريخية مختصرة عن الشعر والموسيقى عند المصريين القدماء ثم الشعر والموسيقى في الكنيسة القبطية، ثم في العصر الجاهلي فعصر الإسلام، ومع النهضة التي جرت في عصر محمد علي وتأثر الموسيقى المصرية بالتركية، يتابع المؤلف هذا التأثير، ثم يعرض للموشحات والابتهالات التي تزعمها المشايخ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويعرض لقوالب الطقطوقة ومن الأغنية الحقيقية التي ظهرت فيما بين الحربين الأولى والثانية، والتدهور الذي لحق بالغناء في أعقاب الحرب الثانية ودخول الأغنياء الجدد إلى هذا المجال، ويتناول فن المونولوج، ودور الإذاعة في نشر فنون الغناء، ثم الأغنية في السينما، والغناء بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

والموسوعة تضم مؤلفين وملحنين ومطربين من مصر ومن خارجها، وكثيرون ممن تضمهم الموسوعة أسماء لا يعرف عنها القارئ شيئاً، كما أن المؤلف ضم إلى قائمة المصريين أو المؤدين بعضاً من الفنانين الذين أدوا أغنيات داخل أفلام

سينمائية أو مسرحيات، إضافة إلى المرتلين والمبتهلين والفرق الغنائية والثنائيات.

※

الطبقة الوسطى الفلسطينية

جميل هلال

بيروت، رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠٦، ٢٣٦صفحة



أجريت هذه الدراسة خلال سنتى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، فى فترة عانى فيها الشعب الفلسطينى من الانسداد السياسى وشل اقتصاده، وتردى الأوضاع المعيشية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ووصلت معدلات البطالة إلى أرقام قياسية، والسلطة الفلسطينية إلى حالة شديدة من الضعف إلى حد محاصرة رئيسها فى مقره برام الله ووفاته فى نوفمبر ٢٠٠٤.

قامت الدراسة على حوارات مطولة استهدفت التعرف على المهن والأوضاع الاجتماعية ومستويات التحصيل العلمى والمهنى، وعمل الزوجة وأوضاع المسكن وسعت إلى الإجابة على الأسئلة التالية: هل تميز وضع الطبقة الوسطى وما هى سمات هذا التغيير خصوصاً أن هناك تقديرات تشير إلى أن الطبقة الوسطى الحديثة اتسعت بعد قيام السلطة الفلسطينية نتيجة التوسع الذى شهده القطاعان العام والخاص وقطاع المنظمات غير الحكومية، وإن لم يصاحب هذا التوسع توسع فى الدور السياسى لشرائح هذه الطبقة. وتتساءل الدراسة عما تقوم به هذه الطبقة على الصعيد المهنى والوظيفى، وما إذا كانت مميزاتها تبرز على هذا الصعيد، وهل لهذه الطبقة سمات مشتركة على صعيد ما تتمسك به من قيم وما تحمله من توجهات فكرية أو ثقافية، وهل لضعف الطبقة العاملة وتبعثرها وللطبقة الرأسمالية وغيابها تأثير فى دور الطبقة الوسطى وتصوراتها عن نفسها. وهل للعائلات الكبيرة دور فى إنتاج طبقة وسطى حديثة.

هذه هى الأسئلة الأساسية التى تثيرها الدراسة وتسعى للإجابة عليها، وهو ما يحدو بالمؤلف إلى مناقشة إشكاليات ذات طبيعة ثقافية مرتبطة أساساً بحراك الطبقة الوسطى، إشكاليات من نوع الهوية والمرجعية والعلاقة مع السلطة.

※

مــــدار الحـــوار

إبراهيم فرغلى

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٦، ١٢٧صفحة



يأتى هذا الكتاب محصلة لتجربة المؤلف عبر مشاركته فى مشروع رواة المدن، وهو أحد مشروعات المنتدى الألمانى العربى على الإنترنت، وهو مشروع مشترك لمعاهد جوتة المتواجدة بمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ويحظى بدعم المؤسسة الثقافية الاتحادية بألمانيا، وهو عبارة عن يوميات سجلها المؤلف خلال إقامته التى دامت شهراً فى مدينة شتوتجارت، فى محاولة للاقتراب من الشخصية الألمانية بما عرف عنها من مهارة وإتقان وإخلاص.

ثمة أسئلة كبيرة سعى إلى الإجابة عليها خلال فترة إقامته: ما هى طبيعة الألمان، كيف تسير حياتهم اليومية، كيف يتعاملون مع بعضهم البعض، ما هى القضايا الاجتماعية التى تشغلهم، كيف يقضون أوقات اللهو، وهل هم شعب جاد لا يعرف المرح، كيف استطاعوا تحقيق معجزتهم والتحول عن شعب مسحوق وبلد محطم بعد الحرب العالمية الثانية إلى مارد اقتصادى، وقد وجدها - كما يشير فى اليوميات - فى وجوه ثلاثة: اللامركزية، وتقديس الحرية، والإرادة.

※

بيروت شى محل

يوسف رخا

الإسكندرية: كتاب أمكنة، ٢٠٠٦، ٥٥صفحة



كتاب عن بيروت المدينة التى كانت، بالكتابة والصورة، ينقل لنا المؤلف رؤاه، تفاصيل التفاصيل من السياسة إلى الفن وأحوال الناس.

يمتزج الواقع بالتوهم بالمكان فى تناغم رائع، ينتقل المؤلف من بيروت إلى صيدا، إلى ساحة النجمة والحمرا والمرافئ التى تعج بالمراكب والناس، وتقتحمك السياسة دون أن تشعر، مقتل الحريرى والتصريحات النارية لحسن نصر الله، وحكايات المقاومة وحماس والقادة الذين باعوا البلد فى سوق النخاسة، والعروبة الضائعة وسط حالة من الشيفونية المقيتة التى تلف المنطقة العربية من محيطها النائم إلى خليجها الغائب.

ما لا تفضحه الكلمات أو حتى تعجز عن إبانته، تجليه بوضوح الصور: الحلاق والمقاهى والدكاكين والسوق وشوارع حياة الليل وصور الزعماء السياسيين والبنايات الشاهقة والمتهتكة.

كتاب أمكنة يحمل الروح ذاتها التى تحملها المجلة الفريدة المبهرة «أمكنة».

※

قطار ولا محطة

أمين ألبرت الريحانى

بيروت: دار نلسن، ٢٠٠٦، ١٩٩ صفحة



شغلت فكرة الزمن - ومازالت - كثيراً من الأدباء والفلاسفة، فلا شىء ينور خارجه، ولا معنى إلا منغمساً فى دقائقه، يقول المؤلف إنه حين بدأ الكتابة، لم يكن يتصور أن موضوع الزمن سوف يستنفد منه كتاباً كاملاً يستغرق العمل فيه عامين كاملين، وأن فكرة الزمن لم تكن لتستوقفه لو لم تتردد على مسامعه عبارات مثل زمن التجلى، زمن البغضاء، زمن الوهم، الزمن الصوفى، الزمن الوجودى، زمن الغضب، زمن الاستشراف، زمن الرؤية.. إلخ.

ويتساءل: لماذا الزمن، لماذا محاولة الإمساك باللحظة الهاربة، لماذا القبض على كرة النار، تحرق منك الأنامل ليستيقظ الوعى، وإذا بك أمام هول الحقيقة، حقيقة الزمن، حيث تجد نفسك ريشة فى مهب الوجود. ويقدم الكتاب على محاورة متوهمة بين ثلاثة أشخاص هم زمنون ويقظان ومكنار، تدور حول طبيعة العلاقات المفترضة بين الأشياء، وهى التى تشكل النسيج الخام للكتاب والذى تدور فصوله حول العلاقة بين الزمن والمعنى، وبين المعنى واللغة، إذ لا معنى للوجود بغياب الزمن، ولا مضمون للزمن بغياب اللغة.

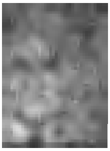
وكذلك فإن العلاقة بين الذاكرة والعقل مبعثها إشكالية التصادم بين فعل التذكر المتناهى والقدرة العقلية اللامتناهية، وفضاء التذكر هو زمن محدود، بينما فضاء العقل هو زمن إيقاعى، وبهذا المعنى يستحيل الزمن مسألة عقلية، بقدر ما يستحيل العقل حافزاً لاستنباط أبعاد الزمن ومعانيه، وتدور الحوارية بين الأشخاص الثلاثة حول الفعل كروح كونى، وعبر ثلاثية المكان والزمان والفعل، يمكن استعادة فهم الوجود وانتظام العلاقات الحيوية بين الأفراد والجماعات.

※

سوريا وحطام المراكب المبعثرة

صقر أبو فخر

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦، ٥٠٥ صفحات



حوار طويل أجراه المؤلف مع نبيل الشويرى عن مدينة دمشق وتكوينها البشرى الفريد، وعن الفئات الاجتماعية المتسلطة كالملاك والتجار ورجال الدين، وعن حزب البعث وتمزقاته العنيفة وتفسخ الحياة السياسية والاجتماعية فى سوريا منذ أوائل ستينيات القرن العشرين.

يرصد هذا الكتاب التحولات التى خضعت لها دمشق منذ بدايات القرن العشرين، والتغيرات التى عصفت بهذه المدينة - العاصرة وكيف تحولت من عاصمة لبلاد الشام طوال المرحلة العثمانية إلى عاصمة لدولة شبه برية مع إعلان اتفاق سايكس بيكو. ويتجول الكتاب فى حى الميدان الذى ولد فيه ميشال عفلق وعلاقة هذا الحى بدمشق العتيقة المنغلقة داخل أسوارها. وبالمدى المفتوح على سهول حوران وجبل الدروز فى الجنوب، ثم يتكلم عن ميشال عفلق الذى بقى تقليدياً وعلمانياً معاً. وفى الكتاب دحض للحكاية الملفقة عن تحول ميشال عفلق إلى الإسلام فى أواخر أيامه.

يتناول الكتاب، بالتفصيل، ظهور حزب البعث والأحوال المضطربة التى نشبت فى سوريا بعد الاستقلال ولا سيما الانقلابات العسكرية، ويركز على مؤامرة اغتيال أنطوان سعادة وديكتاتورية أديب الشيشكلى وعن جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وانحدار الحياة السياسية إبان عهد الوحدة المصرية - السورية. ويتحدث بإسهاب على سورية فى ظل البعث وعن رجال البعث أمثال ميشال عفلق وأكرم الحورانى وجلال السيد وصلاح البيطار ومنصور الأطرش.. إلخ، وعن الصراعات الدموية التى احتدمت فى حزب البعث بين المجموعات التأسيسية المكونة له ثم بين الضباط الريفيين الذين لم يصدقوا أن السلطة دانت لهم فأمسكوا بقسوة غير معهودة، الأمر الذى أدى بسوريا إلى ارتجاجات واضطرابات متمادية كان من شأنها وأد الديمقراطية وطغيان الاستبداد وأخيراً هزيمة حزيران ١٩٦٧.

يتعقب هذا الحوار أيضاً سوريا

المعاصرة برجالها وأحزابها ومشكلاتها. ويروى حكايات وأحداثاً متشابكة عن شتى المراحل، كالثورة السورية الكبرى وسلطان الأطرش وعبدالرحمن الشهبندر وعبدالحميد السراج، بعضها مسطور فى الكتب وبعضها ينشر لأول مرة.

ومع أن هذا الحوار يركز اهتمامه على التجربة الشخصية لنبيل الشويرى فى حزب البعث، إلا أنه يعيد قراءة ٣٠ عاماً من التاريخ المعاصر لسوريا وليس سيما تجربتها فى لبنان. وهنا بالتحديد تكمن أهمية هذا الحوار، ليس لأنه يؤرخ لهذه الحقبة العاصفة، بل لأنه يحاول أن يقرأ الأحداث فى ضوء التجربة الشخصية.

*

أنيس صايغ عن أنيس صايغ

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٦، ٥٣٥ صفحة



أكثر من خمسين عاماً، قضاها أنيس صايغ أسيراً لعالم القلم والكتابة، ومناضلاً بالمقالة والبحث والدراسة وإصدار المجلات والجرائد فى سبيل فلسطين وعروبته.. «خمسون عاماً ومسعاى تحرير فلسطين أولاً وأرض العرب كلها ثانيا لإلغاء الكيان المغتصب وعودة الشعب المقتلع وتحرير الإنسان والأرض معاً، وفى الوقت نفسه أمارس الصنعة الثقافية لتصبح المعرفة بعد التحرر ركناً أساسياً فى بنيان فلسطين الغد. فالثقافة تحرر، والتحرير يثقف، وهدفيهما معاً غنى حضارى».

بهذه الكلمات يلخص المؤلف سيرة حياته ومسيرته فى الثقافة والسياسة، ولا يستغرب والحال كذلك ألا يهتم كثيرون بسيرته الذاتية، إذ تبدو محدودة جداً لا شىء فيها يغرى بالقراءة، والتقصى، لكنه يقول إن ما دفعه إلى كتابة سيرته مع إدراكه لما سبق، هو رغبته هو نفسه فى اكتشاف ذاته، بعد أن بلغ الخامسة والسبعين، أن يستعرض حياته أمام عينيه، أفكاره وعلاقاته ومواقفه وصفاته وأخطاءه وأصدقاءه.

وبرغم هذا التواضع فى تعريف المؤلف بذاته، وسعيه لاكتشافها، فإن أصابع أنيس صايغ لا تغيب عن كثير من المشروعات الثقافية والفكرية الجادة فى عالمنا العربى. فهو مؤسس ورئيس تحرير المستقبل العربى وشئون عربية ومشروع الموسوعة الفلسطينية، كما أنه تقلد العديد من المناصب ذات الطبيعة الإعلامية والدبلوماسية المهمة، وصدرت له كتب عديدة بدءاً من أواسط الخمسينيات حتى اليوم، فى إطار تخصصه فى العلوم السياسية والعلاقات الدولية.

*

وطن بحجم عيوننا

أحمد بخيت

القاهرة: منشورات أحمد بخيت، ٢٠٠٤، ١٢٤ صفحة



يعيد أحمد بخيت المجد للغة الميتة، فهو بحسب ما قال عنه الشاعر فاروق شوشة يحتفظ لنفسه بأصفى ما فى الموروث من نسيج حى متجدد قابل للبقاء، يطلق من خلاله روحه الشعرية العارمة، مجددة إيقاع الشعر الجياش، ويراهن على موهبته الناقد الدكتور صلاح فضل «بنبضه الكلاسيكى الحى وقدرته على إعادة الشباب للقصيدة العربية». والذى يقرأ قصائد أحمد بخيت بوسعه أن يكتشف ما ذهب إليه شوشة وفضل.

من أجواء الديوان ومن قصيدة سلام المحارب:

وعن ماذا أقاتل/ يا حبيبة/ إذا ساومت/ عن مدنى السليبة؟/ إذا أغمضت عن عينيك/ قلبى/ وعن دمع الجليل/ وحزن طيبة؟/ أأسقى الورد/ فى شرفات بيتى/ وناب الذئب/ فى لحم العروبة؟/ تقول: وهل تحاربهم بحرف/ أقول لها: خلقت له/ حروبه/ أنا هو شاهد الكلمات ناراً/ وحاشد كل قافية/ كتيبة.

*

رسائل إلى عقل الغرب وضميره

عبدالصبور مرزوق

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ٢٢٧ صفحة



ثلاث رسائل فى ثلاثة أبواب، الأولى عن قضية تشغل العالم كله الآن، وهى حقوق الإنسان، حيث يوضح المؤلف موقف الإسلام من هذه القضية، ويعقد مقارنة بين حقوق الإنسان، كما جاءت فى الإعلان العالمى للأمم المتحدة وما جاء فى الشريعة الإسلامية من هذه الحقوق قبل ظهورها بأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان.

والقضية الثانية يعنى المؤلف فيها بحقوق المرأة، وهى المسألة التى طالما تشوق بها الغرب ظناً منه أن الإسلام أبخس فيها المرأة حقوقها، وأنه - على ما يقول بعض من المستشرقين المغرضين - ديانة ذكورية نظرت للمرأة باستعلاء واحتقار، والرسالة تبين كذب هذه الادعاءات، وتؤكد على أن الإسلام أعلى من شأن المرأة وأعلى مكانتها وحماها من مقولات السوء، وكفل لها كل الحقوق السياسية والاجتماعية والمالية، وهى حقوق لم تنلها المرأة فى أى من المذاهب الوضعية الأوروبية المعاصرة.

أما الرسالة الثالثة فهى تؤكد أن الإسلام دين رحمة وحضارة وسلام لا دين إرهاب وقتل وتدمير، ويتصدى المؤلف لظاهرة العنف التى تتبناها بعض الجماعات التى تنسب نفسها زوراً وبهتاناً للإسلام وهو منها براء، ويؤكد على أن ظاهرة الإرهاب ليست إسلامية، كما أن القتال لم يشرع فى الدين إلا دفاعاً عن النفس، وليس للعدوان على الغير، وأن الإسلام دين رحمة وسلام.

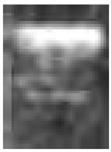
هذه هى القضايا الأساسية التى يتصدى لها المؤلف تعبيراً عن وسطية الإسلام وروحه التى تتسم بالسماحة وتشجع على التحاور مع الآخر وقبوله، وهى السمات التى أشادت حضارة كبرى أشعت بنورها على عالم كان يغط فى سبات وظلام عميقين.

*

الحقيقة فى دارفور

كمال الجزولى

القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ٢٣٥ صفحة



يعيد المؤلف تحرير تقرير لجنة التحقيق الدولية بشأن دارفور، والتى أنهت مهمتها ورفعته إلى الأمين العام للأمم المتحدة فى ٢٠٠٥/١/١٥.

ويشير قبل عرضه للتقرير إلى أن الأزمة التى يعيشها السودان حالياً هى نتاج لما تعانيه الجبهة الداخلية من تفكك، وأن مسألة المحكمة الجنائية الدولية ليست مما يمكن فصله عن شروط الأزمة الوطنية العامة ومحدداتها، ولا يمكن معالجتها بمعزل عن جملة ترتيبات يقع عبء تسييرها على الحكومة السودانية نفسها. فلم يعد ثمة مهرب من أن تسارع الحكومة إلى ترميم شروخات هذه الجبهة الداخلية وإعادة بنائها بالكامل. وهى المسألة التى تحتاج إلى مشاركة القوى الأخرى، والالتزام الصارم بتطبيق اتفاقية السلام والدستور الانتقالى، وحل مشكلة دارفور وكل المشكلات الجهوية الأخرى فى السودان بأكبر قدر من التنازل. وإجراء الإصلاحات القانونية والقضائية الضرورية، وإطلاق مبادرة لرد المظالم، ودفع الأضرار، وهو ما أصبح يطلق عليه عالمياً «العدالة الانتقالية»، وبعضل مطلب المحاسبة السياسية والدستورية بشفافية وإطلاق الحريات العامة والحقوق الأساسية، بما فى ذلك تيسير حق تنظيم الأحزاب السياسية والنقابات والمنظمات المدنية وإصدار الصحف بلا عوائق إجرائية قانونية أو إدارية.

ويشير المؤلف كذلك إلى أهمية تفعيل المادة ٢١ من الدستور المؤكدة على مبادرة الدولة بعملية مصالحة شاملة لتحقيق التوافق الوطنى والتعايش السلمى بين جميع السودانيين.

*

حال الأمة العربية ٢٠٠٥

النظام العربى: تحدى البقاء والتغيير

تحرير: أحمد يوسف أحمد ونيفين مسعد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ١٤٣ صفحة



يتناول الكتاب حال الأمة العربية فى عام ٢٠٠٥ من خلال التركيز على ثمانية موضوعات رؤى أنها تغطى التطورات الرئيسية التى مرت بالأمة فى ذلك العام. تناول اثنان منها النظام العربى من منظور شامل مرة بالتركيز على التفاعلات بين الدول العربية فى إطار النظام العربى الرسمى، وثانية بتتبع عملية الإصلاح السياسى داخل النظام، واختصت الموضوعات الأربعة التالية بالقضايا العربية المحورية فى عام ٢٠٠٥ وهى القضية الفلسطينية والعلاقات السورية - اللبنانية، والأوضاع فى كل من العراق والسودان، ثم تناول الموضوع السابع أهم ملامح الوضع الاقتصادى العربى فى ذلك العام، واختتم بتحليل الدور الإيرانى فى المنطقة العربية.

وقد أظهر التحليل فى مختلف الموضوعات تفاقم المخاطر والتهديدات المحدقة بالأمة سواء كان مصدرها نابعاً من داخل النظام العربى نفسه أو من بيئته الإقليمية والعالمية، غير أن التحليل أظهر فى الوقت نفسه أن قوى المقاومة والتغيير قد واصلت فعلها الإيجابى كما تمثل فى استمرار صمود المقاومة الفلسطينية وتفويض الشعب الفلسطينى ديمقراطياً لها فى الإمساك بزمام قيادة مسيرته، ومثابرة المقاومة العراقية على إنهاك المحتل واستنزافه. والصعود النسبى

كتاب الزاوية

جنـــــازة

قاســم أمــين

❖ ما رأيت جنازة مسلم إلا أخجلنى منظرها. هذه الجمال التى تحمل الفراكه ويلتف حولها الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض، وهذه الجاموسة المسكينة التى يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضاً وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور، ويمشون بسرعة غير منتظمة، لابسين ثياباً قذرة، صائحين بأصوات مزعجة. كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة. وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال، وأحياناً يطير فى السماء إن كان من الأولياء المقربين!!

وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجوههن، وعفرن بالتراب رؤوسهن، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه بإشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة. ما هذا كله؟ أمجمع مجانين؟ أم نفر بهم مس من الشياطين؟ ألعوبة أطفال؟ أم معرض كرنفال؟!

فى الجنازة التى تمر فى الطريق شيء من جميع ذلك، ولا ينقصها إلا أمر واحد وضعت لأجله هو: إظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون.

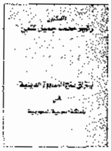
لبعض قوى التغيير وحركة الجماهير فى عدد من الأقطار العربية، الأمر الذى يمكن النظر إليه باعتباره إشارة واعدة بمستقبل عربى أفضل.

❊

قراءة فى كتاب: ينزلق ثلج الصحوة الدينية فى المملكة العربية السعودية

د. زهير محمد جميل كتبى

السعودية، ١٠٧ صفحات



هذا الكتاب يعالج قضايا ثقافية وفكرية ودينية واجتماعية، فقد تناول وأبرز فتاوى دينية قديمة وحديثة لبعض العلماء والفقهاء ورجال الدين الكبار فى السعودية، فى مقدمتهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد بن عثيمين والشيخ عبدالله بن حميد. وهم من أهم المفاصل الدينية المهمة والقوية فى المؤسسة الدينية.

نص هذا الكتاب محرض على الجدل والمناقشة والمحاورة، ولكنه مثير للقلق لما فيه من حقائق وحجج وبراهين وأدلة، بل هو مستفز للمواطف الدينية والتى ألف الشارع السعودي على أن تكون هادئة ومستقرة.

❊

مدار
«أوراق إسرائيلية» ٣٥..
تقييم أولى لخطة أولمرت أحادية الجانب



رام الله: صدر حديثاً عن المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار» الورقة الإسرائيلية «٣٥» تحت عنوان «خطة أولمرت أحادية الجانب: تقييم أولى» وهى عبارة عن بحث أعده الكاتب السياسى الأميركى ديفيد ماكوفسكى لصالح معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى.

تتناول الورقة التى ترجمها وعقب عليها ساجى خليل، وتقع فى ٩٠ صفحة، بإسهاب المكونات الأساسية لتلك الخطة و مرتكزاتها السياسية والأيديولوجية.

كما يغطى أهم ما دار حولها حتى الآن من نقاشات فى إسرائيل وفى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وكذلك على الصعيد الإقليمى والدولى.

وتمثل الورقة نظرة عن قرب للداخل الإسرائيلى تساعد فى التعرف على طريقة تفكير أولمرت وتصوراته للآفاق العملية لتطبيق خطته، وللعقبات والانعكاسات المتوقعة.

ورغم العقبات والصعوبات التى تواجه الخطة، ويتناولها البحث بالتفصيل، يرى الكاتب أنها لا زالت تشكل الإطار العام لسياسة الحكومة الإسرائيلية ولخطواتها المقبلة. معتبراً أنها قد تكون أرضية صالحة مستقبلاً لخدمة فكرة الدولتين، وفق تقديره.

وفى تعقيبه على الورقة، يكتب المترجم:

«يقر المؤلف بأن هناك الكثير من الصعوبات أمام الخطة، ولكنها من وجهة نظره ليست من القوة والثبات بحيث نتمكن من وقفها.

ويشير إلى أن الاستقطاب القائم بين (خطة أولمرت الأحادية وبين خطة خارطة الطريق)، وبين (مبدأ الأحادية ومبدأ المفاوضات) وكذلك بين (نظرية لا يوجد شريك والإقرار بوجود شريك).

هذا الاستقطاب مرشح لأن يفرز محاولات للجسر بين الاتجاهين، وصولاً إلى صيغة توفيقية يتم من خلالها تخفيف الطابع الأحادي للخطة مقابل الحفاظ على جوهر الإجراءات العملية التى تتضمنها.

وقد يتم على هذا الصعيد بلورة إطار دولى يتم من خلاله تأجيل بحث موضوع القدس واللاجئين وإقرار مبدأ الدولة الفلسطينية المؤقتة.

ولا شك بأن مجابهة مثل تلك التحديات تتطلب الكثير من الجهد، وأكثر من مجرد الرفض اللفظى لتلك الخطة وتداعياتها، بل العمل من أجل بلورة مبادرة سياسية فلسطينية تعيد تقديم رؤية فلسطينية واضحة للسلام ولعناصر التسوية الشاملة.

مبادرة تأخذ بالاعتبار المواقف والالتزامات الفلسطينية، بما فيها الاستعداد لإجراء المفاوضات على قاعدة خارطة الطريق.

مبادرة سياسية هجومية تقوم على التمسك بمبدأ إقامة الدولة الفلسطينية على أراضى عام ١٩٦٧ وعاصمتها القدس وإقامة السلام بين الشعبين، وإيجاد حل عادل لقضية اللاجئين على أساس القرار ١٩٤. مثل هذه المبادرة هى الكفيلة بتعزيز التحفظات العربية والدولية إزاء خطة أولمرت، وهى التى تمكن من مراكمة الإسناد اللازم فلسطينياً وعربياً ودولياً للحقوق الفلسطينية وإعادة الإعتبار لقرارات الشرعية الدولية وللمبادرة العربية، وتمنع الانزلاق نحو صيغ توافقية مع خطة أولمرت».

❊

حكايات عن الوقف والأوقاف

أمنية البندارى وهدى السعدى
القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة، ٢٠٠٦،
٩٥ صفحة



يمثل «الوقف» نموذجاً أوليًا لفكرة المجتمع المدنى كما باتت تعرف فى الأدبيات السياسية المعاصرة، وفكرة الوقف قديمة قدم المجتمعات العربية والإسلامية، كما أنها لعبت دورًا بارزًا فى نمو هذه المجتمعات وتطوير حياة الناس، هذه هى الفكرة الأساسية التى يسعى الكتاب إلى توكيدها عبر استعراضه لمعنى الوقف وأهميته ودلالاته وتطوره من مرحلة تاريخية إلى أخرى. لكن كيف يمكن التعبير عن كل هذه المضامين التى تبدو جافة لا تشجع أحداً على قراءتها والتعاطف معها؟ كيف يمكن تحويل موضوع الوقف من موضوع جامد لا يحظى بمقروئية واسعة إلى موضوع شيق يمكن أن يجذب قطاعا من القراء أكبر بكثير من عجائز يطالعون صفحات الوفيات ومصائر الثروات؟

هذا هو الجهد الرئيسى المبدع الذى تقدمه المؤلفتان بالاشتراك مع الفنان وليد طاهر صاحب رسوم الكتاب. لا تقدم المؤلفتان دراسة جامدة بالأرقام والإحصاءات عن الموضوع - وإن كانتا ضمنتا مادتهما الشيقة أرقاما وبيانات مهمة - وإنما كتاباً تفاعليًا كما لو كان للصغار، ليس بهدف تحقيق جاذبية القراءة فحسب، ولا تبسيط الموضوع فقط، وإنما كى تثبتا أن فكرة موت القارئ وانتحار المؤلف وتدمير النص، ليست سوى إشكالات صنعتها الكتابة العتيقة والأساليب المنفرة التى يعمد إليها بعض المؤلفين حتى فى الموضوعات ذات المضامين البسيطة، ربما لميول استعراضية خفية، وربما لأن المؤلف نفسه استعصى عليه فهم موضوعه، فصعب عليه أن ينقله إلى قارئه: تقرأ مثلاً فى الصفحات الأولى عن معنى الوقت عبر مكوناته: واقف وموقوف وموقوف عليه ووقفية، والمؤلفتان تقدمان فى سطور بسيطة داخل براويز محاطًا برسوم تعبيرية وكاريكاتيرية دالة معنى الواقف على هذا النحو: هو الشخص الذى يقرر أن يوقف عقاراً ما، ويجب أن يكون الشخص الواقف هذا، بالغًا حراً، أهلاً للتبرع، غير محجوز عليه، لا توجد عليه ديون.

وعلى طريقة تقديم مذكرة تفسيرية لصياغة قانونية معقدة، تقدمان هذه العبارة البسيطة الظريفة: يعنى سيادتك - مثلاً - لا يمكن أن توقف عقاراً إذا كنت - ولا مؤاخذة - مجنونًا أو كانت عليك ديون لعم أحمد البقال، فالأولى أن تسدد ديونك أولاً.

وبطريقة أخرى وتحت عنوان «ناظر الوقف.. مدير يشرف ولا يبيع»، تشرح المؤلفتان طبيعة هذه الوظيفة التى تعرف بناظر الوقف والشروط التى ينبغى أن تنطبق على من يتقلدها.

ولابد أن تقفز إلى الذهن فوراً صورة الممثل عباس فارس، ناظر الوقف فى الفيلم الشهير «أبو حلموس»، والذى قام ببطولته الفنان الراحل نجيب الريحانى، والذى كان مثالاً للص لا يشبع ونهاب لا يرتوى، خصوصاً حين يأتى ضمن الديالوج الذى يشرح معنى ووظيفة ناظر الوقف هذه الإجابة: ولأن النفس البشرية تختلف من شخص لآخر، فبطبيعة الحال لم يكن كل نظار الأوقاف مثاليين شرفاء، فبالطبع دخل فى هذا المجال بعض الفاسدين الذين استغلوا مناصبهم ومكانتهم لصالحهم الشخصية، وانعكس هذا بطبيعة الحال على أحوال الأوقاف التى كانوا يشرفون عليها.

تتتابع بعد ذلك إجابات الأسئلة عن الجهات الخيرية التى تدعمها الأوقاف (المدرسة - المستشفى - الكتاب - السبيل - المؤسسات الصوفية على اختلافها)، وأسباب وقف الناس لأملاكهم، وغيرها، ويقدم الكتاب دلائل على أن الوقف الخيرى أو الأهلى موجود فى كثير من الحضارات والأديان، والأصول الفرعونية لفكرة الوقف، ثم القوانين التى نظمت الأوقاف الإسلامية والقبطية فى عهد ثورة يوليو ١٩٥٢، وإشارات إلى المكتبات العامة التى ما كان لها أن تقوم لولا الأوقاف مثل مكتبة الجامع الأزهر ودار الكتب المصرية، والأوقاف التعليمية التى أسسها أفراد من الأسرة الحاكمة وكبار الملاك الزراعيين لمناهضة الاحتلال بالتعليم، ولعل أشهرها وقف جامعة القاهرة، ووقف مدرسة الفنون الجميلة، ويتواصل السرد بالطريقة الشيقة ذاتها: بالرسم والديالوج والحكاية والكتابة الساخرة، وصولاً إلى وقف هيكل لنقابة الصحفيين والذى بمقتضاه أنشئت مؤسسة هيكل للصحافة العربية.

كتاب شيق وجهد رائع، أحال موضوعًا بالغ التعقيد إلى حكاية بالغة المتعة.

عماد الغزالى

كتاب الزاوية

خادمة الدنيا

قاسم أمين

❖ تقول العامة: «إن مصر أم الدنيا»، والأصح إذ قورن بينها وبين مدن الممالك الأخرى مثل لندرة وباريس وهامبرج وبروكسيل وأمثالها أن تسمى «خادمة الدنيا»، لأنها لو وضعت فى جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة، كما لو وضعت سائلة مكدية ذات أطمار بالية قذرة فى جانب عروس متجلية بأفخر الملابس وأثمن الحلى وأبهاها.

وفى الحقيقة أن مصر بلدة فقيرة جداً، نصف أهلها، وهم الفلاحون، يعيشون بالشىء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعًا، والنصف الآخر ينقسم إلى قسمين، الأول: يشمل التجار والصناع، وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه إنه مالى ملىء. والآخر: يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات، وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعًا ما فى معيشتهم، ولكن أغلبهم إن حيل بينه وبين مرتب المعاش شهراً واحداً وقعوا فى العسرة والضنك الشديد.

أما أرباب الأطيان، من الذوات والعمد والمشايخ والأعيان فى البلاد، فحالهم كحال «رابيل» المؤلف الفرنساوى المشهور إذ قال فى وصيته: «إنى لا أملك شيئًا، وعلى ديون كثيرة. وأوصى ببقية ما أملك للفقراء».

والبلد التى يكون أهلها فقراء مثلنا لا يمكنها، مادام فقرها، أن تؤمل خيراً فى المستقبل، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها، إذ بالمال يتم كل شىء، وبغير المال لا يتم شىء مطلقًا.

والمملكة لا تكون غنية إلا إذا كان أهلها أغنياء، ولذلك قال أحد السواس المشهورين: أعطنى مالية حسنة أعطك سياسة حسنة.

כצנח הזמן שמעון פרס ביוגרפיה
מיכאל בר זוהר
ידיעות אחרונות
2006
782 עמודים

(كطائر الرمل: شمعون بيريس سيرة ذاتية)

ميخائيل بار زوهر
يديعوت أحرونوت
٢٠٠٦، ٧٨٢ صفحة



العديد من الكتب صدرت في إسرائيل وتناولت السيرة الذاتية للقائم بأعمال رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي شمعون بيريس، ودوره الحاسم في بناء الدولة العبرية. لكن كتاب «كطائر الرمل: شمعون بيريس السيرة الذاتية»، لمؤلفه ميخائيل بار زوهر، والذي صدر عن دار النشر «يديعوت احرونوت»، يكتسب أهمية خاصة. فالمؤلف الذي كان من قادة حزب العمل، وأحد النواب في كتلة الحزب البرلمانية لوقت طويل، اعتمد في كتابه على قربه ولعقود من الزمن من دوائر صنع القرار في الدولة العبرية، وبالذات عندما كان حزب العمل هو الذي يقود الدولة في الفترة (١٩٤٨-١٩٧٧).

الكتاب يورد تفاصيل وشواهد جديدة تدلل على التأثير الواسع لبيريس الشاب على رئيس الوزراء الإسرائيلي الأول دفيد بن غوريون. ويشير المؤلف إلى أن بن غوريون لشدة ثقته ببيريس كان يتبنى مواقفه وتوصياته حتى عندما كانت تخالف كبار وزراء الحكومة من امثال يسرائيل جليلي وجولدا مائير.

وينوه الكتاب إلى أن جولدا مائير كانت من أكثر الذين شعروا بالضيق من التأثير الطاغي لبيريس على بن غوريون، محذرة إياه من أن بيريس ينقله إلى «المكان الخطأ فقط».

اللافت للنظر، كما يتضح من الكتاب أن بيريس الذي لا يملك تجربة عسكرية تقريباً، كان له تأثير بالغ على بلورة الاستراتيجية الأمنية التي اعتمدها دفيد بن غوريون والتي أضحت العقيدة الأمنية لدولة الاحتلال حتى هذه اللحظة؛ وهي الاستراتيجية القائمة على الحرب الاستباقية. وإن كان هنالك الكثير من المؤلفات التي تطرقت لدور بيريس في بناء المشروع النووي الإسرائيلي، سيما عندما نجح في إقناع الحكومة الفرنسية بالموافقة على التوقيع على اتفاقية يقوم الفرنسيون بموجبها ببناء المفاعل الذري الإسرائيلي في «ديمونا»، عام ١٩٥٦، إلا أن بعض التفاصيل التي يوردها بار زوهر في كتابه حول دور بيريس هنا وكشف لأول مرة.

الكتاب يزخر بالتفاصيل عن الجهود التي قام بها بيريس من أجل إقناع الفرنسيين بالموافقة على طلبه بناء مفاعل ذري لإسرائيل.

الكتاب يتطرق للدور الهائل الذي لعبه بيريس في ارساء قواعد العلاقة الفرنسية الإسرائيلية في الستينيات من القرن الماضي، وهي العلاقات التي وظفتها الدولة العبرية في بناء قوتها العسكرية التقليدية وغير التقليدية. ويشير الكتاب الى قدرة بيريس الكبيرة على الوصول إلى جميع مستويات القيادة في الدولة الفرنسية. إلى جانب ذلك تطرق الكتاب بشيء من التفصيل إلى مسئولية بيريس عن التنسيق للعدوان الثلاثي على مصر في العام ١٩٥٦، مع العلم أن بيريس قام بكل هذه الأدوار من خلال منصبه كمدير عام لوزارة الدفاع. عندما كان بن غوريون يشغل كلاً من منصبي رئيس الوزراء ووزير الدفاع. ومنذ أواسط الستينيات أصبح بيريس وزيراً في الحكومة، وظل يتقدم في المناصب حتى أصبح وزيرا للدفاع في العام ١٩٧٤، عندما كان خصمه إسحاق رابين رئيساً للوزراء. وفي هذه الأثناء كان بيريس من المتحمسين لبناء المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة. وكوزير للدفاع قدم للمستوطنين الكثير من الخدمات والمساعدات.

ويتطرق الكتاب بشيء من التفاصيل لعملية «عنتيبي» في العام ١٩٧٦، والتي قامت فيها وحدة إسرائيلية خاصة بتحرير ركاب طائرة إسرائيلية اختطفت إلى العاصمة الأوغندية «عنتيبي»، حيث كان بيريس كوزير للدفاع هو الذي دفع إلى تنفيذها على الرغم من تردد رابين، وكانت من أنجح العمليات الخاصة التي ينفذها جيش الاحتلال.

ويتطرق الكتاب للفترة التي تولى فيها بيريس رئاسة الوزراء في العام ١٩٨٤ لأول مرة والخلافات التي كانت تنشب بينه وبين شريكه في الحكومة رئيس الليكود في ذلك الوقت اسحاق شامير.

ويتطرق الكتاب إلى ولاية بيريس الثانية كرئيس للوزراء بعد مقتل رابين أواخر العام ١٩٩٥.

المؤلف، وإن كان وثق للكثير من الأحداث بالغة الأهمية في حياة دولة الاحتلال، إلا أن خلفيته الحزبية الواضحة، وعلاقته الخاصة بقادة حزب العمل، جعلته لا يشير إلا إلى إنجازات شمعون بيريس.

*

חשבון ועוצמה
יצחק גרינברג
הוצאה: משרד הביטחון
2006
250 עמודים

(حساب وعظمة)

يتسحاك جرينبرغ
إصدار: وزارة الدفاع الإسرائيلية.
٢٠٠٦ ٢٥٠ صفحة



يبحث كتاب (حساب وعظمة) في العلاقة بين موازنة الأمن والأمن «القومي» الإسرائيلي بمفهومه الواسع. وكما يقول مؤلف الكتاب الدكتور يتسحاق غرينبرغ، الباحث في وحدة البحث التاريخي في وزارة الدفاع الإسرائيلية، فإن موازنة الأمن تصمم لبناء القوة العسكرية للدولة العبرية، وضمان تفوقها العسكري على كل دول المنطقة، في حين أن الأمن «القومي» يعني المحافظة على القوة العسكرية للدولة وتطويرها؛ إلى جانب شموله مسألة التطورات الديموغرافية في الدولة، ومراقبة موازين القوى الديموغرافية بين اليهود والفلسطينيين في الدولة؛ إلى جانب مراقبة عوامل المنعة للدولة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

ويكتسب هذا الكتاب أهمية كبرى، لأنه يتطرق إلى موازنة الأمن في الدولة العبرية، التي تعتبر واحدة من أكثر القضايا التي تحاط بالسرية التامة؛ وباستثناء مجلس الوزراء المصغر لشئون الأمن وقيادة هيئة أركان الجيش، وكبار موظفي وزارة المالية، وأعضاء اللجنة الفرعية لموازنة الأمن التابعة للجنة المالية في الكنيست (البرلمان)، فإن أحداً لا يطلع على تفاصيل هذه الموازنة. الكتاب يتطرق للتغيرات في مضامين موازنة الأمن في الفترة الفاصلة بين حرب العام ١٩٥٦ وحرب العام ١٩٦٧؛ إلى جانب الاعتبارات التي حكمت كلاً من المستوى السياسي الحاكم والمستوى العسكري في بلورة موازنة الأمن بشكل عام حتى الآن.

في نفس الوقت يتطرق الكتاب للعوامل المؤثرة في بلورة موازنة الأمن بشكل عام وأوجه تأثيرها على حجم الموازنة. وينوه الكتاب إلى سلم الأولويات الذي يؤثر على مبنى موازنة الأمن والمرتبط دوماً بالعقيدة الأمنية الإسرائيلية. في نفس الوقت يناقش الكتاب تأثير موازنة الأمن على الاقتصاد الإسرائيلي، الذي هو في الأساس اقتصاد دولة رفاه اجتماعي.

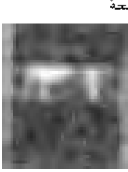
لا يتطرق الكتاب كثيراً للجدل الذي تثيره وسائل الإعلام الإسرائيلية بين الحين والآخر والذي تتهم فيه جنرالات الجيش بالتركيز على التحديات الاستراتيجية التي تواجه الدولة ورفضهم المتواصل لانخفاض مستوى هذه التحديات؛ وذلك من أجل تبرير مطالبتهم المستمرة بزيادة حجم موازنة الأمن.

*

מלחמה ללא אות
משה תמיר
הוצאה: משרד הביטחון
2006
282 עמודים

(حرب بدون علامة)

موشيه تمير
إصدار: وزارة الدفاع الإسرائيلية
٢٠٠٦، ٢٨٣ صفحة



في كتابه «حرب بدون علامة»، يتطرق جنرال الاحتياط في الجيش الإسرائيلي موشيه تمير، من خلال تجربته كضابط كبير في الجيش للعدوان الإسرائيلي على لبنان في العام ١٩٨٢ وما مثله ذلك العدوان من نقطة تحول فارقة في تاريخ العسكرية الإسرائيلية.

ويشدد الكتاب على أن نقطة التحول هذه تمثلت في خضوع الجيش الإسرائيلي الذي كان حتى ذلك الوقت يوصف بأنه «الجيش الذي لا يقهر» لحركات المقاومة اللبنانية، وتحديداً لحزب الله. ومن خلال تجربته الشخصية كقائد، يتطرق تمير إلى الصعوبات الجمة التي واجهت جيش الاحتلال أثناء أدائه لعملياته في لبنان.

ويشير الكتاب أيضا لتأثير الرأي العام الإسرائيلي على الموقف الرسمي من مواصلة التواجد العسكري الإسرائيلي في جنوب لبنان. ومع العلم أن هذه الحرب ادت إلى ظهور العديد من الحركات الجماهيرية الداعية إلى خروج الجيش الإسرائيلي من لبنان. كان أهمها حركة «الأمهات الأربعة».

هذا الكتاب يتناول من وجهة نظر شخصية مجريات هذه الحرب التي نظر إليها الكثير من الإسرائيليين على أنها حرب كان بالإمكان تجنب شنها، وتجنيب الدولة العبرية دفع الثمن الكبير والأليم

الذى دفعته خلال سنى تواجدها هناك التى امتدت من العام ١٩٨٢ وحتى العام ٢٠٠٠، عندما أمر رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود باراك قوات جيش الاحتلال بالانسحاب من لبنان. وهى الخطوة التى قوبلت باستحسان كبير من قبل الرأى العام الإسرائيلى

מנחם בגין: דיוקן של מנהיג
עפר גרוזברד
הוצאת: רסלינג
٢٠٠٦
٢٥٠ עמודים

(مناحيم بيجن، سيرة قائد)

عوفر غروزبيرد

إصدار: رسلينج

٢٠٠٦ ، ٢٥٠ صفحة



يتطرق كتاب «مناحيم بيجن، سيرة قائد»، لمؤلفه الطبيب النفسى عوفر غروزبيرد: إلى واحدة من أهم القضايا التى شغلت، ومازالت الرأى العام الإسرائيلى؛ ألا وهى الأسباب الحقيقية التى دفعت إسرائيل إلى شن الحرب على لبنان فى العام ١٩٨٢.

وينسف غروزبيرد فى كتابه هذا المسلمة القائلة أن هذه الحرب وما نجم عنها من تورط إسرائيلى مكلف فى المستنقع اللبنانى هو الذى أدى إلى إصابة مناحيم بيجن بحالة من الاكتئاب أدت فى النهاية إلى استقالته من رئاسة الوزراء.

ويزعم غروزبيرد أن العكس صحيح هنا؛ بمعنى أن إصابة بيجن بحالة من الاكتئاب هى التى أدت إلى حرب لبنان. ويضيف أن ما أصاب بيجن أوجد فراغاً سرعان ما ملأه وزير الحرب فى ذلك الوقت أرئيل شارون الذى دفع بيجن والحكومة فى ذلك الوقت إلى إعلان الحرب على لبنان.

ويضيف فى كتابه أن «الانزلاق إلى حرب دموية لا فائدة منها نبع من تفاقم الكآبة المزمنة لدى رئيس الوزراء، وهى واحدة من حالات عديدة أدت إلى إضعاف قدرته على الصمود فى وجه خطة الحرب التى وضعها أرييل شارون».. ويؤكد غروزبيرد على أن «التدهور فى الحالة النفسية لبيجن هى التى أدت إلى تطور الحرب إلى أبعد من أهدافها الأولية؛ لأنها لم تمكنه من السيطرة على مجرى التطورات. ليست حرب لبنان هى التى أدت إلى كآبته وإنما على العكس، الكآبة التى رافقته طوال حياته تصاعدت فى سنواته الأخيرة خلال توليه رئاسة الوزراء وهذا ما أدى إلى تدهور حرب لبنان».. ويذكر غروزبيرد فى كتابه أن القابلة التى ولدت بيجن هى جدة أرييل شارون.

ويضيف هنا أن بيجن كان فى مطلع العام ١٩٨٠ فى حالة «اكتئاب كبير» وذلك بعد شهرين على استقالة وزير الخارجية موشيه ديان. ويضيف غروزبيرد إنه بعد فوز الليكود، الذى قاده بيجن فى الانتخابات العامة فى العام ١٩٨١ ، شكل حكومة مؤلفة من الصقور مثل موشيه أرينز وإسحق شامير وأرييل شارون وعين رفائيل إيتان رئيساً لأركان الجيش وجميعهم معروفون بأفكارهم اليمينية، وأضاف أنه «كلما أصبح بيجن أكثر ضعفاً كلما سعى للتغطية على ذلك بإحاطة نفسه بمجموعة صقرية أكثر وذلك خلافاً للحكومة التى شكلها فى العام ١٩٧٧ .

وتابع غروزبيرد قائلاً إنه «كلما ضعف بيجن اعتمد أكثر على شارون ومنحه المزيد من الصلاحيات وهذه حالة مرضية بمعنى أن لا فرق بين بيجن وشارون. هذا يعنى أن بيجن لم يعد يفكر بشكل مستقل».. ويقول فى كتابه «ولذلك فإنى أدعى بأن الكآبة لدى بيجن التى تصاعدت بعد انتخابات ١٩٨١ سبقت الحرب وليس التورط فى الحرب هو الذى أدى إلى الكآبة. كذلك فإن تزايد عدد الجنود الإسرائيليين الذى قتلوا فى لبنان بعد الاجتياح أدى إلى غوص بيجن فى اكتئاب عميق».. وينقل غروزبيرد عن عليزا زوجة بيجن قولها إن زوجها اعتكف فى إحدى الأمسيات فى غرفته وبكى طوال الليل حزناً على جنود قتلوا فى لبنان، وإنها طلبت عدم الاتصال به فى ساعات الليل لإبلاغه بسقوط المزيد من الجنود.

יוזמת ז'נבה - מבפנים
מנחם קליין
הוצאה: כרמל
٢٠٠٦
٢٢٥ עמודים

(مبادرة جنيف - نظرة من الداخل)

مناحيم كلاين

إصدار: كرميل

٢٠٠٦ ، ٢٢٥ صفحة



فى كتابه «مبادرة جنيف نظرة من الداخل» يتطرق المستشرق مناحيم كلاين، إلى كل ما دار خلف الكواليس قبل الإعلان عن التوصل لهذه المبادرة، من قبل عدد من الساسة والأكاديميين الفلسطينيين والإسرائيليين برئاسة كل من عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ياسر عبد ربه، ويوسى بيلين الوزير السابق ورئيس حزب «ميريتس - ياحد» اليسارى.

هذه المبادرة تضمنت مبادئ عامة تحكم أى تسوية سياسية نهائية بين الشعب الفلسطينى ودولة الاحتلال، وقد لاقت معارضة عارمة فى الشارع الفلسطينى، بعد أن تبين أن الفلسطينيين الذين شاركوا فى الجهود للتوصل إليها تنازلوا عملياً عن حق العودة للاجئين الفلسطينيين، وغيرها من الثوابت الفلسطينية؛ فى حين أبدى اليمين الإسرائيلى معارضة قوية لما جاء فى هذه المبادرة.

مناحيم كلاين، كأحد المشاركين فى التوصل لهذه المبادرة، يكشف فى كتابه الصادر عن دار النشر «كرمل»، تفاصيل اللقاءات التى جمعت أعضاء الوفدين الإسرائيلى والفلسطينى فى العدد من عواصم العالم، ويتعرض لـ «حرب الصياغات»، التى دارت بين أعضاء الوفدين للتغلب على الخلافات فى وجهات النظر والمتعلقة بالقضايا الكبرى فى أى تسوية سياسية بين الشعب الفلسطينى ودولة الاحتلال، سيما مصير التجمعات الاستيطانية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، ومصير القدس المحتلة، وخط الانسحاب النهائى ومستقبل منطقة غور الأردن، وفكرة تبادل الأراضى بين الدولة الفلسطينية العتيدة ودولة الاحتلال؛ إلى جانب شروط إقامة الدولة الفلسطينية من حيث درجة تسليح هذه الدولة، وقدرتها على عقد تحالفات مع الخارج؛ وغيرها من القضايا الأخرى. كلاين يشير خلال الكتاب إلى أن الذين بادروا إلى صياغة مبادرة كانوا يرغبون فى النجاح فى المهمة التى فشل فيها الرئيس الفلسطينى الراحل ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود باراك خلال مؤتمر كامب ديفيد الذى عقد فى أواخر العام ١٩٩٩ .

وينوه كلاين المعروف بأرائه «اليسارية»، إلى أنه على الرغم من أن موازين القوى فى الساحة الحزبية الإسرائيلية لا تسمح بتبنى مبادرة «جنيف»، إلا أنه يشدد على أن المبادرة تعرضت للتحديات التى يتوجب على كل إسرائيلى أن يفكر بها.

זהויות בתשחק
תמיר שורק
הוצאה: מגנס
٢٠٠٦
٢٧٠ עמודים

(هويات فى الملعب)

تمير شورك

إصدار: ماجناس

٢٠٠٦ ، ٢٧٠ صفحة



يتطرق كتاب «هويات فى اللعبة: كرة القدم العربية فى الدولة اليهودية»، لمؤلفه تمير شورك إلى الطابع السياسى الذى يميز مباريات كرة القدم التى تجمع فرقاً يهودية وعربية من مواطنى فلسطين ٤٨.

ويشير شورك إلى العنصرية التى يتعاطى بها الشارع اليهودى مع الفرق العربية، سيما صرخات «الموت للعرب» التى يستقبل بها مشجعو الفرق اليهودية الفرق العربية فى ملاعب كرة القدم؛ ناهيك عن العنف الذى يميز هذه المباريات بحيث أن قيادة الشرطة تتخذ إجراءات خاصة من أجل ضمان الأمن فيها. الكتاب يدلل على أن الصراع الرياضى بين الفرق اليهودية والعربية أصبح صراعاً سياسياً، تغيب عنه روح التسامح الرياضية.

يتعرض الكتاب إلى ردة الفعل العنصرية التى سرت فى إسرائيل عندما صعد فريق «سخنين» العربى للدورى الممتاز الإسرائيلى، والذى تم التعامل معه كجسم غريب بين الفرق الرياضية اليهودية.

وينوه الكتاب إلى أن المواقف العنصرية اليهودية ضد الفرق الرياضية العربية تأتى على الرغم من الإنجازات الكبيرة التى حققها ويحققها المواطنون العرب فى الدولة العبرية، حيث إنه على الرغم من أن فلسطينيى ٤٨ يشكلون سدس السكان فى إسرائيل، إلا أن اللاعبين العرب يشكلون أكثر من ثلث أعضاء الفرق الرياضية فى إسرائيل. ويطرح المؤلف تساؤلاً: كيف ينجح العرب فى الرياضة فى حين يفشل اليهود؛ إلى جانب التساؤل عن مصير الصراع بين الفرق العربية واليهودية من ناحية سياسية، وهل بإمكان كرة القدم أن تساهم فى حل الصراع العربى الإسرائيلى؟

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات، وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

هواجس الغرب

قرأت مقال الأستاذ الكبير سلامة أحمد سلامة والمعنون «هواجس الغرب تجهض حوار الحضارات» وذلك فى عدد يوليو ٢٠٠٦ وسرد لنا الكاتب فى عرض شيق كيف أن مخاوف وهواجس العالم الغربى تجاه مجتمعاتنا الإسلامية اجهضت حوار الحضارات التى استغرقت وقتاً كبيراً من الزمن والجهد والمال ولكن دون جدوى، وكان كل ذلك لدحض فكرة صراع الحضارات التى روج لها الأمريكى صمويل هنتنجتون وأسفر رأى الكاتب فى نهاية المقال عن أن الفشل الذى منى به حوار الحضارات قد لا يتحمله الغرب وحده، وإنما تتحمل نصيباً منه التيارات الإسلاموية التى ترتدى ومازال ثوب الوصاية على قيم الغرب وممارساته وثقافته وتتهمه دوما بالانحلال والمادية وأنا مع الكاتب فى كل ما يقول ولكننى أتساءل: لماذا فشلت فكرة حوار الحضارات بعد عقدين من الزمن وبعد طول سجال، بل وتفاقمت بعد أحداث ١١ سبتمبر بل زادت وأدت إلى وصف الإسلام ذاته والتيارات الإسلامية بالإرهاب والعنف، بل حتى طالت المهاجرين إلى بلاد الغرب، بل واستنت لهم قوانين غاية فى الصرامة لتمكينهم بالهجرة والمكوث فى بلادهم، كما ذكر الكاتب. ومن ناقلة القول أقول إن الترسبات النفسية لدى الغرب تجاه الإسلام والمسلمين ترسبت فى العمق ومن زمن بعيد وإن المتتبع لسبر أغوار تاريخ العلاقات بين الغرب والشعوب الإسلامية يلاحظ حقداً مريرا يملأ صدر الغرب حتى درجة الجنون ويصاحب هذا الحقد خوف رهيب من الإسلام وأهله إلى أبعد نقطة فى التقسيمة الأوروبية. هذا الحقد وهذا الخوف لا شأن لنا بهما وإن كان مجرد إحساس نفسى شخصى، أما إذا كان من أهم العوامل التى تبلور مواقف الحضارة الغربية من الشعوب الإسلامية سياسياً واقتصادياً وحتى هذه الساعة فإن موقفنا يتغير بشكل حاسم وسوف تشهد لنا أقوال قادتهم أن للغرب والحضارة الغربية بكل فروعها القومية وألوانها السياسية تجاه الإسلام لا يتغير إنما تحاول محو الإسلام وإنهاء وجود شعوبه دون رحمة حاولوا تدمير الإسلام فى الحروب الصليبية الرهيبة ففشلت جيوشهم التى هاجمت بلاد المسلمين بالملايين فعادوا يخططون من جديد ليمضوا ثم يعودوا لنا بجيوش حديثة وفكر جديد وهدفهم تدمير الإسلام، بل إننى أرى منذ صعود الحضارة الغربية يعيش العالم عنفاً أسود يتحمل المسلمون النصيب الأكبر منه: فبعد إبادة ٢٥ مليوناً من الهنود الحمر، نرى بعد ذلك على سبيل المثال لا الحصر أن الاستعمار الفرنسى قام بقتل وتهجير ٢ مليون من السكان فى الجزائر وكانت الجزائر وقتها ٤ ملايين، أى أن الاحتلال قتل نصف السكان، ثم نرجع قليلاً إلى الوراء لنرى واقعاً آخر فى بلاد الأندلس وذلك على لسان سيجريد هونكة المستشرقة الألمانية تقول هونكة: فى ٢ يناير ١٤٩٢ رفع الكاردينال «ديبدر» الصليب على الحمراء القلعة الملكية للأسرة الناصرية، فكان ذلك إعلاناً بانتهاء حكم المسلمين على إسبانيا وبانتهاء هذا الحكم ضاعت تلك الحضارة العظيمة التى بسطت سلطانها على أوروبا طوال العصور الوسطى. وقد احترمت المسيحية المنتصرة اتفاقيا مع المسلمين لفترة وجيزة، ثم باشرت عملية القضاء على المسلمين وحضارتهم وثقافتهم. لقد حرم الإسلام على المسلمين وفرض عليهم تركه كما حرم عليهم استخدام اللغة العربية والأسماء العربية وارتداء اللباس العربى، ومن يخالف ذلك كان يحرق حياً بعد أن يعذب أشد العذاب. وهكذا انتهى وجود الملايين من المسلمين فى الأندلس فلم يبق فى إسبانيا مسلم واحد يظهر دينه» انتهى كلام سيجريد هونكة. هذا بعض مما حدث للمسلمين فى العصور الماضية أما ما يحدث الآن من مذابح فى فلسطين وأفغانستان والعراق وغيرهما وما حدث لمسلمى دول البلقان البوسنة والهرسك وخلافهما فحدث عنهما ولا حرج كل هذه الأحداث الجسام هى التى أدت إلى هذا الاحتقان الدائم بين الغرب والمسلمين وأفشل مبدأ حوار الحضارات أما لسان حال القوم من المسلمين الآن وما يعتريهم من الآلام فيذكرنا بقول القائل حبل الفجيعة ملتف حول عنقى.. من يعاتب مشنوقاً إذا ضربا.

صابر محمد عبدالواحد
عضو اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين. أخميم. سوهاج

السمو الأخلاقى

قرأنا فى مجلتكم الموقرة فى عددها الصادر فى يونية ٢٠٠٦ تحت عنوان «هل مازالت مصر وطن الجمال» للأستاذ عبدالمحسن محمود فرحات أستاذ عمارة البيئة والذى تألم وتحسر فى كلمته عن عمارة البيئة فى مصر أيام زمان وقارن بينها وبين عمارة مصر الآن، وكم فيها من قبح وقباحة وأورد مصطلحاً جديداً استعمل فى الآونة الأخيرة هو ما يسمونه «التنسيق الحضارى» وإن كنا نميل إلى تسميته «عمارة البيئة». وجاء فى قوله «تعتبر القيم الإنسانية الأساسية هى الحق والخير والجمال، والثلاث شديدة الارتباط بحيث يكون فى تقوية إحداها تقوية للقيمتين الأخريين، والعكس بالعكس، لذا يعتبر القبح السائد حولنا انعكاساً لضعف قيمتى الحق والخير وما يشتق منهما من قيم مثل العدل والإحساس بالمسئولية، بل والمحبة بين الناس أفراداً ومجتمعاً.

ونحن نرى من جانبنا أن مصر لم تعد موطناً للجمال فى عمارة البيئة، لأن عمارة البيئة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعمارة النفوس، فكما هربت القيم والأخلاق هربت صفة الجمال فى البيئة وتعالوا بنا نراجع عناوين الصحف والأخبار فى نهاية القرن العشرين وحتى الآن، فما من يوم إلا ونسمع أو نقرأ عن «عمارة الموت»، «عبارة السلام»، وانهيار كوبرى، وأسمنت مغشوش وتراخيص بناء مضروبة وارتفاعات غير مسموحة ووزراء أفلتوا من العقاب وفقراء يفترشون التراب. والحق نقول إنه لابد أن يكون هناك «سمو أخلاقى» قبل التنسيق الحضارى لأن المشكلة فى الأخلاق والقيم.

ورحم الله شيخنا متولى الشعراوى عندما استند فى هذه الجزئية إلى قول الشاعر:

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت ترابا

بمعنى أنه لا عمارة ولا عمران للبناء إذا كانت أخلاق المجتمع تراباً.

بدوى أبو شنب
محام. الأقصر

كأسك يا ماغوط

لست بباحث أكاديمى أو ناقد أدبى، ولكن مثلى كغيرى من القراء أحس بالكلمة أتفاعل معها - شريان الحياة الدائم بالنسبة لنا - التواصل مع مصدر المعرفة - الهم الخاص متداخل مع العام - ولا أبالغ إذا قلت شوقى بلا حدود مع هلال أول كل شهر للاطلاع على العدد الجديد من مجلتكم «وجهات نظر» حيث أتمكن وآلاف غيرى من القراء من السياحة الفكرية والثقافية مع الإصدارات الجديدة والدراسات الرصينة الهادفة التى تتناولها المجلة، وكم أسعدنى عدد مايو ٢٠٠٦ خاصة الدراسة النقدية لرواية «قبلة الحياة» لفؤاد قنديل التى تناولها الدكتور حلمى القاعود، ومقالة محيى الدين اللاذقانى حول رؤية الشاعر والمسرحى الراحل محمد الماغوط لتاريخ القمع السياسى - كما رواه - ومعرفتى بالشعر لا تتعدى أكثر من قارئ لكاتب مشهور، فمنذ منتصف الستينيات وأول الثمانينيات من القرن

الماضي كنا نقرأ لمحمد الماغوط بمجلة المستقبل التي كانت تصدر بباريس ويرأس تحريرها آنذاك الصحفي اللبناني نبيل خوري بالصفحة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة على ما أذكر بأسلوبه الساخر، ماذا سيكتب للوطن؟ - ومازلت أذكر. ومنذ ما يقرب من ربع قرن مقالة له فيما معناها أنه سأل شرطياً وهو متوجه إلى مطار باريس: كم الساعة الآن؟ فما كان من الشرطي إلا أن رفع قبعته وانحنى وأجابه الساعة السابعة الآن يا سيدي؟، فكرر عليه السؤال، فكانت إجابته بنفس الاحترام والتقدير، فتلفت يمناه ويسراه ليتأكد هل يجد أحداً غيره مقصوداً بهذا الاحترام والتقدير. ولأول مرة يشعر بآدميته وإنسانيته. وكم كان يتمنى في تلك اللحظة أن يراه شرطي بلاده؟! وشعر في تلك اللحظة كم هو إنسان خارج الوطن، كنا نتابع مسرحياته ومنها «كأسك يا وطن» والكثير غيرها والتي كانت تُعبر عن الحالة السياسية والثقافية لسوريا آنذاك والوطن العربي عامة، هذا هو محمد الماغوط. كان الشرطي فكرة كابوسية وليس وجوداً جسدياً في الشارع، فحسب كان في وجدانه وعقله كما أشار اللاذقاني في المقال. إذن رحل الماغوط ومعه شارع القمع السياسي كما رواه، رحل ومعه حلم الحرية التي كان يبحث عنها منذ خمسينيات القرن الماضي، وكما روى بالنص في المقالة: «إن الأجيال العربية التي حلمت بالحرية لم تحصد غير تكثيف الحضور الأمني والتطور التقني في الرقابة».

وإذا كان ذلك كذلك فمتى يتم فك أسر الشعوب من قبضة حكامها؟

متى يا رب؟

سعيد الرفاعي

العمار الكبرى . قليوبية

الواقعية والوقوع

مع انتشار وسائل الإعلام المرئية والمقروءة وتنوعها ومع اتساع مساحة البث التليفزيوني والكتابة الصحفية بصورة أصبح معها ملء الفراغ بالكم أهم كثيراً من النوعية والمستوى، في ظل هذه الوضعية الضاغطة ظهر حشد من الخبراء والباحثين والاستراتيجيين الذين تتغير صفاتهم وتخصصاتهم طبقاً للموضوع الذي يعلقون عليه. فإذا كان الموضوع في العنف أصبح المذكور خبيرا في قضايا الإرهاب وإذا كان الموضوع يتعلق بالموقف الأمريكي في العراق أصبح هذا «النفر» أو «النزول» أو «النزلة» أو «المعود» خبيرا في الاستراتيجية الأمريكية بل قد لا يتورع أن يطلق على نفسه متخصصا في النظام السياسي الأمريكي.

هذا الحشد من الخبراء لا تعرف عنهم شيئا سوى مخرجاتهم التي يخرجونها علينا ليل نهار فلا تعرف أين تعلموا؟ أو من أين تخرجوا؟ أو في أي الموضوعات - إذا كان لديهم تخصص قد تخصصوا؟ وعلى الرغم من ذلك صار هؤلاء هم صنّاع الرأي وحرّاس بواباته والمتحكمون في تشكيله وتوجيهه.

وأصبحت مقولاتهم وآراؤهم هي التي تحرك النقاش وتتحكم في وجهة الحوار ونتائجه، وللمرء أن يتخيل مآل حالنا إذا قاد أمتنا أنصاف العلماء أو أشباههم. فنصف العالم نصف جاهل كما كان يردد على مسامعنا منذ ربع قرن أستاذنا الدكتور رفعت المحجوب أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة القاهرة.

ويشارك هؤلاء الخبراء مجموعة من هواة العمل السياسي الذين دخلوا إلى السلطة من نوافذ الفساد أو المحسوبية أو الارتباط بمصالح دولية معينة. هؤلاء جميعا أصبحوا عباقرة «الواقعية» ومنظّريها ومراجع الفكر السياسي الواقعي ورواده: يصبون جام غضبهم واحتقارهم على أولئك الحالمين الرومانسيين الغارقين في الوهم المتمسكين بالثوابت والحريصين على المبادئ والمحافظين على هوية هذه الأمّة وأمنها القومي ومصالحها العليا.

فدائما يزين هؤلاء الخبراء والسياسيون الهواة أقوالهم وتصريحاتهم بمفهوم «الواقعية» على أساس أنها الكلمة السحرية التي تعطي لآرائهم الشرعية والحجية وتدحض آراء معارضيهم وتنزع عنها المصداقية وتلقي بها خارج دائرة الحوار.

لذلك وجب أن نناقش هذا المفهوم ونميز بينه وبين نقائضه ومعاكساته، فإذا كان التعريف المتداول للسياسة أنها «فن الممكن» فالممكن لا يعني الموجود أو المتاح وإنما يعني نهاية حدود الإمكانيات والإمكانات: فهي «فن الممكن من أجل التمكين» كما يقول خالد الحسن السياسي الفلسطيني. لذلك تكون السياسة حركة تفاعلية مع الواقع تنطلق منه نحو تحقيق الأهداف باستخدام كل الوسائل المتاحة وتعظيمها واستنفاد كل الإمكانات وتفعيلها. ومهما كانت الإمكانات ضعيفة فإن العنصر الإنساني يلقي عليها معنى ويحولها من شيء عديم القيمة إلى قيمة تفوق طاقة الأشياء. فالحجر والحصى في يد الطفل الفلسطيني له معنى غير ذلك الحصى الذي يلعب به آخرون «السيجة»، والملابس عديمة القيمة ضعيفة المستوى على جسد غاندي لها معنى يفوق طيلسانات أعظم الملوك.

ومن ثم فالواقعية تعني الانطلاق من معطيات الواقع والابتكار في تفعيلها من خلال رؤية نافذة تخترق حجب الزمن وتغوص إلى ما وراء الواقع لتخلق واقعا أقدامه على أرض الواقع ورأسه فوق السحاب. ولولا هذه الرؤية البصيرة ما كانت معجزة دبي واقعا ملموسا يتجاوز كل محدوديات وقيود الواقع العربي والواقعيين العرب.

فالواقعية التي يتشدق بها أنصاف العلماء من الخبراء والاستراتيجيين وهواة السياسة ليست واقعية بل هي «وقوع»، أي هي حالة من وقوع الرأس تحت القدم بحيث أصبحت العيون لا ترى إلا حوافر ولا تلامس إلا التراب وتقبل بالأدنى لأنها في الأدنى، وتتنفس الهوان لأنها ملتصقة بالثرى والطين وتسعى إلى تبريره واعتباره الحد الأقصى للطموح.

فذلك الفكر الوقوعي وليس الواقعي يدعو أمتنا إلى الرضا بالموقع الأسفل وتقبيل اليد التي تهيمن حتى يصبح التفاعل مع المحتل، المنتهك لسيادة الأمة وحرمتها وحريتها الناهب لثرواتها والمدمر لإمكاناتها، شرفا يتشدق به الوقوعيون ويفاخرون به بل يعتبرونه نضالا ومقاومة وجهادا.

ولو تخيلنا أن هذه الفصيلة البشرية الوقوعية كانت هي السائدة في التاريخ البشري لخلا هذا التاريخ من الثورات وحركات التحرير والابتكارات والاختراعات وكل الفعاليات التي كانت تمثل خروجا عن المألوف، ولتمّ اعتبار المخترعين الكبار والفلاسفة العظام مجانين أو حالمين أو سفهاء. ولما تقدمت البشرية خطوة إلى الأمام ولما حصلت الشعوب على حقوقها ونالت حريتها وكرامتها.

ولو طالبنا الأفارقة في الولايات المتحدة بالوقوعية لما كان هناك مارتن لوثر كنج ومالكوم أكس ولما كانت هناك حركة لتحرير السود من نير العبودية ونيلهم لحقوقهم الإنسانية.

ولو كان زعماء حركات التحرير في العالم الثالث واقعيين بالمعنى الوقوعي لما كانت هناك ثورات تحرير ولما نالت هذه الشعوب استقلالها وتخلصت من الاستعمار.

لذلك لن يكون واقعيا مطالبة الفلسطينيين بقبول الواقع المتغير (المتجدد) الذي تفرضه يد الاحتلال الغاصب على أرضهم، ولصارت هناك واقعيات مختلفة: فالواقع الذي صنعته اتفاقية أوسلو وقبلته الواقعيون حينذاك هو غير الواقع الذي صنعته اتفاقيات طابا وشرم الشيخ وخريطة الطريق وقبله الوقوعيون حينها، وذلك كله غير الواقع الذي صنعه الجدار ويطالب الفلسطينيون بقبوله.

فأي واقعية ينبغي أن يكون عليها الفلسطيني، أو بعبارة أخرى لا بد أن يكون وقوعيا حتى يقبل بالواقع كما يحدده عدوه.

والحال هكذا بالنسبة للعراقيين ولغيرهم من الشعوب المقهورة المضطهدة. لذلك وجب علينا أن نحرر الفهم والعقل من فلسفة الوقوعية ونتفاعل مع الواقع كمعطى مادي تستطيع يد الإنسان أن تحوله وتغير معانيه ودلالته.

نصر عارف

من الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

هذا بيان للناس

* (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين)

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)

(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله)

(وتلك الأيام نداولها بين الناس)

(وليعلم الله الذين آمنوا، ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين)

(وليمحص الله الذين امنوا ويمحق الكافرين).

....

....

بمناسبة مرور أسبوعين من المعارك البطولية التي يخوضها جند الله في فلسطين ولبنان في مواجهة أعداء الله من الصهاينة ومن يشد أزرهم. تلك المعارك التي تذكرنا ببطولات القرون الأولى، قرون الصحابة رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان، يرى الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين من واجبه، أن يذكر أبناء هذه الأمة جميعاً، بغض النظر عن أعمارهم وبلدانهم ومذاهبهم وجنسياتهم، بواجبهم في دعم جهاد إخوانهم في لبنان وفلسطين بالنفس والمال واللسان والقلم، «فالمسلم - كما يقول النبي ﷺ - أخو المسلم: لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»، «المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (التوبة: ٧١). وقد أوجب الإسلام على المسلمين إذا غزيت أي أرض لهم أن يقاتلوا دفاعاً عنها وهذا فرض عين عليهم. وأوجب على المستطيع من المؤمنين أن ينفر إذا استنفر لمعاونة إخوانه بما يحتاجون إليه من رجال وسلاح ومال. فقال سبحانه: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ (التوبة: ٤١). وقال النبي ﷺ: «وإذا استنفرتم فانفروا». وهذه النفرة تكون بالمال والسلاح وتكون بالنفس: روحاً، ويداً، ولساناً، وقلماً، وتشجيعاً، وتحريضاً على القتال، ودعاء على المعتدين، ولا تكون تخذيلاً للمجاهدين، أو تعويقاً لهم، أو انتقاداً لجهادهم، أو سلقاً لهم بألسنة حداد. وقد قال ربنا عز وجل عمن يفعل ذلك: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا. ولا يأتون البأس إلا قليلاً[١٨] أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت: فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد. أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾ (الأحزاب: ١٨-١٩).

وقال سبحانه:

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل[١٧٣] فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم[١٧٤] إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران ١٧٣-١٧٥).

كما يعيد اتحاد علماء المسلمين التأكيد مجدداً على أهمية توحيد صفوف المسلمين، ويحذر من خطورة الانزلاق مع بعض الدعاوى الخبيثة التي يطلقها المضللون والمضللون هنا وهناك، بمهاجمة طائفة من طوائف المسلمين أو إثارة الفتنة بينهم، أو إضفاء الصواب المطلق على رؤية شاذة أو فتوى متطرفة: أياً كان مصدرها، أو وصف الآراء الأخرى التي لا توافقها بالضلال أو الفسوق أو الكفر، ويخص الاتحاد بالذكر ما نراه وما نسمعه بين حين وآخر، لاسيما منذ أن ظهرت بطولات المقاومة الإسلامية في لبنان، من المغرضين والمغرر بهم من تفريق بين السنة والشيعة، وهم جميعاً من أهل القبلة، أو من الاقتتال بينهما في أي ميدان.

والحق أن القول الثابت الذي يثبت الله به الذين آمنوا: وهو كلمة «لا إله إلا الله»، هو الذي يضفي على قائله صفة الإسلام، وأن اختلاف الآراء وتعددها ضمن إطار الإسلام الجامع هو من المزايا الإيجابية لهذا الدين: وقد قال سيدنا رسول الله (في الحديث المتفق عليه: «من قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها، وحسابه على الله تعالى».

وقد آن أن نستجيب لقول الله عز وجل: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (آل عمران: ١٠٣)؛ وقوله سبحانه: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال: ٤٦)، وقوله جل وعلا: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات: ١٠). وقول النبي («بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه». وقوله («المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً».

إن هذا العدوان الوحشي الذي ينفذه أولئك الذين ﴿لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة﴾ (التوبة: ١٠) على إخواننا في لبنان وفلسطين، والذي يتجلى فيه الجبن بأجلى مظاهره، إذ ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ (الحشر: ١٤)، ولا يجرؤون على مجابهة المجاهدين المصابرين المرابطين وجهاً لوجه، بل يصبون جام قذائفهم المحرم استعمالها دولياً، من طائراتهم وبوارجهم، على الأطفال والنساء والرجال الذين لا يقاتلون، وعلى المساكن والمدارس والمستشفيات والبنية الأساسية للبلاد.. إن هذا العدوان الذي يمثل الخسة والنذالة بأجلى مظاهرهما، احتماء بقوى الهيمنة والاستكبار، واستفادة من الصمت الدولي المشبوه، لن يؤدي إلا إلى مزيد من الثبات والصمود لدى أبناء هذه الأمة، الذين أظهروا من البطولات والصبر ما يحير الأعداء وغير الأعداء؛ وإلا إلى مزيد من الجبن والرعب في قلوب الصهاينة بحول الله:

﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ (الأنفال: ١٢).

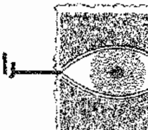
ولا يحسبن أحد أن ما تواجهه القوة الصهيونية المجرمة من هزائم في الجبهة اللبنانية، سوف يخفف من استهدافها للجبهة الفلسطينية، بل إن الواقع الميداني يدل على ازدياد شراسة الصهاينة على إخواننا في فلسطين؛ مما يوجب علينا أن نحافظ على أعلى مستوى من اليقظة والحذر، وأن نواصل تقديم الدعم لهم بشتى صوره وأشكاله بما في ذلك أموال الزكاة والصدقات والوصايا بالخيرات العامة وغيرها، بل يجب أن يقتطع المسلمون نصيباً من أموالهم الخاصة ومن أقواتهم لدعم إخوانهم، كما أفتى الاتحاد من قبل.

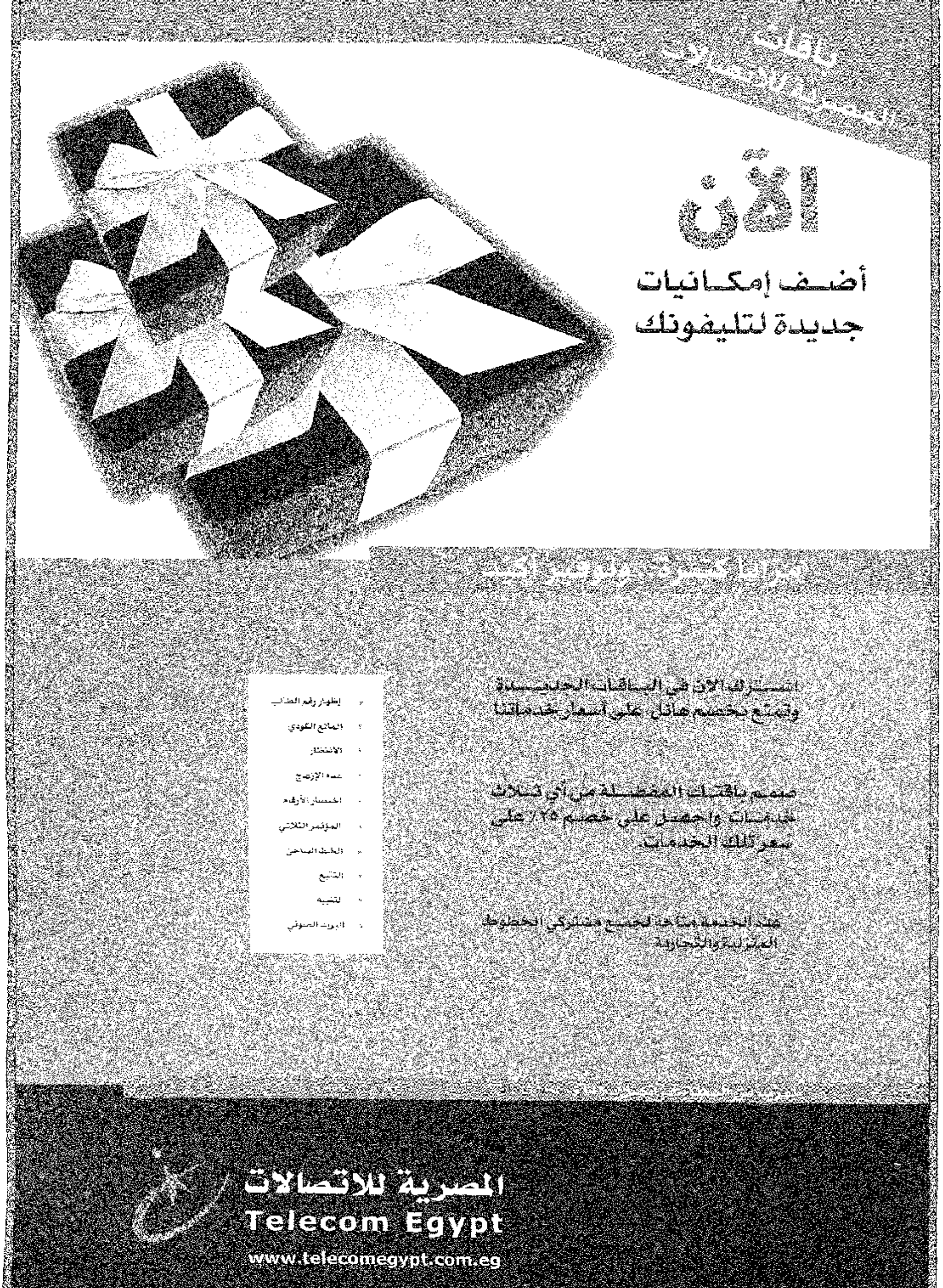
﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف: ٢١).

د. سليم العوا - الأمين العام للاتحاد

د. يوسف القرضاوي - رئيس الاتحاد

صدر هذا البيان عن الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين في يوليو ٢٠٠٦

خرائط
قـــراءة التيه

ص ٦


الآن
أضف إمكانيات
جديدة لتليفونك
اشترك الآن في الباقات الجديدة
وتمتع بخصم هائل على أسعار خدماتنا
صمم باقتك المفضلة من أي ثلاث
خدمات واحصل على خصم ٢٥٪ على
سعر تلك الخدمات.
هذه الخدمة متاحة لجميع مشتركي الخطوط
المنزلية والتجارية
إظهار رقم الطالب
المانع الكودي
الانتظار
عدم الإزعاج
اختصار الأرقام
المؤتمر الثلاثي
الخط الساخن
التتبع
التنبيه
البريد الصوتي
المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
www.telecomegypt.com.eg



فروع
أكثر لراحتكم

١- فرع القاهرة
١٠٨٧ كورنيش النيل - جاردن سيتى

٢- فرع عدلى
٩ شارع عدلى - وسط المدينة

٣- فرع جاردن سيتى
٤ شارع أحمد باشا - الدور ١٢

٤- فرع مبنى اتحاد الاذاعة و التلفزيون
كورنيش النيل - ماسبيرو

٥- فرع المهندسين
٤ شارع سوريا

٦- فرع الجيزة
٣٢ ب شارع مراد

٧- فرع المعادى جراند مول
٢٥٠ ميدان كلية النصر - المعادى الجديدة

٨- فرع حلوان
١٠٠ شارع المنصور - حلوان

٩- فرع مصر الجديدة
٥٢ شارع نزيه خليفة

١٠- فرع جنينة مول
٤٩ شارع البطراوى - مدينة نصر

١١- فرع العاشر من رمضان
المركز التجارى - مدخل ١

١٢- فرع فيصل
٧،٦ مساكن المنصورية - كفر نصار - نهاية فيصل

١٣- فرع ٦ أكتوبر
٤٣ ب المنطقة الصناعية الثالثة

١٤- فرع جامعة ٦ أكتوبر
مدينة الثقافة والعلوم - مجمع معاهد قناة السويس للتكنولوجيا

١٥- فرع القرية الذكية
الكيلو ٢٨ طريق مصر اسكندرية الصحراوى- مبنى ١١٥ ب

١٦- فرع باتريس لومومبا (الاسكندرية)
٢ شارع باتريس لومومبا- باب شرق

١٧- فرع سموحة (الاسكندرية)
٣٨ شارع توت عنخ أمون

١٨- فرع العطارين (الاسكندرية)
١٥ شارع محمود عزمى

١٩- فرع زهران مول (الاسكندرية)
٣٦ شارع فيكتور عمانويل

٢٠- فرع قرية بدر (الساحل الشمالى)
الكيلو ٨٣ - الساحل الشمالى

٢١- فرع قرية غزالة (الساحل الشمالى)
الكيلو - ١٤٢طريق الساحل الشمالى
فندق موفينبيك العالمين - قرية خليج غزالة

٢٢- فرع السويس
١ شارع البرج - تقاطع ٢٣ يوليو

٢٣- فرع الغردقة
طريق النصر بجانب مستشفى البحر الأحمر

٢٤- فرع شرم الشيخ
شارع صلاح طاهر - منتجع هوليداى أمفورس

٢٥- فرع أسيوط
برج الهدى شارع التحرير متفرع من شارع يسرى راغب

٢٦- فرع أسوان
٨٢ شارع التحرير - بندر أسوان

والآن فرعين جديدين
فرع روكسى: ٨٠ شارع الخليفة المأمون
فرع الأقصر: شارع معبد الكرنك - أمام الإدارة التعليمية

PIRAEUS BANK
بنك پيريوس - مصر

البنك بنكك

إتصل بـ 19322

Animation Advertising